عباس محمود العقاد

الحاضر الغائب

سامح كُريّم

الدار المصرية اللبنانية

عباس محمود العقاد

الحاضر الغائب

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت تليفون: 3910250- فاكس: 3909618
- ص.ب 2022 - برقيا دار شادو - القاهرة
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

تجهيزات فنية: الإسـراء ت: 3143632
طبع: آمـون ت: 7944356 - 7944517
رقم الإيداع: 4170 / 2004
الترقيم الدولى: x - 840 - 270 - 977

الطبعة الأولى: صفر 1425هـ مارس 2004 م

عباس محمود العقاد

الحاضر الغائب

بقلم: سامح كُرَيِّم

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

أما قبل

هو العقاد... وكفى!

هو العقاد الذى رحل عنا، تاركا حياتنا والفكر فيها حافل باليقظة والنشاط، بعد أن كان محنطا فى توابيت العصور الوسطى، والأدب نابض بالحركة والحياة.. بعد أن كان متحجراً فى قوالب بالية، والفن يرسل أشعته عبر الحدود، بعد أن كان محفوظاً داخل العلب والمواخير.

وهو العقاد أحد الرواد القلائل الذين استطاعوا أن يقيموا جسوراً قوية بين أدبنا الحديث، والآداب العالمية. واستطاع هو - بدم القلب، ووهج الفكر، وصلابة الفولاذ - أن يستوعب هذه الآداب العالمية ويهضمها، ثم يتخذ منها موقفا انتقاديا. حيث رفض أغلبها، واتفق مع بعضها، وكوّن لنفسه رأيه الخاص.. وكان صادقاً حين قال: لم أتأثر بأحد لأنى أردت أن أكون أنا نفسى!

هو العقاد القاسم الشريك فى معركة أبناء أمته من أجل البناء والتقدم، وليس كغيره ممّن يتخذون مواقف المتفرجين كعواجيز الفرح لا يهمهم إلا الانتقاد.

هو العقاد الجاد دوما، الصارم أحيانا، المتجهم فى بعض الأحيان.. لكن هو نفسه حين يخلو إلى أصدقائه المقربين. فهناك يطل من وراء القناع العقلى للعقاد. عقاد آخر.. إنسان بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ودلالات.. فهو يبكى ويضحك، يكره ويعشق، يهتز لدمعة طفل، ويهرع لصرخة ثكلى، ويجفل من إهدار كرامة.. يحب مواويل الصعيد وقد يتغنى ببعضها، ويروى النكات اللاذعة ويتغلب على ملوك الفكاهة فى حلبات الضحك، ويقهقه بصوت جهير، ويحن حنينا مستمرا إلى أشياء عاشها هناك فى تلك الأرض التى أنبتته فى ذات يوم!

هو العقاد صاحب الثقافة الواسعة التى ترى من خلالها العا لم كله، وتطوف الأرض من أقصاها إلى أدناها، وتحلق فى سموات تعرفها، وأخرى لم تعرفها و لم تسمع عنها، وتصول فى رحاب هذه الثقافة وتجول وكأنك سائح فى عالم مجهول لا أول له ولا آخر!

هو العقاد الذى نقول عنه ذلك دائما ولا نمل التكرار إذا كان يفيد التأكيد على ما نقول، وتلك ثقافته المتمثلة فى كتبه وأحاديثه ودواوينه وبقية أعماله ومواقفه فهذه كتبه وأحاديثه ودواوينه وبقية أعماله ومواقفه التى تزين لنا متعة التفكير فى القدرة الإلهية وما وراءها من فلسفات وتأملات.. حتى يوصد أمامك كل أبواب الشك بما فيه من تساؤلات واحتمالات ليفتح لك أبواب اليقين بكل ما فيه من حقائق ووقائع، ويسلمك هذا الكتاب للعقاد الذى عشت أنت معه فى السماء متأملا.. إلى الأرض فيكون اللقاء من أهلها وأول ما يلتمع فى خاطرك كلمات سديدة ورشيدة وقوية تشكل موقفا باهراً ضد ما فى الحياة البشرية من ضعف وعجز.. حيث يكون اللقاء مع محمد ﷺ فى عبقريته.

ويدعوك كتاب آخر للعقاد إلى زيارة فلسطين الحبيبة، حيث شهد التاريخ يوماً إنساناً شامخ النفس، مستقيم الضمير.. بلغت الإنسانية فى تقديره.. الغاية التى جعلته ينعت نفسه بابن الإنسان.. حيث يكون اللقاء بالمسيح عليه السلام.

ومن قبل الاثنين محمد وأخيه المسيح.. أخذت الأرض زينتها لتستقبل إنساناً عظيما جاء إليها ليحطم أوثانها وأصنامها، ويدعو الناس إلى عبادة الواحد الأحد.. عند أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام يكون اللقاء.

وكتب إسلامية أخرى، تحملك إلى عصر الدولة الإسلامية فى شموخها وازدهارها، وتتيح لك شرف اللقاء بمن أقاموا صرح هذه الدولة بالحق والإيمان.. حتى كانوا خير أمة أخرجت للناس، هنا نلتقى مع العقاد فى عبقرياته وشخصياته عن الصديق أبى بكر، والفاروق عمر، والإمام علي، وذى النورين عثمان، وسيف الله خالد، وأبى الشهداء الحسين، وداعى السماء بلال، والصديقة بنت الصديق،

وفاطمة الزهراء، وكاتب الوحى معاوية، وداهية السياسة عمرو، وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم.

ولا تتوقف رحلتك - مع ثقافة العقاد - داخل الدولة الإسلامية عند اللقاء بهذه الشخصيات والعبقريات الفذة، فهناك اللقاء بالنظريات والأفكار التى بنيت عليها دعائم هذه الدولة فى كتب تهتم بالدراسات والأبحاث، وأخرى تضعك وجها لوجه مع التفكير الإنسانى - عامة - فى شتى آفاقه ومجالاته من خلال شخصيات عالمية يتقدمها بيكون، وشكسبير وبرناردشو وجيته وخيمينيز ونوبل وغاندى وفرانكلين وسن ياتسن، وكتب أخرى للعقاد تذكرك بمجدك العربى القديم فى العلم والفكر والأدب.. من خلال شخصيات ابن سيناء وابن رشد والغزالى وابن الرومى وأبى نواس وجميل بثينة وعمر بن أبى ربيعة، وكتب ثالثة للعقاد تقدم لك زعماء الإصلاح فى الدولة الإسلامية فى العصر الحديث.. سعد زغلول ومحمد عبده وجمال الدين الأفغانى وعلى جناح وعاهل الجزيرة العربية وغيرهم، وكتب أخرى تحذرك من خدعة الشهرة لبعض قادة التاريخ ممن بنوا أمجادهم على جماجم البشر، وأقاموا شهرتهم عن طريق التدمير والتقتيل. إن صاحبها العقاد يحذرك من رجال مثل: هتلر وموسولينى ونابليون، حيث يرى أن عالماً متواضعا فى معمله يستطيع أن يقدم للبشرية عملا هو خير الف مرة من أعمال هؤلاء، وكتب خاصة تضعها فوق راحة يدك وتقدم لك مذاهب وتيارات مثل: النازية والصهيونية والعنصرية والماركسية وزعيمها ماركس، الذى كان يدعو إلى قيمة العمل وهو فى الوقت نفسه يعيش عالة على غيره! وكتب سادسة تقدم لك مناهج النقد والأدب وكيف استن شرعة جديدة لكل منهما، وسابعة تقدم لك الفلسفة لا على أنها تأويلات وتخريجات لفلسفات العرب، كما يصنع غيره ممن ينعتون أنفسهم بالفلاسفة، ولكنها تطبيقات وتأملات لواقع الفكر العربى قديمه وحديثه، وثامنة تقدم لك الفن والجمال فى أرقى الصور وأرفعها، وتاسعة تقدم لك نماذج للسيرة الذاتية، وعاشرة أقصد دواوين للشعر أحد عشر ديوانا تقدم لك العقاد الشاعر أو أمير الشعراء بعد شوقى.

كتب تحملك إلى القرن الهجرى، وأخرى إلى القرن الميلادى، وثالثة إلى ما قبل الهجرة والميلاد، ورابعة إلى القرن العشرين، قرن التحولات العظمى فى الفكر والاختراع وأحداث التاريخ.

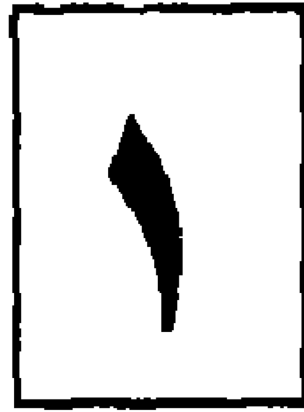
هل انتهت رحلة الثقافة العقادية عند هذا الحد؟

بالقطع لا، فهناك معاركه الفكرية والسياسية والأدبية.. التى نقلت الصراع الدائر بين القديم والجديد من مستواه الضيق الذى كان عليه إلى مستوى أرحب وأوسع، فجعلت هذا الصراع جزءاً لا غنى عنه فى تكويننا الفكرى والسياسى والأدبى.

آنًا تكون مع العقاد مغرداً فى شعره، وآنا تكون محاوراً له فى تأملاته وفلسفته، وآنا تكون متعاطفا معه حين يستنطق أبطال أعماله الإبداعية، وآنا تكون منبهراً ومشدوهاً بمواقفه وصموده فى معاركه ضد الطغيان الأدبى أو الاستبداد السياسى.. وكأنه - أى العقاد - جامعة جمعت فأوعت أو دائرة للمعارف متجددة على مدى أكثر من نصف قرن، أو موسوعة متكاملة ترجع إليها فى كل جوانب المعرفة، فتجد الغذاء الثقافى الذى لا غنى عنه.

ولهذا نصفه بأنه عملاق الفكر العربى قولاً وفعلاً، وليس فى هذا الوصف مبالغة أوتزيدا، وإنما هو الوصف المناسب لمفكر فى طول قامة العقاد.

هو العقاد أو عملاق الفكر العربى.. ذلك القلم الجبار الذى سطر لنفسه وللثقافة العربية.. كتباً متفردة متميزة رائدة تحتاج إلى من يتصفحها بعين مخلصة وأخرى واعية. كما صنع ثقافة موسوعية لا تقف عند حدود المحلية أو الإقليمية وقد تتجاوز ذلك إلى العالمية. وهذه الصفحات إن طمحت.. فإنها تطمح فى أن تقدم لك جوانب من فكر العقاد بصورة مركزة تتضمنها موضوعات مختصرة.. تقدم للقارئ العقاد بفكره وأدبه، بأعماله ومواقفه.



أولا : فى الفكر الدينى

- العقاد كاتبًا إسلاميًا

فى الثانى عشر من شهر مارس من كل عام تمر ذكرى وفاة عملاق الفكر العربى عباس محمود العقاد.

وقد لا أجد فى هذه الذكرى ما يمكن الرجوع إليه فى كتابات العقاد - فى هذه السنوات التى يتعرض فيها الإسلام ونبيه الكريم للاجتراءات والتهجمات المبنية على ادعاءات وافتراءات فاسدة - أفضل من الرجوع إلى كتاباته فى الإسلام، وتقديمه للصورة الحقيقية لهذا الدين الحنيف، وفى الوقت نفسه الدفاع عنه ضد هذه الادعاءات وتلك الافتراءات فى كتبه عن الإسلام التى تزيد عن الثلاثين كتاباً.

فليس صدفة أن يعد العقاد - فى تاريخنا الثقافى الحديث - من أكبر المدافعين عن الإسلام بالحجة والدليل، وأن يضع حقائق هذا الدين الحنيف فى مواجهة أباطيل خصومه، وأن يلتقي حول كتاباته الإسلامية عدد كبير من نقاده ومؤرخى حياته حتى وإن اختلفوا فيما بينهم أو اختلفوا معه، وأن يتفق حول أمانة كتاباته الإسلامية عدد كبير من المتخصصين فى الدين.. فرأى - على سبيل المثال لا الحصر - الشيخ أحمد حسن الباقورى أن العقاد كان خير لسان للعروبة والإسلام بما كتب من دراسات، وأذاع من أحاديث تدفع عن العربية وأوهام المبطلين وعن الإسلام شبهة المغرضين.

كما رآه داعية الإسلام الشيخ محمد الغزالى خير من كتب عن العقيدة والدين بوعي وإيمان من غير الأزهريين، وأن يكون العقاد بين أفراد جيله من الأفذاذ صاحب أكبر عدد من المؤلفات الإسلامية يزيد على الثلاثين مؤلفا.

ليس صدفة والأمر كذلك أن يصبح عباس محمود العقاد كل ذلك وأكثر، إذ كانت عينيه قد تفتحت وهو صبى صغير على بيت الدين، وأساتذة يحترمون الدين، وبيئة تحافظ على الماضى محافظتها على الحاضر.

بيت يقدس الدين فهاهو العقاد يحدثنا فى سيرته الذاتيه "آنا" عن أبيه وكيف تمثل صورته التى رآها ألفى مرة بل أكثر من ألفى مرة. حيث كان يراها كل يوم منذ أن فتح عينيه على الدنيا إلى أن فارق بلده أسوان بعد اشتغاله بالوظائف الحكومية، فيقول عن أبيه: "تلك هى صورته على مصلاه يؤدى صلاة الصبح، ويجلس على سجادة الصلاة من مطلع الفجر، إلى ما قبل الإفطار، ليتلو سورا خاصة من القرآن الكريم، ويعقبها بتلاوة الدعوات".

ويعترف العقاد فى سيرته الذاتية "آنا" بهذه المشادة المبكرة التى حدثت بينه وبين أبيه بسبب الصـــلاة. فالأب يريد لابنه الذى لم يتم العاشرة أن يواظب على الصلاة فى أوقاتها. وكان أثقل ما يعانيه هو يقظة الفجر فى الشتاء، والطفل شأنه كبقية الأطفال يزين لهم النوم فى هذا الوقت المبكر فلا يستيقظون إلا بعد جهد عنيف.. هنا حدثت مشادة ليس سببها أن الطفل ينفر من الصلاة، وإنما السبب هو شدة الأب فى تكليف الابن بما لا يطيق قبل الأوان. وعلى الرغم من هذا كان العقاد يخف إلى المسجد لأداء الصلاة فى مواعيدها. وينشد - وهو طفل - على المئذنة أناشيد الجمعة، وظل ينشدها وينظمها، ولا يذكر للمؤذن أنه ناظمها حتى لا يستصغرها ويمنعه من إنشادها.

ونفس ما لاحظه العقاد فى أبيه لاحظه أيضاً فى أمه. فيحدثنا فى صفحات طوال عن إيمان هذه الأم واعتكافها، فيقول: "ورثت عن أمى تقواها وسلامة بنيتها من أبيها وجدها. ففتحت عينى أراها وهى تصلى وتؤدى الصلاة فى مواقيتها، ولم يكن من عادة المرأة أن تصلى فى شبابها..".

وفى المدرسة وفى الحياة التقى العقاد برجال كانوا بمثابة أساتذة فى المدرسة.. التقى بالشيخ محمد فخر الدين مدرس اللغة العربية، ومن قبله الشيخ أحمد الجداوى الذى حضر العلم فى الأزهر، وزامل الإمام محمد عبده أيام السيد جمال الدين الأفغانى. وفى سيرته الذاتية يذكر العقاد أنه كان يتردد على مجالس الشيخ الجداوى ويستفيد من علمه. وفى المدرسة رأى العقاد وهو تلميذ الإمام الشيخ محمد عبده، الذى صادف أن قام بزيارة لهذه المدرسة، ويومها أعجبت ثقافة العقاد الشيخ الإمام إلى درجة أنه

تنبأ له بالمستقبل فى الكتابة. ويحدثنا العقاد فى سيرته عن الشيخ الإمام وتأثيره، فيقول: "والشيخ محمد عبده فى اعتقادى أعظم رجل ظهر فى مصر وما جاورها منذ خمسة قرون.. وأثره فى نفسى من أقوى الآثار".

ويخرج العقاد إلى ميدان الحياة فيلتقى بالكثيرين، إلا أن التقاءه بالشيخ محمد فريد وجدى.. هذا الكاتب الإسلامى، كان له عظيم الأثر فى حياة العقاد.

وفى البيئة يفتح العقاد عينيه على بلدته أسوان فرأى التقاء التاريخ الماضى بالحاضر، وعلى حد قوله: "التاريخ حى يرزق ويتنفس الهواء، لأنه ماثل شاخص فى الأحياء". وفى هذه المدينة العريقة أدرك العقاد وهو طفل صغير قيمة المناسبات الدينية من اهتمام أبنائها.

وهكذا نرى أن الفكرة الإسلامية عند العقاد نبتت فى الوسط الاجتماعى الذى يعاونها على النحو الذى رأيناه فيما بعد.. فى هذه المؤلفات التى زادت عن الثلاثين.. والتى قدمت زاداً ثقافياً للقارئ أفضل مما تقدمه هيئة علمية أو معهد متخصص، لاستيعابها جوانب كبيرة من التفكير الإسلامى.

ومن هنا.. من تعدد هذه المؤلفات، ومن تنوع اهتماماتها، أصبح من الضرورى تبويبها وتنسيقها حسب موضوعاتها. فالعقاد حين يكتب العبقريات، غيره حين يترجم للشخصيات الفذة فى تاريخ الإسلام، غيره حين ينشئ الدراسات والأبحاث حول أهم القضايا الإسلامية. ولعل ما يربط بين عبقرياته وشخصياته ودراساته وأبحاثه فى الإسلام هى صفته كأديب مؤرخ، وأدبه فى التاريخ هو كأدبه بوجه عام.. أدب الفكرة الواعية.

ولهذا رأينا فى مجال آخر، أن البحث فيما كتبه العقاد عن الإسلام يقتضى التمييز بين تناوله للعبقريات والشخصيات والأبحاث والدراسات. وهذا يقتضى أيضاً تأمل كل واحدة على حدة، حتى يمكن الاقتراب من المنهج الذى اتبعه العقاد فى تناوله للمادة الإسلامية التى أمامه.

وفى محاولة للكشف عن المنهج الذى اتبعه العقاد فى العبقريات رأيناه يهتم بإيجاد

مفتاح للعبقرى الذى يتعرض له.. حتى يستطيع فتح مغاليق شخصية هذا العبقرى، ليعرف مدى عظمته وحدود هذه العظمة، وما يصدر عنها من أفعال وتصرفات وقيمة هذه الأعمال والأقوال بالنسبة للإنسانية عامة.

ولكى يفى العقاد بهذا المطلب كان عليه أن يتفهم معنى مفتاح هذا العبقرى، الأمر الذى جعله يقوم بالتحليل النفسى الدقيق لهذه الشخصية مع مفتاح شخصية أخرى. وهنا يبحث العقاد عن أن ثمة اختلافات فى السلوك الإنسانى لهاتين العبقريتين المتشابهتين فى المدخل إلى أن يعثر على ما يميز بينهما.

فمثلاً: عند البحث عن مفتاح لعبقرية عمر بن الخطاب ﷺ وجده فى طبيعته كجندى. ونفس هذا المفتاح - طبيعة الجندية - وجده لعبقرية خالد بن الوليد. وهنا يوضح العقاد الفرق بين العبقريتين حين يجعل عمر ﷺ تغلب عليه من طبيعة الجندية ناحيتها "الروحية"، فى حين تغلب على خالد من هذه الطبيعة ناحيتها "الحيوية"، أو بعبارة أخرى كانت جندية ابن الخطاب - عند العقاد - متزنة حكيمة، فى حين ابن الوليد مدفوعة هاجمة.

لكن من هو العبقرى عند العقاد؟ العبقرى يقيس الأشياء بمقياسه الخاص، وأنه إنسان لم يخلق لخدمة نفسه أو أسرته أو عشيرته وكفى، بل هو خلق لخير إنسانى عام، وأوتى من القوة ما يخدم به غيره، ولو اتخذ هذا الخير الإنسانى العام صورة عالمية أو قومية أو وطنية أو قبلية.

العبقرية عند العقاد تنمو على البذل والعطاء، ولا تتورم بالنهب أو السلب أو الجور على حقوق غيرها حتى تنفجر. باختصار.. عظمة العبقرى عند العقاد هى التى تقول "نحن" ولا تقول "أنا" مبتورة الجذور والفروع عما حولها، وحتى لو سمعت منها "أنا" فلا تفهم من معناها إلا "نحن".

والعقاد حين يكتب عبقرياته. لا يكتفى بالعرض الفوضوى أو المنظم تنظيماً آليّا أو شبه آلى، بل ينسق الملامح البارزة فى كل صورة، وينفخ فيها من روحه، وروح العبقرى موضوع الدراسة، فيحييها فى نفوس قرائه حتى يتعاطفوا مع عبقريته.. فيجدوا

فى نفوسهم بعض فضل من فضلها، ويلموا ببعض جمل من لغتها. ومن ثم يشعر القارئ بالغبطة لأنه يدرك بأنه ارتفع فوق نفسه. ويحلق فى أفق أعلى مما اعتاد العقاد أن يحلق فيه من آفاق، ، بل ويمتلئ من العبقرية بأكثر مما أراد العقاد له، ويلقن عن آيات هذه العبقرية، أكثر مما لقنه العقاد.. ذلك لأن العقاد فى عبقرياته لا يقصر خطابه على عقل قارئه، بل يحرك كل حياته ويستجيش كل ما تشتمل عليه هذه الحياة من شعور وخيال، بداهة وتفكيرا.

والعقاد يبرز عبقرياته كما يبرز كتّاب المآسى أبطالهم فيستسلمون إليهم، ومن هذا التشيع لبطل المأساة تتطهر النفوس من أدرانها، وهذا الجانب هو الذى يحركه العقاد فى نفوس قراء عبقرياته، فيشيعوا معه إلى جانب العبقرية التى يكتب عنها بالقدر الذى يمضى بهم إليه، وكثيراً ما يذهبون فى التشيع لهذا العبقرى إلى أبعد مما كان يريد العقاد، والسبب فى هذا أسلوب العقاد وتعبيره عن أفكاره - كما يتفق أغلب نقاد العقاد - ومؤرخيه، فما من عبقرية من عبقرياته إلا وهى قصيدة شعرية ينقصها الوزن والقافية، ولكن لا ينقصها صدق الشعور ولا جمال التعبير الذى يكاد أن يدفع الإنسان إلى التغنى بها.

والعقاد لا يكتب حياة عبقرى أو يصور صورته إلا وهو داخل معه، متلبس به، يحيا معه حياته بكل ما تشتمل عليه من قوة وضعف، فيقف على أسرار العبقرى من داخل نفسه هو، لامن مجرد ما ينسب إليه من أخبار وأعمال وأقوال، سواءٌ كانت صحيحة أو منحولة. لذا ترى شخصية العقاد أمامك فى كل عبقرية مع شخصية صاحبها يتحركان معاً.

وهناك ملحوظة أخيرة.. أشار إليها مؤرخو العقاد ونقاده مؤداها أن العقاد لا يتحفظ فى الثناء على "العبقرى" أو أعماله خوفًا من الاتهام بالمبالغة ولماذا يتحفظ ما دام يجد فى هذه العبقرية الإسلامية ما تستحق عليه ثناء؟! والسؤال هل روح الثناء هذه تعطل ملكة التقييم عند العقاد وتضعفها؟ والإجابة بالنفى. فهذه الملكة ناشطة عند العقاد، وروحها جياشة فى كل ما يصدر من كتاباته.

وبهذا المنهج الذى توصلنا به إلى فهم عبقريات العقاد المعروفة، وهى: "عبقرية

محمد"، و "عبقرية الصديق"، و "عبقرية عمر"، و "عبقرية الإمام" و "عبقرية خالد".. بهذا المنهج كتب العقاد عبقرياته.

لكن العقاد – كما قلنا – حين يكتب العبقريات، غيره حين يكتب الشخصيات. وربما نلمح هذا الفرق عندما نقرأ تقديمه لمعاوية بن أبى سفيان كشخصية.. فالعقاد فى تناوله لهذه الشخصية فرق بين القدرة والعظمة، بين الشخصية والعبقرية، حيث قال: "أما وصف الرجل بالقدرة لأنه مقتدر على بلوغ مقاصده، واحتجان منافعه والإضرار بغيره، ولكنه إذا وصف بالعظمة فإنما يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الإنسانية العامة، وحين تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه. ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح إذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة إلى التقدير والتعظيم. فنحن نقدر الإنسان بمقداره عظيما كان أو غير عظيم. بل نقدر الأشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل، و لم تكن من وراء العمل نية، ولكننا إذا عظمنا الإنسان فإنما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا، ويستحق إكبارنا ويرتفع إلى المكانة التى يلحظها علينا. لأنه يعنينا، ويستحق إكبارنا ويرتفع إلى المكانة التى تلحظها الإنسانية بأسرها وتعود عليها فى منافعها وخيراتها.. فكل عظيم قدير ولكن ليس كل قدير عظيم". والعظمة قدرة وزيادة، ومعاوية قدير وليس بعظيم وبهذه العبارة حَدَّدَ العقاد الفرق بين الشخصيات المقتدرة، والعبقريات العظيمة.

والسؤال الذى يتبادر إلى ذهن قارئ عبقريات العقاد وشخصياته الإسلامية، لماذا جعل عثمان بن عفان ﷺ ومعاوية بن أبى سفيان من الشخصيات، و لم يجعلهما من العبقريات، مثل: الإمام على، والفاروق عمر، والصديق أبى بكر؟

أجاب العقاد مرتين عن هذا السؤال: أولهما حين سأله نفس السؤال تقريبا المفكر الإسلامى محمد كرد على قائلاً: لماذا لم تكتب لنا كتابًا عن معاوية كما كتبت عن على، وكان رد العقاد: أنا أعرف أنك وصولى مع الأحياء، ولكن لا أعرف أنك وصولى مع الأموات، إن صاحبك معاوية أراد الدنيا وأراد منها أن يكون ملكا فكان. ثم مات فماذا يريد بعد هذا؟ الذى يطمع أن يكون ملكاً أو وزيراً أو نائباً، ثم ينتهك كل

الحرمات ليصل إلى شهوته ماذا نفعل له؟!.. أتريد بعد أن نخر له ساجدين فى حياته وبعد موته؟!".

وأجاب العقاد مرة ثانية حين قدّم شخصية عثمان بن عفان ﷺ، فأكد بأن سيرته لا تبرز لنا عبقرية، مثل: عبقرية الصديق، أو عمر، أو على، أو خالد بن الوليد. ولكنها تبرز لنا من جانب الأريحية صفحة لا تطوى، ولا يستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها إلى باعث العقيدة والإيمان. لذلك فهو لا يؤمن بالعبقرية لضمان رضا الله عنه بقدر ما يؤمن بأنه ذو النورين.. نور اليقين ونور الخلق الأمين ومن هنا يتضح أن العقاد وضع العبقريات فى مكان أرفع من الشخصيات.

والشخصيات التى قدمها العقاد.. ليست صور أعلام ذوى حظ واحد فى القدرة والكفاية.. ولو أنها كانت كذلك لما غض هذا من شأنها. فمن كان يعرف حرفاً واحداً من أبجدية الكفايات الإنسانية فهو على حظ كبير من المعرفة الإنسانية، ولكن لا شك يكون أقل وعياً ممن يعرف جملة حروف منها، وتراجم وشخصيات العقاد تمثل عدة أنماط من القدرة الإنسانية لعلها فى العلم والإدارة والسياسة والحرب.. لا تؤدى أبرز ملامح صاحبها وأعماله فحسب، بل يغلب على شخصيات العقاد الإسلامية أنها تنفذ إلى حقيقة القدرة الإنسانية، تلك التى تدور عليها شمائله ومساعيه وأعماله وأقواله وتمييز ملامحه معللة، واختلاف نمطها عن أنماط الكفايات الأخرى. فلا نخلط بين هذا وغيره من ملامح أشباهه. من ذوى المواهب والملكات التى ترفع صاحبها أو لا ترفعه.

فى شخصيات العقاد الإسلامية يكمن سرّ، لعله فى سهولة الأداء عن كل ذى قدرة أيّا كان نوع قدرته وحظه منها، ثم اتساق أجزاء صورة كل عظيم من هؤلاء العظماء مستقلة عن غيرها. ولهذا تبدو الترجمة وكأنها خرجت من قريحة صاحبها، فتسلمتها براعته دفعة واحدة شأنها شأن بدء الحياة فى خروجها من الأرحام إلى أيادى القوابل.

إن العقاد كان يندمج مع شخصيته فى أثناء كتابتها، حتى إنه يذكر أنه كان يكتب

الفصل الواحد من "الحسين أبو الشهداء" وعيناه مغرورقتان بالدموع، مع أنه يفترض فيه كمؤرخ أن يكون محايداً ولكن ما العمل، وهو أديب فنان يحس ويشعر ويحلل الحدث، قبل أن يكون شاهدًا ومؤرخاً يسجل ويدون؟!

وكتابة التاريخ بهذه الصورة الأدبية، أسلوب لم يبتدعه العقاد، فقد سبق أن استخدمه كتّاب أجانب، مثل: "بلوتارك"، و "كارليل"، و"أندريه موروا"، و "إميل لودفيج".. وكتّاب عرب فى مقدمتهم: الدكتور طه حسين، والدكتور محمد حسين هيكل، والأستاذ أحمد أمين.

هذا المنهج الذى توصلنا به إلى معرفة التمييز بين العبقرية والشخصية.. بين العظمة والقدرة استطعنا التعرف على شخصيات العقاد الإسلامية، وفى مقدمتها: "فاطمة الزهراء والفاطميون"، "والصديقة بنت الصديق"، و"أبو الشهداء الحسين بن على"، و"ذو النورين عثمان بن عفان"، و "بلال بن رباح"، و "عمرو بن العاص"، و "معاوية ابن أبي سفيان فى الميزان".

بعد محاولة الكشف عن منهج العقاد فى العبقريات والشخصيات، ننتقل إلى محاولة الكشف عن منهجه فى الدراسات والأبحاث الإسلامية والتى أخرجت كتبًا، فى مقدمتها: "الله"، و "الفلسفة القرآنية"، و "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه"، و "ما يقال عن الإسلام"، و "التفكير فريضة إسلامية"، و "الإنسان فى القرآن"، و"المرأة فى القرآن"، و "الإسلام فى القرن العشرين"، و "الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام"، و "الديمقراطية فى الإسلام"، و "مطلع النور".

إلى جانب بحثين فى كتابين عنوانهما: "أبو الأنبياء إبراهيم الخليل"، و "المسيح والكشوف الحديثة"، وكتب أخرى عن فلاسفة المسلمين ومفكريهم، وفى مقدمتها: كتاب عن "ابن رشد"، وآخر عن "الغزالى"، وثالث عن "ابن سينا"، ورابع عن "الكواكبى"، وخامس عن "عبقرى الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده"، إلى آخر هذه الأبحاث التى تزخر بها المكتبة العربية والإسلامية.

والسؤال الآن: ما هو النهج الذى اتبعه العقاد فى كتابته لهذه الدراسات والأبحاث؟

بادئ ذى بدء.. يتراءى لنا العقاد من قراءته أنه يكتب وفى ذهنه فكرة يؤمن بها من الثلاثينيات أو ما قبلها، وهى أن الإسلام دين قامت على مبادئه وقيمه حضارة. فالحضارة العربية التى شهد لها أعداؤها من المتعصبين لغير الإسلام ما قامت إلا بعد الإسلام. ولعل هذه الفكرة التى كانت محور تفكير العقاد فى أبحاثه ودراساته الإسلامية يعلنها المستشرقون اليوم والمفكرون الأجانب، وفى مقدمتهم الفيلسوف الفرنسى جارودى، الذى يعلن أن التبرير الوحيد لإسلامه هو أنه اكتشف فى الإسلام – بعد طول تفكير وتأمل ودراسة وبحث – أنه الدين الوحيد الذى تقوم على أكتافه حضارة أنارت أوروبا فى عصور الظلام.

الإسلام دين تقوم عليه حضارة.. هى فكرة العقاد.. فهو حين يحدثنا عن الإسلام.. يقدمه – عن فهم وعقيدة – على أنه نظام كامل تتحدد فيه الخطوط لإقامة مجتمع كبير متكامل، فى مختلف الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ولهذا نرى العقاد حين ينبرى لكتابة هذه الأبحاث والدراسات يشغله أمران هامان من منطلق مسئوليته كمفكر، وعقيدته كمسلم.. هما:

١ – الدفاع عن الإسلام ضد اباطيل خصومه.

٢ – تقديم الصورة الحقيقية للإسلام.

والأمران وجهان لعملة واحدة أو لحقيقة واحدة، مؤداها أنه حين يبحث عن الإسلام فى معناهِ الصحيح، فإنه فى نفس الوقت يدافع ضمنيا عن الإسلام.

والحق أن أصول هذا المنهج مستمدة من فكر الإمام محمد عبده، فقد مضى العقاد فى أثره.. يؤمن بأن الإسلام دين عالمى صالح لكل الشعوب، إذ قرر للإنسانية مبادئ لا يمكن صلاحه بغيرها، مفوضاً للعقل الإنسانى أن يختار ما يلائمه مما يتمشى مع الأطوار الاجتماعية التى تتغير فتلعب النظرية دوراً كبيراً. وقد عبر العقاد عن ذلك صراحة فى تقديمه لكتاب "الفلسفة القرآنية"، حيث يقول: "موضوع هذا الكتاب هو صلاح العقيدة الإسلامية"، ووفقا لهذا المنهج نرى العقاد يقدم لنا معظم دراساته وأبحاثه.

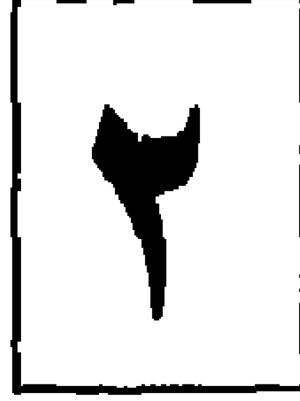
وفكرة ثانية بثها الإمام محمد عبده فى كتبه، وتأثر بها العقاد فى كتاباته، وهى أن

الإسلام يفرض على الناس التفكير، والاحتكام إلى العقل فى إثبات عقائده وتعاليمه الأساسية، وأنه لا بأس من الانتفاع بالإسلام فى العلم وجميع شئون الحياة. إننا نجد العقاد يتأثر بهذه الفكرة ويفرد لشرحها كتاباً بأكمله هو "التفكير فريضة إسلامية" الذى يستهله بأن من مزايا القرآن الكثيرة.. مزية واضحة هى التنويه بالعقل والتعويل عليه فى أمر العقيدة، وأمر التبعة والتكليف، ويقول: "إنه لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه".. وقد خاطبه بكل صوره المدركة للتصورات الإنشائية الوازعة عن المحظورات والمنكرات والاستدلالات المستخرجة للأحكام الراشدة المستبصرة. وبذلك يعم الخطاب فى القرآن العقل بكل صورة وخصائصه ووظائفه، ولا يذكره عرضاً مقتضباً بل يذكره مقصوداً مفصلاً على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان السماوية الأخرى.

ومعروف أن الإمام محمد عبده عنى عناية خاصة بالرد على خصوم الإسلام، وعلى ضوء هذه العناية كتب العقاد مؤلفيه: "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه"، و "ما يقال عن الإسلام". وقد حاول كثيراً أن يدلل على أن الإسلام وضع للإنسانية صورة رائعة من الإصلاح الاجتماعى. وهو دائم الحديث عن ذلك فى بقية كتبه، فالإسلام كفل للناس حريتهم السياسية بما شرح لهم من نظام ديمقراطى سليم، سجله العقاد فى كتابه "الديمقراطية فى الإسلام"، كما عنى فى كتابه "مطلع النور" ببيان أن الرسالة المحمدية مهدت لحدوث مقدمات هيأت لها، بحيث غيرت من لوازم الإنسانية وحاجتها ودواعيها. وسوف نراه فى كتابه "الإسلام والقرن العشرين" يتحدث عن قوة الإسلام الغالبة الصامدة على مر التاريخ، كما تحدث عن الدعوات التى انبعثت فيه منذ القرن التاسع عشر وأطوارها مع نهضات الإصلاح. وهو دائما إذا تحدث عن مستقبل الإسلام ملأته الثقة والأمل.

يضاف إلى ذلك تأثير الإمام محمد عبده فى العقاد.. فضلاً عن إمكانية العقاد نفسه على الإقناع والدفاع والرد بالحجة والدليل، وهى أمور عرف بها العقاد.

على ضوء هذا المنهج أمكننا تمييز أبحاث العقاد ودراساته من بين عشرات الكتب.



ثانيا : العقاد فى ميزان النقد

- نقد الجامعيين
- تأملات لويس عوض النقدية
- فى معامل الجامعة الأمريكية
وصالون أنيس منصور
- نقد رائد الوجودية العربية
- رئيس مجمع الخالدين
- أسجل مذكراتى قبل أن أتشوه!
- العملاق مسلسل تليفزيونى
- العملاق أكبر من المسلسل
- رفقا يا هواة المسلسلات بثقافتنا
- إعادة العملاق تشويه للعقاد
- رسالة توضح موقف أسرة العقاد
- للقضاء كلمة فى تشويه صورة أبى!

سئل العقاد ذات مرة عن الفرق بينه وبين المفكر الإنجليزى "برناردشو" وأيهما الأفضل بالنسبة للثقافة الحديثة لأمته فقال: "برناردشو يقف على أكتاف ستة أجيال من الثقافة الأوروبية وأنا قائم على قدمى، لأن ثقافتنا لا ترجع إلا إلى أكثر من جيلين" وفى هذه الإجابة الموجزة تكمن رسالة العقاد ودوره فى الثقافة حيث كانت رسالته ودوره فى الانتقال من عصر إلى عصر شأنه فى ذلك شأن قادة الفكر ممن كانت رسالتهم وأدوارهم ليست فى أن يزيدوا المعرفة بمعرفة من جنسها، وإنما كانت فى أن يغيروا من نوع المعرفة وينقلوها إلى أسلوب جديد ومفيد.

ويمكن أن يلمس القارئ تلك الرسالة وذلك الدور بمقارنة حال الثقافة فى بدايات هذا القرن العشرين، حيث بدأ العقاد يتلمس طريقه وحالها فى ستينياته.

عندئذ يندهش المرء من كيفية قيام العقاد بهذه الرسالة وذاك الدور وهو الذى لا يحمل لقبا علميا يسنده، ولا سلطانا يعزه، ولا جاها عريضاً يدعمه، ولا مالا وفيراً يحميه. وتزيد الدهشة إذا أدركنا أن العقاد لم يكن ممن يجيدون لعبة ركوب الموجة فلا ينافق ولا يتملق ولا يزايد.. إنما العقاد كان مقاتلاً على الدوام. فهو يحارب الصهيونية محاربته للنازية، ويحارب الشيوعية محاربته للرأسمالية، ويحارب الاستعمار محاربته للمتاجرين بالوطنية، ويحارب الإلحاد محاربته لأدعياء الدين ويحارب ممثلى الأقلية محاربته لممثلى الأغلبية، ويحارب القصر محاربته للباشوات.. ويتخذ من هذه جميعاً مواقف، تجسد رأيه الخاص الذى يعبر عنه: ".. أريد أن أكون أنا نفسى لا أكثر ولا أقل...!

وطبيعى أن يكون صاحب هذه الرسالة وذلك الدور موضع اهتمام الدارسين داخل الجامعة، اهتماما يتخذ أحد سبيلين: إما بتخصيص الرسائل العلمية لتقييمه

أو بإعداد المحاضرات الجامعية التى تدور حول فكره وفى عملية الرصد لهذه الرسائل والمحاضرات، قد يلمح القارئ اشتمالها على نقد لا يعطى العقاد حقه أو مدح يعطيه أكثر من حقه، إلا أن هذا وذاك لا يطغى على المعنى النبيل الذى من أجله أجرى الباحث قلمه فى تناول فكر هذا الرائد العظيم.

وأولى هذه الرسائل منشورة فى كتاب "العقاد ناقداً" التى قدمها الدكتور عبد الحى دياب إلى كلية دار العلوم وناقشها الدكاترة محمد غنيمى هلال ومحمد مندور وشوقى ضيف. كان موضوعها: "النقد عند العقاد"، وفيها عنى الباحث فى الباب الأول بالميراث النقدى قبل العقاد، وذلك فى المحاولات النقدية السابقة عليه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ثم المحاولات النقدية المعاصرة وكان من طلائع أعلامها، ويخصص بابها الثانى لاتجاهات التجديد فى النقد عند العقاد كتطبيق لنظريته النقدية. والباب الثالث خصصه للحديث عن المعارك النقدية وكيف كان لها أثر فى تعميق نظرياته النقدية أو إضافة جديد إليها، وختمها بتسجيل دور العقاد فى الثقافة المعاصرة نقداً وأدباً.

والرسالة الثانية مخطوطة وقدمها الأديب الحسانى حسن عبد الله بمعهد الدراسات الغربية وموضوعها: "فلسفة الجمال عند العقاد وعلاقتها بآرائه فى النقد"، وناقشها الدكاترة شكرى عياد وخلف الله أحمد ويحيى هويدى. واستهلها الباحث بدراسة لمنهج البحث فى أصالة العقاد النقدية. منتهياً فى ذلك إلى أن الأصالة بوجه عام ضوء متوهج لا تملك عين نكرانه وأنها لا تعرف عن طريق البحث المعلمى. وأن نصيب العقاد من ذلك الضوء كنصيب غيره من أصحاب الأصالات المعتمدة. ثم عرض بعد ذلك لبعض الدعاوى عن تأثر العقاد بالأجانب وتوقف طويلاً عند مصطلح التأثر مستحسناً العدول عنه إلى أحد مصطلحات ثلاثة هى: "الإفادة" أو "التقليد"، أو "السرقة" وأنه من اللازم عند درس الأصالة تحديد المقصود بالتأثر: أهو مجرد إفادة، أم تقليد، أم سرقة؟. وانتهى فى رسالته إلى فحص اتهام العقاد بأنه تأثر بالشاعر الألمانى شيلر. وأجرى مقارنة دقيقة بين الاثنين أكدت اختلاف معين كل منهما.

والرسالة الثالثة مخطوطة أيضا قدمها الأستاذ محمد عبد الهادى محمود لآداب القاهرة وموضوعها: "نظرية الصورة الشعرية عند مدرسة الديوان"، وأشرف عليها الدكاترة شكرى عياد وعز الدين إسماعيل وسهير القلماوى. وبالطبع كان العقاد يستأثر بالجانب الأكبر من الرسالة، حيث نجد الباحث يعرض نظرية الخيال الشعرى عند العقاد وكيف كان تأثره بكل من: "بليك"، و "كولوردج" و "ردزوورث"، و "شللى"، و "كيتس".

ثم نظرية الجمال عند العقاد وهو فى هذا الجزء يرد ضمنيا على الذين كتبوا عن أصالة العقاد فى نظرته للجمال، ثم يحدثنا عن مشكلة الشكل والمضمون وفيها يعلو الباحث فى نقد العقاد، ثم يبحث عن علاقة الشعر باللغة عند العقاد فيبدو متأثراً بمنهج الدكتور محمد مندور. ويتطرق إلى دراسة مشكلة الإبداع عند العقاد فيرى أن هناك هوة كبيرة بين مفهوم الإبداع الفنى المعاصر، وإبداع العقاد خصوصاً فى ممارساته الشعرية.

والرسالة الرابعة مخطوطة كان قد قدمها للجامعة الإسبانية الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم وناقشتها لجنة مكونة من خمسة من أساتذة الجامعات هناك، يتقدمهم عاشقان للثقافة العربية هما: "بدرو مارتينث مونتابث" و "خوسيه باثكث"، وموضوعها "دراسة بين العقاد وأونامونو" باللغة الإسبانية.

ولكونها بهذه اللغة كنت عاجزاً أمامها إلا أن الذى يطمئن المرء عن أهمية هذه الرسالة أن صاحبها من أخلص تلاميذ العقاد وأكثرهم جدية. ولعلى تذكرت بهذه المناسبة أستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوى بالخير، وكيف كان يتشدد معنا كتلاميذ فى قراءة النصوص الفلسفية بلغاتها الأصلية فى الإنجليزية والفرنسية والألمانية واليونانية واللاتينية.

وكيف لاحظ تبرمنا من اللغات الخمس، ويومها قال بحدة: "وددت لو جعلتها عشراً حتى لا تكونوا معصوبى العيون أمام أى معرفة من المعارف. فها أنذا الآن معصوب العينين أمام هذه الرسالة!؟ وسأكتفى بالرجوع إلى ما يكتبه عنها صاحبها

بالعربية بالمجالات المتخصصة راجياً أن تسمعنى الجامعة التى هى عضو فى هيئة تدريسها فتكلفه بترجمتها معترفة بأن ما يقوم به إعمال للفكر عليه يثاب، أو حتى وزارة الثقافة فتعمل على تكليفه بترجمتها". ونعود إلى ما يكتبه الباحث عن رسالته وقد أصبح قدره ألا نقرأه إلا موجزاً فنراه يحدثنا عن الظروف السياسية والاجتماعية والأدبية فى كل من مصر وإسبانيا فى الفترة ما بين ١٨٥٠ - ١٩٥٠، موضحاً كيف كانت هذه الظروف متشابهة. وكيف نشأ كل من العقاد فى مصر "وأونامونو" مستهدفاً مكونات تفكير كل منهما المتشابهة حتى يصل إلى تشابه بين الاثنين فى مفهوم الأدب عامة والشعر خاصة. وينتهى فى رسالته إلى إثبات هذا التشابه الكامل حتى فى موضوعاتهما الشعرية مع أن العقاد لم يطلع كثيراً على "أونامونو" فى لغته.

والرسالة الخامسة منشورة فى كتابى "عباس العقاد رجل الصحافة رجل السياسة"، و "العقاد زعيماً" للدكتور راسم الجمال، وناقشها بكلية الإعلام الدكاترة عبد الملك عودة وخليل صابات ومختار التهامى، وكان موضوعها "العقاد فى تاريخ الصحافة المصرية من ١٩٠٧ إلى ١٩٦٤"، وفيها تتبع الباحث مسار فكر العقاد وكتاباته فى الصحف مبرزاً كفاحه الصحفى والسياسى حتى عام ١٩٣٠، حيث تمت محاكمته بتهمة العيب فى الذات الملكية. ثم تتبع الباحث مسار فكر العقاد من عام ١٩٣٠ إلى ١٩٦٤. وفى ذلك تحول من كاتب سياسى إلى زعيم سياسى حيث دفع زعماء الوفد إلى إعلان موقفهم عام ١٩٣٢ وعبأ الرأى العام ضد السياسة الإنجليزية، ومهد لانشقاق السعديين عن زعامة الوفد، وأكد الباحث على أمرين أولهما: مكانة العقاد السياسية والصحافية وثانيهما: إثبات مدى صدق بصيرته الوطنية.

وكما ذكرنا أنه إذا كان العقاد لم يظفر بلقب علمى يعزه، ولا مؤهل جامعى يحميه، ولو حتى شهادة متوسطة يتستر وراءها.. فقد استطاع بمواقفه العظيمة، وأعماله الخالدة - أن يجتاز الباب الضيق.. إلى دائرة الاهتمام العلمى بالجامعة. فكان محور اهتمام عدد كبير من الرسائل كما رأينا، وعدد أكبر من المحاضرات والدراسات كما سنرى ولا عجب أن حظى العقاد بكل هذا التقدير فى جامعات مصر وحدها. إذا كان هذا هو العقاد الذى نعرفه صاحب الرسالة والهدف، وأحد رواد التنوير ممن

كانوا لا يعيشون الحاضر بعقل الماضى، ولا يترجمون الواقع بلغة الوهم، ولا ينقلون الحقيقة بصورة الخرافة ولا يكتبون بأيديهم ما ترفضه عقولهم.

وطبيعى أن يكون حول العقاد وهو بهذه المكانة اختلافات فى وجهات النظر عند التقييم يمكن أن نجملها فى فريقين، أولهما: مترفق فى تنظيره، وثانيهما: صارم فى تطبيقه. ولكنهما ينتهيان إلى توكيد ريادة هذا المفكر.

من الفريق الأول الدكتور شوقى ضيف لقد كتب عن العقاد فصولاً فى كتبه: "مذاهب الأدب"، و "الأدب العربى المعاصر"، و"فصول فى الشعر ونقده" وأفرد له كتابا يعتبر المرجع الأساسى للدارسين هو "مع العقاد"، وهو تصوير مجمل لسيرة العقاد وما امتازت به شخصيته من مقومات مادية ونفسية وعقلية وروحية. وكيف دفع مع جيله أدبنا الحديث إلى تطوره الحى المثمر، وكيف استحدث موازين جديدة للنقد، وكيف جال بفكره فى تاريخنا الإسلامى مقدماً عظماء هذا التاريخ راسماً لأمتنا عبقرياتها وشخصياتها، وتطرق إلى إبداعه القصصى، وتوقف طويلاً عند إنتاجه الشعرى الضخم.

والاهتمام الثانى لرائد الفلسفة الجوانية الدكتور عثمان أمين فى صورة كتاب "نظرات فى فكر العقاد"، وفيه ينبهنا إلى أن ما يقدمه ليس نظراً وافياً فى فكر العقاد بقدر ما يكون مقدمات لهذا الفكر. وهو مع هذا يقدم على صفحات الكتاب نظرات واعية لأدب العقاد وفلسفته وإسلامياته، ويؤصل ذلك وكأنه يعطى للباحث عشرات المفاتيح إلى هذه الموضوعات. كذلك يرى سمات الفلسفة الجوانية فى أدب العقاد على وجه الخصوص وروايته سارة التى يراها جوانية لا تشغل الأحداث الخارجية إلا ما يلزم حبكتها الفنية. ويقرر أن حياتنا الأدبية بلغت بجهده ويقظته تقدما ملحوظاً.

والاهتمام الثالث لرائد الوضعية المنطقية الدكتور زكى نجيب محمود وبترجمة هذا الجانب الكبير فى كتابه "مع الشعراء"، وفيه يقدم لنا العقاد مفكراً وأديباً. ويستخلص فلسفته من شعره بطريقة تحليلية مذهلة، ويتوقف عند شعره فيراه أقرب شئ إلى فن

العمارة والنحت، فالقصيدة عنده أقرب إلى هرم ضخم أو معبد كبير منها إلى زهرة أو عصفورة، والقلم فى يده هو إزميل النحات.. فلا الفكرة عنده قريبة المنال، ولا المادة سهلة التشكيل. حتى ينتهى إلى القول بأن شعر العقاد أدخل فى باب "الجليل" منه فى باب "الجميل".. ففيه شموخ الجبال وصلابة الصوان وعمق المحيط، وفيه من الشعور صحوه لا نعاسه.

والاهتمام الرابع للدكتورة سهير القلماوى فى صورة محاضرة نشرت فيما بعد بعنوان: "سارة أو عبقرية الشك" تفلسف فيها حالة الشك الإنسانى عند العقاد من خلال أحداث رواية سارة، فترى أن عبقرية الشك العقادى صنف من عبقرياته.. شاذ فريد لكنه يخضع العقاد فى تصوير العبقرية، والشك هنا عملاق يتقبل آثار الأحداث والتاريخ ولكنه يتصدى لها.

والاهتمام الخامس للدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى صورة كتاب "الجمال والحرية والشخصية الإنسانية فى أدب النقاد" فيه نلمح محاور ثلاثة يتضمنها حديثها الرقيق المتميز عن الحرية والجمال والشخصية الإنسانية عند العقاد، وقد شغل المحور الأخير معظم صفحات الكتاب. وفيه حدثتنا عن عبقريات العقاد وموقفه من المرأة، والإنسانية فى شعره وأدبه. ثم قدمت لنا العقاد حين يترجم لنفسه.

والاهتمام السادس يأخذ شكل ثلاثة كتب هى "عبقرية العقاد" و "النقد والجمال عند العقاد" و "الفلسفة الاجتماعية عند العقاد"، فيها يؤرخ الدكتور عبد الفتاح الديدى لأستاذه من جوانب كثيرة أهمها شخصيته المتفردة، ونظرية النقد وعلاقتها بالجمال ومؤثراتها الخارجية، ثم الجانب الفلسفى عند العقاد.

والاهتمام السابع كتاب ضخم هو رسالة جامعية للدكتور محمد أبو الأنوار عنوانه: "الحوار الأدبى حول الشعر"، ويشغل العقاد منه جانبا كبيرا، وفيه يسجل لمعارك مدرسة الديوان، وظهور كتاب الديوان كفاصل بين عهدين، والخصومة التى نشأت بين رواد الديوان، ثم استمرار جهود هذه المدرسة ممثلة فى العقاد إلى آخر هذه الموضوعات التى كان العقاد فارسها.

وفى المقابل هناك الفريق الثانى الذى يتقدمه شيخ النقاد الدكتور محمد مندور حيث يخصص فصولاً من كتبه "الشعر المصرى بعد شوقى" و "النقد والنقاد المعاصرون" و "فى الميزان الجديد" و "مسرحيات شوقى" للحديث عن العقاد الناقد والأديب والكاتب. فيراه يقحم النظريات الفلسفية فى ميدان الأدب حيث يتحدث عن رسالة الغفران للمعرى، ويرى أن دراسات العقاد الأدبية تنصب على التعليل والتفسير أكثر من انصبابها على التقويم والنظر فى القيم الجمالية، ويراه يختار الشعراء الذين تنطبق عليهم فلسفته العامة فى الحياة، ويعيب على العقاد استخدامه للمنهج النفسى فحسب فى الدراسات الأدبية، ويختلف معه فى النظرة إلى الشعر الحديث عامة والمهموس خاصة.

والاهتمام الثانى من هذا الاتجاه المضاد ويمثله كتابان للدكتور عبد القادر القط. فيهما يحتل العقاد حيزا ملحوظا، الأول: "مواقف وقضايا" فيه يفرد فصلاً عن اللغة الشاعرة عند العقاد، فيشير إلى غلبة الشعور القومى عند العقاد على الحقيقة العلمية، كما يشير إلى النقص المنهجى عند العقاد الناتج عن هذه الأنانية القومية التى تجعله ينساق إلى الدفاع عن لغتنا من حروفها وتعبيراتها ذاهبا إلى أنها أعظم اللغات حيث شاعريتها. والكتاب الثانى: "الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر" فيه يرى العقاد متأثرا بالشعر القديم وبملاحظته للعناصر التقليدية القديمة. من الصورة إلى اللغة إلى المعنى وجد الكثير من الشعر القديم يتسرب إلى شعر العقاد.

والاهتمام الثالث تترجمه هذه الفصول الممتعة من كتاب "بين القديم والجديد" للدكتور إبراهيم عبد الرحمن، فيها سجل ملاحظات على أدب ونقد العقاد، ومنها أن آراء العقاد النقدية تبعث من غاية هى تحطيم مكانة شوقى وغيره من الشعراء لإزاحتهم حتى يفسح له ولزميليه مكاناً مرموقاً، وإن المرحلة التى كان يعيشها العقاد كانت ذات طابع إحيائى تتجه إلى التراث الإسلامى والأدبى القديم يأخذون منه وينسجون على منواله وقد تأثر شعر العقاد بهذا الجانب التوفيقى واحتذى فى نزعته المنطقية التقريرية آراء ابن قتيبة وابن جعفر وابن رشيق وحازم القرطاجنى، ونقل مفهومه لوحدة بناء

القصيدة من الحلتمى وابن طباطبا. وأن عيوب التفكك والإحالة والسرقة التى أخذها العقاد على شوقى وقع هو فيها.

والاهتمام الرابع يترجمه تحليل رواية سارة للعقاد فى كتاب "تطور الرواية العربية الحديثة" للدكتور عبد المحسن طه بدر حيث يشير إلى ظاهرتين تميزان العقاد، الأولى: تتصل بشخصيته عندما تعرض كغيره للقلق والألم والشك وكانت وسيلته للخروج من هذه الأزمة تتمثل فى اعتزازه الشديد بذاته واستعلائه على الآخرين. والثانية: تتصل بتفكيره فتظهر فى نزعته المنطقية الحادة، فهو حين يريد إخضاع ظروف الحياة لإرادته يحاول إخضاعها لتفكيره.. وفى سارة نجد أنفسنا أمام نزعة العقاد العقلية وقدرته على التحليل والتعليل التى ينجم عنها التنظيم حتى للحظات التوتر التى تتشابك فيها العواطف فى العمل الروائى، ولذلك تاهت سارة!

والاهتمام الخامس تترجمه فصول من كتب الدكتور أنس داود أولها كتاب "الأسطورة فى الشعر العربى الحديث" وفيه يقارن بين رأى العقاد فى أن حياة الشاعر تعرف من شعره ورأى "اليوت" الذى لا يرى صلة بين حياة الشاعر وشعره. ثم ينعى على العقاد توقفه عند حدود المدرسة الرومانتيكية الأوروبية، وكتاب "رواد التجديد فى الشعر الحديث"، وفيه يجرد العقاد من زعامته لمدرسة الديوان، وكتاب "الرؤية الداخلية للنص الشعرى"، وفيه يرى العقاد يخالف القاعدة فى الشعر حيث يبدأ حكيما وينتهى عاطفيا.

والاهتمام السادس رسالة لدار العلوم عن مصطفى صادق الرافعى قدمها الشقيق العراقى الدكتور مصطفى البدرى فيها ذكر العقاد بما لا يليق والباحث معذور لطبيعة موضوعه عن الرافعى، ولأن موجهه هو الدكتور عمر الدسوقى الذى أقسم بأيمان مغلظة ليسخرن علمه للهجوم على العقاد؟!

وغير ذلك من الاهتمامات التى ترجمتها الرسائل الجامعية والدراسات والمحاضرات وكلها – سلبا أو إيجاباً – أعمال مشكورة تؤكد خلود فكر العقاد.

عملاق الفكر العربي عباس محمود العقاد الذى قرأنا له، وقرأنا عنه. فعرفناه واحدا من الرواد القلائل الذين استطاعوا أن يقيموا جسورا قوية بين فكرنا العربي والفكر العالمى. واستطاع هو - كما نقول دائما - بدم القلب ووهج الفكر وصلابة الفولاذ، أن يهضم ثمرات المطابع العربية والعالمية.. ويتخذ منها موقفا نقدياً.. يرفض أغلبها ويتفق مع أقلها، وكوّن لنفسه رايه الخاص. وكان صادقا حين قال: لم أتأثر بأحد لأننى أردت أن أكون أنا نفسى.

العقاد الذى شغل حياتنا لأكثر من ثلاثة ارباع قرن.. فى حياته أو بعد مماته. تقدمه لنا تأملات الأستاذ الدكتور لويس عوض بمجلة المصور فلا نعرفه! وكيف نعرفه وقد انتهى فى عام ١٩٣٧ وليس كما هو معروف فى عام ١٩٦٤، وقد بدا مناقضا لفكرنا الدينى التقليدى، وقد أصبح متتلمذا على فلاسفة أوروبا ومفكريها!.. باختصار العقاد فى هذه التأملات.. شخص آخر غير الذى نعرفه.. هو نتاج للثقافة الغربية بخيرها وشرها. وليس من نتاج الثقافة العربية.

ونتأمل معا تأملات الدكتور لويس فى أدب العقاد مبتدئين باختيار ذلك المنهج الذى سلكه فى التعامل مع سطور للعقاد عدد كلماتها ٣٥ كلمة، فى مقدمة لا تزيد عن الصفحة والنصف لكتاب الفصول الذى بدأ كتابة فصوله عام ١٩١٣ ليصبح ترتيبه الخامس بين ١٠٥ كتاب.. هذه الكلمات تقول: "فى سبيل الحق والجمال والقوة أحيا.. وفى سبيل الحق والجمال والقوة أكتب، وعلى مذبح الحق والجمال والقوة أضع هذه الأفكار المخضلة بدم فكر ومهجة قلب قربانا إلى تلك الأقانيم العلوية وهديه فى السحاب إلى العباب"، فنجده أقرب إلى استخدام المنهج الاستدلالى.. حيث انتقل من قضايا منظور إليها فى ذاتها، إلى قضايا ناتجة عنها، وفقا لقواعد منطقية. وهذا أمر

طيب. ولكن أن يختار هذه الكلمات من مقدمة لكتاب بدأ مؤلفه كتابة فصوله عام ١٩١٣ فهذا هو وجه الغرابة. إن أكثر من خمسين عاما بين البدء فى تأليف الكتاب ووفاة صاحبه كافية لإضافة جديدة إلى فكر المؤلف. ومن هنا لا يكون الحكم مطمئنا بالنسبة للمادة موضع الدراسة. يتصل بهذا المنهج الذى اتبعه الدكتور لويس. حرصه الواضح على حشد خطوات إثبات ما يريد. بموكب من النظريات والمصطلحات والمفاهيم. التى من المؤكد أنها تغزو عقل قارئ الصحيفة السيارة. فيستسلم. والأكثر يصبح عاجزا عن تبين مواطن القوة والضعف. والصواب والخطأ. فى وسط هذا التيه.. بينما فى الطرف الآخر يصبح ميسوراً بالنسبة للكاتب أن يشحن مادته بما يشاء من مضامين.. إن هذا الأسلوب من الدكتور لويس جعلنى أتصور استخدامه أيضاً لدراسة جانب من فكر الدكتور لويس نفسه، فلنجتزئ سطورا قليلة كما فعل هو مع العقاد من مقدمة أى كتاب من كتبه وليكن كتاب "على هامش الغفران" الذى صدر عام ١٩٦٦ وكان الدكتور لويس فى حالة طيبة بالقياس إلى حالة العقاد عام ١٩١٣، ولنقرا هذه الكلمات المختارة من ص ٨ من كتاب على "هامش الغفران" حيث تقول: "وأخيرا وليس آخرا موقفى من السياسة. وهو ما عجزت وعجز الناس عن فهمه لأنى لا أكتب فى السياسة ولا سبيل إلى معرفة آرائى فيها إلا لمن أوتى العلم اللدنى والقدرة على التفتيش فى ضمائر الناس وأفئدتهم"، ونتأمل ما جاء فى هذه الكلمات التى تقل فى عدد كلماتها عن عدد الكلمات التى اختارها من مقدمة العقاد فنجد كاتبا يعجز عن توضيح موقفه للقراء، وقراء عاجزون عن فهم هذا الموقف، وآراء تستشكل على البشر العاديين وتتطلب لإدراكها نبى كالخضر عليه السلام أو مفتش فى ضمائر الناس وأفئدتهم. لو وضعنا هذه الكلمات تحت مجهر البحث كالذى يستخدمه الدكتور لويس فى تأمله لكلمات العقاد، لأصبح من الصعب على صاحبها – الدكتور لويس – أن يفلت من مسئولية هو فى غنى عنها.. مسئولية أزمتنا الثقافية!

فى تناول الدكتور لويس لأدب العقاد وفكره بهذا المنهج، المرء يدهش لجرأته فى تقديم رؤية مبنية على استخلاص الكل من الجزء! بعد ذلك تطل من بين صفحات التأملات ملاحظات هامشية، ومنها مثلا ملاحظة حول هذا العنوان: "تأملات

فى أدب العقاد"، وكيف أن القارئ لما تتضمنه الحلقات يدخل أدب العقاد من باب فكره. لما يطالعه فى هذه التأملات من جوانب فلسفية واجتماعية وسياسية ثم أدبية فى أحوال قليلة.

ونطوف مع التأملات ونتوقف عند قول الدكتور لويس: "وفى الأربعينيات تابعت بعض أدب العقاد الديني. ولكن العقاد الذى أعرفه وتأثرت به انتهى نحو عام ١٩٣٧".

بمراجعة إنتاج العقاد فى هذا التاريخ نجده يصدر الكتاب السابع عشر فى سلسلة مؤلفاته، إلى جانب أحاديثه الصحفية والإذاعية وندواته.. فكيف انتهى؟

ويتساءل الدكتور لويس ماذا كان العقاد؟ ويجيب أنه لم يكن فيلسوفا بل متفلسفا، وأنه كان متشربا بفلسفة "الترانسندانتال"، مسجلا أن هذه الفلسفة بلغت قمتها عند كارلايل. مع أن الثابت تاريخيا أن هذه الفلسفة بلغت قمتها عند كانط وهيجل وهما من الفلاسفة الكبار، وليس عند كارلايل المؤرخ والأديب.

ثم يقول: "أعود إلى الاسم الأجنبى للفلسفة الترانسدية وهى حرفياً تعنى التجاوزية، ولكن عثمان أمين رحمه الله ابتكر لها كلمة البرانية فى مقابلة الجوانية"، والسؤال الآن: لماذا كثرت الترجمات لمصطلح اتفق الغالبية على أن ترجمته هى كلمة "مفارق" كما يقول مؤرخ الفلسفة الدكتور يوسف كرم فى كتابه "تاريخ الفلسفة الحديثة"؟! كذلك يعلن الدكتور لويس استنادا إلى الدكتور عثمان أمين أن العقاد كان "برانيا"، وبالرجوع إلى كتاب "الجوانية أصول عقيدة وفلسفة ثورة" نجد الدكتور عثمان أمين يعتبره جوانيا بل "خير معبر عن النظر الجوانى فى أدبه وفلسفته".

ويقول الدكتور لويس عن العقاد بأنه "مفكر تلفيقى لعديد من الفلاسفة الألمان"، وهذا التوصيف مهين لفكر العقاد فالتلفيقية فى المعجم الفلسفى نزعة بعيدة عن الروح النقدية، ترمى إلى جمع مصطنع بين أشتات غير متلائمة، فهل كان العقاد فى فكره بهذه الصورة؟!

وحين يؤصل الدكتور لويس لدلالة هذه الكلمات: "الحق والجمال والقوة" عند

العقاد يجعل لها بديلا يبعدها عن التفكير الإسلامى ويقربها من الفكر الحديث وثالوث المسيحية مع أنها كلمات متداولة فى التفكير الإسلامى، فالحق صفة من صفات الله حيث نردد: يقول الحق سبحانه وتعالى، وكذلك الجمال "الله" جميل يحب الجمال، والقوة مشتقة من اسم من أسماء الله الحسنى "القوى".

وبالمناسبة لم يحدث أن تجرأ العقاد ووصف نفسه فى أى من كتبه بالألوهية والكهنوتية كما صوره الدكتور لويس فى عبارتين من تأملاته: "العقاد كالإله المعطى" والأخرى "كان فى القاموس شبه الدينى الذى يستخدمه العقاد وما يوحى بهذه الكهانة" ويصفه فى موضع آخر "بأنه كاهن يلقى تعاويذه".

ويقول الدكتور لويس: "عن العقاد إن لكل من الأحياء نصيبا مختلفا من جوهر الحياة بغض النظرعن اختلافهم أو اتفاقهم فى عرض الحياة"، وهى نظرية تناقض الفكر الدينى التقليدى وهو أننا جميعاً أولاد آدم وحواء (كلكم لآدم وآدم من تراب) وبالرجوع إلى مصادر الفكر الإسلامى ومنها كتب الأستاذ خالد محمد خالد عن الإنسان فى الإسلام نجد أنه لا تناقض بين العقاد والفكر الدينى أو الحديث النبوى الشريف. فالبشر متساوون فى القيمة وإن اختلفوا فى القدرات والكفاءات، وهذا رأى العقاد فى إسلامياته.

يذكر الدكتور لويس أن مشكلة التجاوزية بدأت أولا فى علم الايستمولوجيا (المعرفة) حين ذهب هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) إلى التشكيك فى قدرة العقل الإنسانى على إدراك حقيقة الأشياء. والثابت فى تاريخ الفلسفة أن ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) كان أول من تشكك فى قدرة العقل على المعرفة من الأوروبيين فسبقه الغزالى (١٠٩٥ - ١١١١) من العرب، وهناك أخطاء كثيرة مماثلة منها:

يذكر الدكتور لويس: "أن العقاد كان يرفض الإيمان المعلق على الثواب والعقاب فى الآخرة".. من الصعب الاستدلال على ذلك بالنسبة للعقاد، وخاصة فى كتاباته فى العقيدة والدين. وفى هذه الكتابات يؤكد صاحبها أن الإيمان لابد وأن يكون هدفا فى ذاته، وليس لأنه سوف يؤدى إلى الجنة فى الآخرة.

كذلك لا يمكن الاقتناع بما يقوله الدكتور لويس من أن العقاد قاعدة صلبة للعلمانية المصرية بمصر فى عالم ما بين الحربين، وما بين الثورتين لسبب بسيط، وهو أن العلمانية تعنى النظر إلى الدنيا بعيدا عن الدين. بينما العقاد كان لا ينظر إلى الدنيا بعيدا عن الدين وحتى فى سياق العبارة يقول الدكتور لويس إن العقاد يعتبر عظمة الدين هى آيتنا على عظمة الله فكيف يكون علمانيا؟

والدكتور لويس يعتبر العقاد ضمن المدرسة المثالية ثم يقول: "إذا أردت أن تعرف الفرق بين الله فى الفلسفة المثالية والله فى الفكر الدينى لم تجد اختلافا حقيقيا بينهما، إلا أن الله عند الفلاسفة المثاليين غير مشخص ومعنى هذا أن الله مشخص فى الفكر الدينى. يقول هذا عن العقاد الذى نجده يردد فى كتابه "الله" قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1] عندما يورد صفات الله.

بهذا الأسلوب تناول الدكتور لويس عوض أدب العقاد وفكره. وهو خير من تعلم أن الكتابة الدقيقة الموضوعية عن العقاد وعدد قليل من جيله.. مشروع نبيل يعرف أمره حملة الأقلام ورجال الفكر.

---

(١) الشورى /١١.

العقاد ذلك القلم الجبار.. الذى سطر لنفسه وللفكر العربى كتبا متفردة، وكان صادقا حين قال: لم أتأثر بأحد لأننى أردت أن أكون أنا نفسى، وكان غيره صادقا حين قال عنه: إنه حقا عملاق الفكر العربى - هذا المفكر العملاق هل هو مظلوم بحب أنصاره الذين يهتمون به اهتماما يغطى صفحات مجلد أو مجلدين؟ علامة استفهام كانت دائبة التنقل بين صفحات الكتب التى صدرت عنه حديثا.

على سبيل المثال.. يغطى اهتمام الأستاذ أنيس منصور بمفكرنا الراحل مجلدًا ضخما عنوانه: "فى صالون العقاد كانت لنا أيام" تقترب صفحاته من السبعمائة، وتنطوى على الكثير من أحداث تاريخنا الثقافى والسياسى، حيث يسجل لعصر بأكمله كان العقاد أحد فرسانه، ليس هذا فحسب بل يتخطى بنا الحدود، حيث كان العقاد أحد الرواد الذين استطاعوا أن يقيموا جسورا قوية بيننا وبين الفكر العالمى.. فخطوة تقربنا من عظماء تاريخ العالم، وأخرى تجعلنا وجها لوجه مع زعماء الإصلاح فى العصر الحديث. كل ذلك من خلال العقاد، وبأسلوب أنيس منصور السهل الممتنع.. وربما تتيح لنا هذه المادة التى لا تستهدف الكتاب بقدر ما تهدف إلى الاستفادة من التجربة الطويلة لمؤلفه.

وأولى هذه الملاحظات تتعلق بالعنوان، والكتاب كما يقولون يقرأ من عنوانه، والعنوان هنا يجعلك تسارع إلى اقتحام صفحاته والتهام سطوره.

لكن قبلها أتوقف عند كلمة الكتاب على الغلاف المقابل، وأتأمل منها هذه العبارة: إنه صالون العقاد بقلم أنيس منصور أو صالون أنيس منصور على ضوء العقاد أو هو العقاد من اختراع أنيس منصور، وهنا أتساءل أليست هذه العبارة معيبة لمفكرنا العقاد وكاتبنا أنيس؟ فكيف يكون العقاد بكل تراثه مجرد اختراع - كأن لا وجود

له يصنعه كاتب آخر؟ وهل كان العقاد يقبل هذه العبارة من الأستاذ أنيس لو كان على قيد الحياة؟ وهل كان يقبل الأستاذ أنيس حتى فى بداياته الأدبية أن يكون من اختراع أحد حتى لو كان الغقاد نفسه؟ وهل كان أى مبتدئ يرضى لنفسه أن يكون من اختراع كاتب أو من صنع ناقد؟ بكل الصدق أسأل: كيف سمح الأستاذ أنيس منصور لنفسه بكتابة مثل هذه السطور الجاحظة عن كاتب عملاق هو أعرف الناس بوجوده على قيد الحياة الأدبية على الأقل فى نظر وسائل النشر من صحافة وإذاعة وتليفزيون؟!

والملاحظة الثانية تتعلق بموضوع الكتاب.. حيث يقدم الأستاذ أنيس منصور سيرة مفكرنا الراحل ممزوجة بسيرته هو الذاتية.. ومع الاعتراف مقدما بأنها قدرة على المزج لا يستطيعها إلا قلم كبير، والاعتراف أيضا بحاجتنا إلى السيرة الذاتية لكبار كتابنا وفى مقدمتهم الأستاذ أنيس: إلا أن هذه المعانى قد لا يقبلها البعض مضطرا كما لم يقبل نقاد العرب من ابى الطيب المتنبي أنه كان عندما يكتب عن غيره كان بالضرورة يكتب عن نفسه. إن القلب الذى يحب كتابا الأستاذ أنيس يخفت وجيبه أمام صوت العقل الذى يسأل: "أليس من الأفضل أن تكتب سيرتك الذاتية التى نلح فى طلبها فى كتاب مستقل وتدع للعقاد صالونه"؟!

والملاحظة الثالثة تتعلق ببعض ما جاء فى الكتاب من أقوال منسوبة إلى العقاد وهو حقا صاحبها.. لكن العقل يستطيع أحيانا التمييز بين مادة مصدرها كتاب، وأخرى مصدرها حديث فى ندوة، فالكلام المسموع يختلف عن المادة المؤلفة عند إعادة كتابتها.. وفى صالون العقاد للأستاذ أنيس أكاد أقرأ صفحات من كتب العقاد منسوبة إليه على أنه قائلها فى ندوة الجمعة.. وهنا أتساءل أليس للعقاد أسلوب خاص به.. وأن للأستاذ أنيس قدرة على أن يكتب بأسلوبه المميز ما يسمعه أو ما يقرؤه؟

لكن هذه الملاحظات العامة التى تحوم حول الكتاب، ولا تسبر أغواره العميقة.. لا تقلل من قيمته وإنما تطمح بأن يحتل أعز مكان فى المكتبة العربية لأهميته.

والكتاب الثانى يصدره مركز الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية فى مجلدين كبيرين تقترب صفحاتهما من المائتين بعد الآلف، وترتيبه الخامس ضمن سلسة "أعلام

الأدب المعاصر فى مصر" التى بدأت منذ عام ١٩٧٢، والتى يشرف عليها الأستاذ الدكتور حمدى السكوت، والمستشرق الإنجليزى الدكتور مارسدن جونز.

والكتاب يتناول مفكرنا الراحل عباس محمود العقاد فى قسمين رئيسيين: دراسة ببولوجرافية نقدية، ثم إحصاء ببليوجرافى لكل ما يتصل بفكر العقاد.. ولست فى حاجة إلى التنويه بأهمية هذا العمل الكبير فهو مهم ومفيد.. خاصة إذا كان ثمرة لهذا الجهد الكبير.. سواء فى الدراسة التى كتبها الدكتور السكوت، وهو من العلماء الذين يعملون فى صمت أو فى الببليوجرافية التى تنم عن جهد استقصائى ضخم جدير بمعامل البحث بالجامعة الأمريكية.. وربما يسمح لنا هذا الجهد المشكور ببعض الملاحظات التى نضعها أمام الدكتور السكوت، والتى لا تقلل من قيمة هذا العمل العلمى الكبير بقدر ما تنبه إلى الاهتمام به والتنويه عنه.

المقدمة تشير إلى أن تأخير كتاب العقاد فى السلسلة ليس معناه تأخر المكانة الأدبية للعقاد عمن سبقوه وهم "طه حسين والمازنى وشكرى وأحمد أمين".

وأن سبب التأخير هو ضخامة حجم المادة.. ولست أدرى هل هذا سبب مقنع، خاصة وأن هذا المشروع لديه من الإمكانات والضمانات الكثير الذى يذلل هذه الصعوبات؟! وهل تصبح غزارة المادة وانشغال الدكتور جونز وانفراد الدكتور السكوت بالإشراف سبيلا إلى اعتبار العقاد الخامس فى سلسلة أعلام الأدب المعاصر فى مصر؟!

ثم غياب الدكتور جونز عن كتاب للعقاد بالذات، ألا يثير بعض التساؤلات؟! وهـل إشـراف الدكتور جونز على مركز الدراسات العربية يعوقه عن المشاركة فى مشروع بدأه؟!

وفى الجزء الخاص بدراسة شخصية العقاد يرجع كاتبها الدكتور السكوت عنف لهجة كتاب الديوان للعقاد وزميليه إبراهيم عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى إلى الظروف القاسية التى كان يمر بها العقاد وإلى تأثره بكتابات "ماكس نوردو" ونصائحه وخلاصتها: "على الكاتب لكى يشتهر أن يحدث ضجة من حوله مستغلا الخصائص

السلبية عند سواد الناس.." وهنا أتساءل هل كان أسلوب العقاد فى "الديوان" مجرد انتهاز للخصائص السلبية ليحقق الغنى والشهرة، أم أن هناك رسالة نقدية خلاصتها النهوض بالشعر وتطويره؟!

ورغم أن الدكتور السكوت يرجع عنف لهجة مدرسة الديوان للعقاد، فهو يستكثر عليه زعامتها ويرى أن المازنى أحق بها لأنه سابق على العقاد وشكرى بوضعه نظرية متكاملة للشعر فى كتابه "الشعر غاياته ووسائطه" الذى نشر عام ١٩١٥... وأسأل لماذا لا يتفق الدكتور السكوت مع زملائه من النقاد الكبار الذين أقروا بزعامة مدرسة الديوان للعقاد مستندين فى ذلك مقدمته لديوان شكرى عام ١٩١٣، هذه المقدمة تبرز معالم مدرسة الديوان التى أرسى دعائمها العقاد؟!

وحتى فى الجانب الذى قد ينصف العقاد الخاص باهتمامه بنقل الفكر العالمى. نرى الدكتور السكوت يمر عليه مروراً عابرا لا يستغرق الاهتمام به أكثر من صفحة فى مجلدين!! فلماذا؟!

والدكتور السكوت يقرر فى الجزء التقويمى من دراسته أن العقاد يتجاهل أسلوب التناول والمعالجة، ويقف من اللغة موقفا سلبيا مستندا إلى قول العقاد: "الشعر" ملكة إنسانية، مع أن العقاد قال أيضا عن الشعر إنه التعبير الجيد عن الشعور الصادق، أليس هذا تمجيداً من العقاد للغة لا تجاهلا لمفرداتها؟!

ولعل الموقف السلبى للعقاد كما يرى الدكتور السكوت - عند الحديث عن شعره جعله - أى الدكتور السكوت - يقرر أن هذا الموقف هو المسئول عن ضعف التراكيب، وقلق الكلمات. واستخدام العبارات النثرية، والصيغ الجاهزة غير المستساغة والصور الشعرية غير الموحية والألفاظ الغريبة غير المتداولة.. أهكذا كان شعر العقاد الذى اختاره الأدباء لإمارة الشعر بعد شوقى؟!

وفى الدراسات الأدبية للعقاد نرى الدكتور السكوت لا يرضى عن نقده التطبيقى لقصائد شوقى ويصف هذا النقد بأنه مضحك يقوم على الهدم ويفتقر إلى الموضوعية.. ثم يقرر بعد ذلك أن نقد العقاد لشوقى كانت له آثار واضحة فى تطور القصيدة العربية.. ترى أليس فى هذا تضارب وتناقض؟!

وفى تقييمه لإسلاميات العقاد يقرر الدكتور السكوت عدم توفر الموضوعية فيها، ويدلل على ذلك باستخدام العقاد لما أسماه المفتاح، كذلك يرى الدكتور السكوت أن العقاد فى معظم ما كتبه عن الشخصيات الإسلامية لم يكتب تراجم تصور مراحل حياة هذه الشخصيات فى بناء متماسك، وإنما كتب فصولا مستقلة لكل منها طابع المقال المستقل.

لكن الدكتور السكوت لا يغض الطرف تماما عن موضوعيته كعالم حين يقرر أن العقاد بعبقرياته قد حقق هدفا قوميا.. إذن لماذا كانت هذه النغمة العنيفة أصلا، لماذا هدم أعظم ما تركه العقاد؟!

ومع ذلك فيبقى للكاتبين تقديرهما واحترامهما واعتبارهما من أهم الأحداث الثقافية لهذا العام.. حيث كان اهتمامهما بالعقاد اهتماما خاصا.

أسفت وحزنت للرأى الذى أبداه مفكرنا الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوى فى مذكراته عن عملاق الفكر عباس محمود العقاد، والذى تضمن هجوماً حادا وقاسيا، جاء عرضا فى عبارات غاضبة فى سياق الحديث عن بعض شيوخنا من الرواد السابقين، ومصدر الأسف والحزن كان لأسباب كثيرة تخص العقاد وحده، ومنها:

أولاً: إن الدكتور بدوى خير من يعلم قيمة الجهد الإنسانى الذى بذله العقاد فيما كتب من مؤلفات تزيد على المائة كتاب موزعة فى كل مناحى المعرفة، فى الأدب والنقد واللغة، فى العقيدة والدين، فى التراجم، فى التفكير الاجتماعى، فى القصة والرواية، فى السياسة، فى الفلسفة، فى السيرة الذاتية، فى الشعر، فى المترجمات، إلى جانب معاركه الأدبية والسياسية، التى نقلت مع غيرها من معارك الرواد الصراع الدائر بين القديم والجديد من المستوى الضيق الذى كان عليه من قبل، إلى مستوى أرحب وأوسع بل وأكثر من ذلك جعلت هذا الصراع جزءا - لا غنى عنه - من التكوين الفكرى والوجدانى لهذه النهضة الثقافية التى نعيشها.

ثانياً: إن هذا الرأى اشتمل على حدة ظاهرة، وعدوانية لا مبرر لها، وظلم وافتئات ما كان ينبغى أن يصدر عن مفكر - علمنى وغيرى من طلاب علمه - كيفية التعامل مع الأشياء بالمنطق، والنظر إليها بالموضوعية، خاصة أن هذا الرأى لم يكن كغيره من الآراء التى وجهت لغير العقاد من الرواد، إذ أنه أحيانا ما كان ينبه إلى إيجابيات هؤلاء الرواد، على اعتبار أن الواحد منهم فى النهاية بشر" من حقه أن يخطئ ويصيب، أو كما قال العقاد نفسه إذا كان الأنبياء معصومون من الخطأ، فالبشر معصومون من الصواب أحيانا.

ثالثاً: إن الأستاذ العقاد كان من نفر قليل من الرواد الذين استفاد منهم الدكتور بدوى نفسه بالسلب أو الإيجاب، ولا يجوز والأمر كذلك أن يكون موقفه منه على هذا النحو من نكران الفضل.

رابعاً: إن هذا الأسلوب الذى اتبعه الدكتور بدوى مع الأستاذ العقاد كواحد من بناة ثقافتنا الحديثة، ربما تكون له نتائج غير طيبة فى تقويم أعمال السابقين. إذ لا يمكن أن يتصور المرء أن يلغى مفكر مثل الدكتور بدوى أعمال ومواقف رائد كبير من الرواد فى طول قامة الأستاذ العقاد هكذا بجرة قلم واحدة.. وفى سطور قليلة إننا لو سلكنا مثل هذا المنهج مع رموز ثقافتنا الحديثة لما بقى لنا منهم واحدًا نعتز به. ويصبح الأمر مجرد هدم، وقد تشمل عملية الهدم هذه الدكتور بدوى نفسه، حين نتجاهل كل إسهاماته الفكرية، وإنجازاته العلمية مثلما تصدى له بعض تلاميذه، وهجموا عليه بصورة تدعو إلى الرثاء.. وهكذا يصبح سلوكنا اللاحق يتهجم على السابق، والخلف يعتدى على السلف، وبهذا المنهج لن تكون لنا ثقافة متصلة الحلقات تعرف ما عليها من حقوق، أولها الحفاظ على تراث السابقين، حتى ولو اختلفنا معهم يكون خلافنا معهم يشتمل على إيجابيات تضاف إلى ثقافتنا، لما يتضمنه من قيم ومبادئ تبنى ولا تهدم.

خامساً: لا أدرى كيف غاب عن مفكرنا الكبير بدوى الوفاء فى حديثه عن الأستاذ العقاد، وقد لمسنا شيئا عظيماً من هذا الوفاء فى حديثه عن قريته شرباص، الأمر الذى جعلنا نعيش مع أبنائها من الناس الطيبين فى أفراحهم وأحزانهم، فى عاداتهم وتقاليدهم، فى كدهم واجتهادهم من أجل استمرار الحياة، وغير ذلك مما اشتملت عليه صفحات طوال من مذكرات حياته.. جعلتنا كقراء نقترب، بل ونتعاطف معه كثيرا؟! لا أدرى كيف غاب عنه هذا النوع من الوفاء الذى يطمئننا على أخلاقنا الاجتماعية، وهو يكتب عن الأستاذ العقاد سطوراً غاضبة؟! تجعل المرء يتساءل: وهل العقاد لا يساوى – فيما قدم لثقافة أمته – واحدا من هؤلاء الأجانب الذين احتفى بهم مفكرنا فى مذكراته؟! هل هؤلاء كانوا فى معزل عن الخطأ، على حين الأستاذ

العقاد هو وحده الذى اقترف كل الأخطاء؟! هل كل ما قدمه هؤلاء الأجانب لأممهم وللإنسانية، يقف أمامه جهد الأستاذ العقاد صاغراً وهو الذى قال عن نفسه فى إطار الحديث عن إسهاماته فى الثقافة العربية الحديثة مقارنا ذلك بإسهامات الكاتب الإنجليزى الخالد برناردشو: "إن ثقافة برنارد شو تقف على ثقافة حديثة عمرها يزيد على أربعة قرون، فى حين ثقافتى لا تقف إلا على جيل أو جيلين؟" وهل قليل من الإنصاف كان يكفى مفكرنا الدكتور بدوى لجعله يترفق فيما أبداه من آراء حادة غاضبة عن رائد كبير فى طول قامة الأستاذ العقاد الذى يشغل حتى اليوم الأوساط الثقافية والعلمية لا فى مصر وحدها، وإنما فى بقية أقطار الأمة العربية؟

سادساً: إن الدكتور بدوى فى إدانته للأستاذ العقاد، قد أدان نفسه بصورة غير مباشرة، إذ كيف يوافق على أسلوب شرذمة من شذاذ الأحزاب رأت أن الاعتداء على العقاد هو أفضل الوسائل للخلاص منه، ومن آرائه فيهم؟ سبحان الله كيف يتسق هذا السلوك مع الدكتور بدوى وهو الفيلسوف الذى يتعامل مع الأفكار فى أدق صورها الجدلية، الحجة بالحجة، والرأى بالرأى، وأنه لا سبيل للقضاء على أى فكر بهذا الأسلوب. بل على العكس، إن مثل هذه الأساليب من شأنها أن تنمى الفكر وتؤكده وتنشره وتخلده، حتى ولو كان فكرا متواضعا، فمن المؤكد أن يجد بين الناس من يتعاطف معه ويسانده!. فما بالنا لو كان هذا الفكر المستهدف لهذه الأساليب هو فكر العقاد!

لقد احترمنا فكر الدكتور بدوى وقدرناه لأسباب موضوعية، ومازلنا على هذا الموقف ثابتين.. وفى الوقت نفسه نحترم ونقدر فكر الأستاذ العقاد، وتقديرنا واحترامنا لا يأتى من فراغ، ولكن مما تركه لنا من أعمال خالدة ومواقف عظيمة تجعله على الدوام كتابا مفتوحا نقرؤه فنستزيد، ونعيد قراءته فنستفيد، والسبب لأننا نشم فيه أريج هذا الجهد الإنسانى حين يكون صادقاً وجديداً.. بكل ما تعنى هذه العبارة من معان ودلالات، هل نحن فى حاجة إلى اختبار ذلك؟ إذن فلنعدْ قراءة الأستاذ العقاد من جديد.. حتى نتذكر قيمة هذا الرائد الراحل.. عسى أن تنفع الذكرى!

فمن حق الأستاذ العقاد - خاصة - أن نذكره بالخير.. نعم من حقه ذلك.

وقد رحل عن حياتنا والفكر فيها حافل باليقظة والنشاط، بعد أن كان محنطا فى توابيت العصور الوسطى، والأدب نابض بالحركة والحياة، بعد أن كان متحجرا فى قوالب بالية، والفن يرسل أشعته عبر الحدود، بعد أن كان محفوظا داخل العلب والمواخير.

من حق الأستاذ العقاد علينا كواحد من قلائل، استطاعوا أن يقيموا جسورا قوية بين فكرنا المعاصر والفكر العالمى، واستطاع هو على وجه التحديد، بدم القلب ووهج الفكر وصلابة الفولاذ - أن يستوعب هذا الفكر العالمى ويهضمه، ثم يتخذ منه موقفا انتقائيا.. حيث رفض أغلبه، واتفق مع بعضه، وكوّن لنفسه رأيه الخاص، وكان صادقا حين قال: "لم أتأثر بأحد لأننى أردت أن أكون أنا نفسى".

إن الكتابة الجادة والموضوعية عن ثقافة الأستاذ العقاد، وعدد قليل من أبناء جيله الأفذاذ، مشروع نبيل، يعرف قدره حملة الأقلام ورجال الفكر، لا فى عالمنا العربى فحسب، وإنما فى العالم كله، إذ يكون عندهم خير شفيع لنا يشهد بتطورنا فى مجالات الفكر والأدب والفن، ويدل على أصالة حضارتنا وطاقاتها الخلاقة، وعراقة لغتنا العربية وخصوبتها الذاخرة.

لكن ثقافة الأستاذ العقاد - خاصة - كالإنسان لن تعرفها إلا إذا أحببتها، وإذا أحببتها فإنها تعطيك سرها، وتكشف لك عن مفاتنها.. واقترب شيئا فشيئا من هذه الثقافة وصاحبها سواء فيما كتبه من مؤلفات، أو ما كتبه عنها وعن صاحبها الآخرون، وأدير ظهرى للعالم ومن فيه، وأخلو بها وتخلو بى.. فماذا أرى؟

أرى شيئا عجبا... أرى الأستاذ العقاد الجاد دوما، الصارم أحيانا، المتجهم فى بعض الأحيان، ليس هو العقاد حين يخلو إلى نفسه، أو حين يخلو إلى أصدقائه وخلصائه المقربين. هنا يطل من وراء القناع العقلى للأستاذ العقاد إنسان آخر، يحزن ويفرح، يبكى ويضحك، يكره ويعشق، يهتز لدمعة طفل، أو لصرخة ثكلى، أو لإهدار كرامة، يحب مواويل الصعيد، ويروى النكات اللاذعة، وقد يتغلب على ملوك الفكاهة فى حلبات الفكاهة، ويحن حنينا مستمراً إلى أشياء عاشها هناك فى الأرض الطيبة التى أنبتته فى ذات يوم.

ويصول المرء ويجول فى رحاب هذه الثقافة، ويرى من خلالها العالم كله، ويطوف الأرض من أقصاها إلى أدناها، ويحلق فى سموات يعرفها، وأخرى لم يعرفها أو يسمع عنها وكأنه سائح فى عالم مجهول لا أول له ولا آخر.

فهذا كتاب يزين لنا متعة التفكير فى هذه القدرة الإلهية وما وراءها من فلسفات وتأملات. ويوصد أمامنا أبواب الشك بما فيه من احتمالات وتساؤلات فاتحا أبواب اليقين بما فيه من حقائق ووقائع، ويسلمنا هذا الكتاب الذى عشنا معه أياما فى رحاب السماء إلى الأرض فيكون أول ما يلتمع فى الخاطر كلمات سديدة ورشيدة، قوية وحاسمة تتشكل موقفا باهرا ضد ما فى الحياة من ضعف وعجز "فاللقاء مع محمد ﷺ وعبقريته".

ويدعونا هذا الكتاب الأخير إلى زيارة فلسطين.. فهناك شهد التاريخ يوما إنسانا شامخ النفس مستقيم الضمير، بلغ الإنسان فى تقديره الغاية التى جعلته ينعت نفسه بـ "ابن" الإنسان حيث يكون اللقاء بالمسيح عليه السلام.

ومن قبل الاثنين محمد وأخيه المسيح.. أخذت الأرض زينتها لتستقبل عظيما جاء إليها ليحطم أصنامها، ويدعو إلى الوحدانية.. عن أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام.

وكتب أخرى تحملنا إلى عصر الدولة الإسلامية فى شموخها وازدهارها، وتتيح لنا شرف اللقاء بمن أقاموا صرح هذه الدولة بالحق والإيمان.. حيث يكون اللقاء بالصديق أبى بكر والفاروق عمر، والإمام على، وذى النورين عثمان، وسيف الله خالد، وأبى الشهداء الحسين، وداعى السماء بلال، والصديقة بنت الصديق وفاطمة الزهراء، وداهيتى الحرب والسياسة عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان.

ولا تتوقف رحلتنا داخل الدولة الإسلامية عند اللقاء بهذه الشخصيات الفذة، فهناك اللقاء بالنظريات والأفكار، التى بنت عليها هذه الدولة دعائمها على القيم والمبادئ.. فى كتب تهتم بالدراسات والأبحاث، وكتب أخرى تضعنا وجها لوجه مع التفكير الإنسانى فى أسمى تجلياته من خلال شخصيات: بيكون، وشكسبير،

وبرناردشو، وجوته، ونوبل، وغاندى، وفرانكلين، وسن ياتسن، وأخرى تذكرنا بالمجد العربى القديم فى العلم والفكر والأدب والفن من خلال شخصيات: أبن سينا، والغزالى، وابن رشد، وابن الرومى، وأبو نواس، وجميل بثينة، وعمر بن أبى ربيعة والكواكبى وغيرهم.

وثالثة تقدم لنا زعماء الإصلاح فى الأمة الإسلامية فى العصر الحديث: جمال الدين الأفغانى، سعد زغلول، محمد عبده، على جناح، عاهل الجزيرة العربية.

وكتب أخرى تحذرنا من خدعة الشهرة لبعض قادة التاريخ، ممن بنوا أمجادهم على جماجم البشر، وأقاموا شهرتهم عن طريق الحرب وسفك الدماء.. هذه الكتب تحذرنا من هتلر وموسولينى ونابليون وفيرون وغيرهم.

هل انتهت الرحلة؟ بالقطع لا.. فهناك كتابات ناضجة فى السياسة. وأخرى عالية القيمة فى الفكر وثالثة رفيعة المستوى فى الأدب والفن إلى جانب الفلسفة والشعر وعلم الاجتماع والتاريخ.

وكتب تحملنا إلى القرن الهجرى الأول، وأخرى إلى القرن الميلادى، وثالثة إلى ما قبل الهجرة والميلاد، ورابعة إلى القرن العشرين قرن التحولات الكبرى فى الفكر والأدب والاختراعات وأحداث التاريخ.

ولا مبالغة إن قلنا إننا أمام جامعة أسمها العقاد جمعت فأوعت.

هذا الفيض المعرفى الغزير أحوج ما يكون إلى إنصافه من أعدائه وأصدقائه على حد سواء، وصاحبه العقاد هذا القلم الجبار الذى سطر لنفسه وللغة العربية كتابا متميزا فى حاجة إلى من يتصفحه بعين مخلصة وأخرى واعية، بموضوعية تعترف بما له، وما عليه فتعطيه حقه وتأخذ منه ما يزيد على حقه لا أكثر ولا اقل.

لاشك أن ما كتبه الأستاذ الدكتور شوقى ضيف رئيس مجمع الخالين من نقد وتقييم للعقاد وأعماله تحت عنوان: "مع العقاد" يعتبر مرجعا مهما لكل من يتصدى أو يهتم بالكتابة عن العقاد دارسا كان أو باحثا أو كاتبا أو صحفيا.

ومما يزيد كتاب الدكتور شوقى ضيف أهمية دون غيره من عشرات الكتب التى اهتمت بالكتابة عن العقاد، أن هذا الكتاب قد صدر بعد وفاة العقاد بشهور قليلة لا تصل إلى الثلاثة شهور حيث صدر ضمن سلسلة اقرأ فى الأول من يونيو عام ١٩٦٤.

فكما صور الدكتور ضيف فى صفحات هذا الكتاب إجمالا لسيرة العقاد ومراحلها، وما اختلف عليه من مؤثرات وما تمتاز به شخصيته من مقومات مادية ونفسية وعقليه وروحية، وكيف دفع مع جيله بقوة.. أدبنا إلى تطوره الحى المثمر، وكيف استقر سريعا عند الأفكار التى ظل يؤمن بها طوال حياته، مما جعل الفكرة عنده كفكرة الحرية تتجلى فى طائفة من مقالاته، أو مجموعة من مؤلفاته بحيث يمكن أن يرد جمهور ما كتبه من مؤلفات ومقالات إلى تيارات فكرية محددة.

لقد وقف الدكتور ضيف عند عبقريات العقاد التى رسم فيها لأمتنا العربية شخصياتها المثالية بكل ما تتجلى به من كمال وجلال، كما وقف عن رواية العقاد الوحيدة كما يرى وعنوانها: "سارة" وما يبثه فيها العقاد من تحليل نفسى دقيق، وإذا كان الدكتور ضيف قد اكتفى برواية سارة فى عالم القصة والرواية عند العقاد، حيث إن له إسهامات أخرى غيرها فى هذا المجال، أذكر منها قصة قصيرة بعنوان: "أحسن حمار"، فإن الدكتور ضيف لنشاط العقاد النقدى وكيف ثبت فى محيطنا الأدبى تثبيتا قويا للمعايير والمقاييس للصورة الجديدة التى ابتغتها مدرسته

مع صديقيه إبراهيم عبد القادر المازنى وعبد الرحمن شكرى لشعرنا الحديث، بحيث يكون الشعر يتعمقه الشعور والفكر معا، مما دفعه إلى نقد أمير الشعراء أحمد شوقى زعيم مدرسة الإحياء والبعث فى عصره نقدا عنيفا، كما دفعه ذلك إلى دراسات أدبية ونفسيه قيمة، وهى صورة قامت على تغيير المضمون الشعرى دون مساس واسع لإطار الشعر التقليدى، إطار الوزن والقافية، مما جعله يعارض صورة الشعر الحر الجديد.

كذلك تحدث الدكتور ضيف عن دواوين العقاد الشعرية حديث الناقد المتمرس فذكر أن الموضوعين الأساسيين فى شعره - خاصة فى ديوانه الأول - هما الإنسان والكون أو الحب والطبيعة حيث صوّر من خلالهما مشاعره الصادقة إزاء الطبيعة الإنسانية والحياة والوجود، وكان قلبه يزخر بشعور الجلال لأمجادنا الغابرة، والثقة بنضالنا القومى، والإحساس بما كان يعيش فيه الشعب من بؤس وشقاء، مع مقاومته الصامدة العاتية، وفى ثنايا هذا الشعر لاحظ الدكتور ضيف أن عاطفة العقاد الحارة قد أخذت بحكم تقدمه فى السن تزايل دواوينه الأخيرة تاركة مكانها لضرب التأمل والأفكار المجردة.

وكل ما كتبه الدكتور ضيف فى صفحات كتابه عن العقاد إنما هو تخطيط عام لسيرته وتراثه الضخم فى عالمى النثر والشعر، وهو تراث سيظل خالدًا على مر الزمان، تقرؤه الأجيال التالية، متمثلة فيه صورة حية نابضة من صور عبقريتنا العربية متمثلة فى العقاد.

إلا أن الدكتور ضيف حين أشار إلى جهود العقاد فى مجال السياسة ذكر فى كل طبقات هذا الكتاب بأنه انضم إلى جماعة "اليد السوداء" فى ثورة ١٩١٩، وأنه اشترك فى وضع منشوراتها السرية وربما يكون هذا التصور من الدكتور ضيف كان نتيجة السرعة فى إصدار هذا الكتاب بعد وفاة العقاد مباشرة لأن هذا التصور يجانبه الصواب إذ كيف يكون العقاد عضوا فى جماعه اليد السوداء التى كانت تعمل تحت الأرض، وهو الكاتب الذى يحتضنه زعيم الأمة سعد زغلول كما يذكر الدكتور ضيف نفسه؟ وكيف يكون ذلك وهو الملقب بكاتب الوفد أو كاتب الأمة. ثم كيف يشارك فى

منشورات سرية وهو الذى يكتب فى أكبر صحف هذا الزمان، وفى مقدمتها الأهالى؟ إنه ليس فى حاجة إلى ذلك، يضاف إليه شخصية العقاد نفسه التى كانت ترفض العمل السرى، وأنه كان يبغض ذلك. ويرغب دائما أن يكون عمله فى النور وأمام عيون الجميع الأعداء قبل الأصدقاء.

على أن الأمر لا يتعلق بتحليلنا أو تأويلنا بعد أن جاء لكاتب هذه الصفحات رد من الدكتور مهدى علّام رئيس مجمع الخالدين الأسبق بمناسبة كتابتى مقالات حول مسلسل العقاد فى شهر فبراير من عام ١٩٨١. حيث ذكر هذا المسلسل بأن العقاد وهو كاتب منشورات جماعة "اليد السوداء" إبان ثورة ١٩١٩.

هنا أرسل الدكتور مهدى رحمه الله مكذبا ذلك شكلا ومضمونا. وبأنه هو كاتب هذه المنشورات وليس العقاد. وعلى الذين يرون غير ذلك فليردوا. ولم يرد أحد وخاصة الدكتور شوقى ضيف نفسه صاحب هذه المقولة، وإنما اتخذ موقف الصمت والأكثر لم يصوب هذا الخطأ الذى نشرنا له تصويبا فى الأهرام بتاريخ ١٩٨١/٢/٢ بقلم الدكتور مهدى علام تحت عنوان: "أسجل مذكراتى قبل أن تشوه!"، وهو ما ننشره بكامله فى هذه الصفحات.

أسجل مذكراتي قبل أن تشوه!

كتب الدكتور. مهدي علام

كثيرا ما طلب مني أصدقائي أن أكتب مذكراتي عن ثورة ١٩١٩، وغيرها من الأحداث التي عاصرتها.

ولكن زهادة قوية منعتني من ذلك. إلى أن عرض التليفزيون مسلسل العملاق وجاء فيه كثير من التحريف عن كتابة المنشورات السرية للثورة.

وساكتب ما أتذكره بالقدر الممكن من ترتيب الأحداث. وأول ما يخطر ببالي هو يوم ٩ مارس ١٩١٩، وكانت هناك إشاعات مكممة بأن سعدًا وأصحابه، محمد محمود باشا، وإسماعيل صدقي باشا، وحمد الباسل باشا، قد نفوا إلى مالطة. فتألفت لجنة سميت لجنة المدارس العليا. كان ينوب فيها عن كل مدرسة أحد طلابها.

وكان من أهم الأنشطة التي تمارسها لجنة المدارس العليا كتابة المنشورات السرية. وكان الذي يكتبها من هؤلاء المندوبين ثلاثة هم إبراهيم عبد الهادي باشا مندوب الحقوق، وعبد العزيز عز العرب مندوب المهندسخانة. وكاتب هذه الكلمة – مهدي علام – مندوب دار العلوم.

ولم تكن لجنة كتابة المنشورات هذه تعمل من فراغ. ولا كانت تعمل في عزلة عن مركز القيادة الثورية. فقد كان المرحوم عبد الرحمن فهمي بك هو الصلة بين لجنة المدارس العليا وهذه القيادة وكان يسكن في بيته بشارع قصر العيني، وهو الذي أصبح دار الأدباء، وكان طبيعيا أن يكون البيت تحت رقابة البوليس السياسي، ولم يكن بدٌّ عن الاحتياط في دخوله، فاختارت اللجنة اثنين من أعضائها يذهبان إلى ذلك البيت في ثياب باعة الجرائد وهما المرحوم عبد العزيز عز العرب وكاتب هذه الكلمة

- مهدى علام - وكثيرا ما كان اللقاء مع المرحوم عبد الرحمن فهمي بك بين المغرب والعشاء.

وأذكر أنه حدث مرة أن قررت اللجنة أن تصدر منشورا سريا فى موضوع (ما) واضطررنا فى هذه المرة أن نذهب نحن الاثنين، عبد العزيز عز العرب وأنا لندافع عن فكرة الموضوع التى كان عبد الرحمن فهمي لا يقرها، فثار علينا مذكرا بأن سعد زغلول نفسه لا يمكن أن يرتاب فيه.

وأريد أن أقرر هنا أن أعمال لجنة المدارس العليا لم تتصل باليد السوداء أو تنظيمات اغتيال الانجليز إلا فيما يتعلق بحادثة واحدة هى أن اللجنة دعت فى السر والعلن. أنه لا يصح أن يقبل الوزارة مصرى ليتعرض الانجليز للحرج فى حكم البلاد حكما مباشراً دون وزراء وهو أمر يختلف عن وسائلهم فى الحكم عن طريق الوطنيين وقد ظلت مصر مدة بدون وزارة حتى دبر الانجليز مكيدة هى إقناع أحد كبار إخوتنا الأقباط بقبول الوزارة. أملا فى أن يغتاله أحد الفدائيين. فتثور فتنة طائفية يستغلونها هم. وهنا كان الرأى أن الذى يتصدى لهذا العمل الفدائى هو أحد الطلاب الأقباط وكان الاختيار عريان سعد.

إنها ذكريات سوف أبدؤها حتى لا يشوه تاريخنا هذا التشويه الذى حدث فى العملاق.

العملاق مسلسل تليفزيونى

عـن العقـــــاد

لاشك أن مسلسل العملاق الذى قدمه التليفزيون عن مفكرنا الراحل عباس محمود العقاد.. كان من أبرز الأحداث الثقافية والإعلامية فى العام الذى عرض فيه وهو عام ١٩٨١. ذلك لأن العقاد وهو جزء من كيان هذه الأمة يجعل الحديث عنه يتناول بالضرورة تاريخنا الأدبى والسياسى والاجتماعى بوجه عام.

وإذا كان بعض كتاب الأهرام قد أسهموا مع زملائهم فى بقية الصحف بالتعليق الذى تطلبه استمرار عرض المسلسل، فإن الأهرام قد تعمد الانتظار حتى تنتهى الحلقات ويطابق بين ما جاء فيها وبين ما كتبه العقاد أو ما كتبه عنه الغير. وهو عمل تطلب بالضرورة الرجوع إلى أكثر من مائة مصدر، وفى نفس الوقت التقى بأفراد من أسرة العقاد وأسر من تحدث عنهم المسلسل، واستطلع آراء المتخصصين فى الثقافة والإعلام فى هذا المجال ليقول كلمته. راجياً أن تصيب هدفين فى آن واحد، أولهما الحرص على الدقة فى تناول حياة الشوامخ، وثانيهما تقديم مقترحات بالنسبة لمسلسل العملاق.

والأهرام يفرد صفحتين لنشر الحوار مع أسرة العقاد والذين تناولهم المسلسل اليوم وغدا:

النظرة العامة لمسلسل العملاق تؤكد أنه قدم لنا - فى الكثير من مشاهده - العقاد الذى لا نعرفه ومع التساهل فى الحكم يمكن القول بأن ما صنعه هذا المسلسل بالعقاد وبتاريخنا الأدبى والسياسى شبيه بما صنعه الدب بصاحبه: النية الطيبة والأثر السيء، وأنه من المؤكد أن تديننا الأجيال القارئة لما فعلناه بالعقاد.

مثلا نتأمل معا هذه الملاحظة التى تسجلها حقيقة عدم التزام المسلسل بالسيرة الذاتية للعقاد فى كتبه الخمسة: "أنا" و "حياة قلم" و "فى بيتى" و "عالم السدود

والقيود" و "سارة". هذا الوجود الحقيقى للسيرة الذاتية للعقاد وعدم الالتزام به يمثل الخطأ الأكبر فى حق العقاد، وهو نفسه يفسر ظاهرة عدم ترحيب أغلب الأوساط بالمسلسل مع أن هذه الأوساط نفسها رحبت من قبل بمسلسل "الأيام" لأنه التزم بما جاء فى سيرة طه حسين.

كما نتأمل بداية المسلسل والبداية هامة على اعتبار أنها تحدد ملامح العمل ككل، لقد كانت البداية المؤلفة لظهور العقاد فى مسلسله تقليدية تصلح لأى إنسان وليس للعقاد عملاق الفكر فيما بعد. فهو يظهر بعد أن تناديه والدته ليقدم المشروبات لضيوف أبيه.

مع أن فى سيرته الذاتية "أنا" ما يصبح بدايات للحديث عنه. ففى صفحة ٤٨ لقاؤه الأول بالإمام محمد عبده الذى قرأ كراسة الإنشاء الخاصة بالعقاد قال: ما أجدر هذا أن يكون كاتبا بعد.. وفى ص ٣٢ والده يأبى عليه الجلوس بين النساء مفضلا عليه الجلوس مع الكبار من الرجال ممن يتكلمون فى السياسة، وص ٥١ لقاؤه بالسائح الإنجليزى المسلم ماجور ديكسون الذى أهداه فيما بعد كتابين ظل يذكرهما كلما توسع فى القراءة وغيرها.

* **العقاد والأسرة:** بعد ذلك نتأمل كيفية تناول المسلسل لحياة العقاد "العقاد الخاصة" والعامة. وفى مقدمتها أسرة العقاد وهل نقل المسلسل ما اتسمت به هذه الأسرة من معانٍ كريمة ذكرها فى "أنا" فالوالد يظهر فى الحلقات الأربع الأولى ظهوراً عارضا وليس أساسيا مع أن العقاد خصص له فصلا فى سيرته وقال عنه فى ص ٣٦ إننى مدين له بالكثير، وإننى لم أرث منه مالا يغنيني ولكنى استفدت مالا أقدره بمال، والوالدة تظهر فى معظم الحلقات حتى الأخيرة. ظهورا شاحبا. لا يتناسب مع دورها كأم لمفكر عظيم قال عنها فى ص ٤١. لقد ورثت منها كثيرا.. والخال إبراهيم يظهر فى الحلقات (١، ٢، ٣، ٤) تاجرا أميا كل همه استخدام العقاد فى التجارة وكتابة الشكاوى بالإنجليزية فى خلق الله. غير عابئ باستعداد الفتى للثقافة. ولا برغبة أبيه فى الوظيفة مع أن الرجل كان عالما متصوفا له كتبه وهو الذى يقصده العقاد فى ص ٥٠ حين قال عنه:

"وكان أخوالى يقرأون كتب التصوف الدينى ولاسيما كتب الغزالى ومحيى الدين ابن عربى".

* **العقاد والصحافة:** أن تكون بداية العقاد فى العمل الصحفى مشادة بالأيدى مع صاحب صحيفة الكورباج فى الحلقة (٣) عندما طلب منه مَقَالَىْ مدح وذم لشخص واحد فهذا غير مقبول ،فضلا عن أنه لم يذكر فى سيرته.

تبالغ الحلقة (٤) حين تجعل فريد وجدى يترك إدارة تحرير الدستور للعقاد. وفى وجود شقيقه أحمد وجدى المحامى الذى كان يقوم بالترجمة والأخبار فى الصحيفة كما يذكر العقاد فى "حياة قلم" ص٦٩. وتبالغ أيضاً فى تصويرها بأن سبب الخلاف بين فريد وجدى والعقاد لإصرار العقاد على نقد مصطفى كامل فى رثائه، بينما الخلف كان مع أحمد وجدى كما يذكر العقاد فى "رجال عرفتهم" ص ١٦٧.

كما تبالغ الحلقة (٦) حين تجعل الخديوى عباس شخصيا يتآمر مع حشمت باشا على طرد العقاد من وظيفته بالأوقاف وعمله بالصحافة فالعقاد ترك الأوقاف لكراهيته للعمل الوظيفى. ثم اختيار العمل الصحفى لحبه الدفين للكتابة. وترك المؤيد الجديد لعدم رضاه عن الرشوة.

ليس هناك مؤامرات ضد العقاد. ربما ينطبق هذا على الإمام محمد عبده وليس العقاد.

والحلقة (١٤) تسئ للعقاد الكاتب الإسلامى حين تجعله يؤمن باليانصيب. حتى ولو ربحت ورقته عشرة جنيهات إبان أزمة مالية حتى لو أنفق كل هذا المبلغ تحديا للوفد.

* العقاد والوفد: الحلقة (٧) تتضمن أحداثا بعد الحرب العالمية الأولى وقبل ثورة ١٩١٩ توحى بأن العقاد كان ضمن الهيئة التأسيسية للوفد فهو بجوار سعد زغلول وفى اجتماعاته المحدودة قبل الثورة. والصحيح أن العقاد لم يكن ضمن الهيئة التأسيسية للوفد كما ذكر فى ص ١٩٥ فى كتابه عن سعد زغلول. ولم يلتق بسعد زغلول من عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩٢١ إلامرتين كما ذكر فى ص ٦٠٤ فى نفس الكتاب مرة

يطلب الانضمام إلى إحدى البعثات والثانية ليهديه ديوانا من الشعر، والمرتان بعيداً عن السياسة.. بل إن عضوية العقاد فى الوفد ينفيها الكثيرون وفى مقدمتهم صديقاه الجبلاوى فى كتاب العقاد دراسة وتحية ص٦٢. وعبدد الرحمن صدقى فى عدد الهلال الخاص عن العقاد ص ١٠.

وخروج العقاد على الوفد الذى صورته الحلقة (١٣) بصورة تدين الوفد كان يحتاج إلى رأى المؤرخ السياسى ليجيب لنا: هل الوفد بائتلافه مع الوزارة النسيمية كان على حق أم العقاد فيما كتب؟ ثم ما هو حكم التاريخ حين أعلن مكرم عبيد فى رده على العقاد بأن ما يكتبه كان بدافع شخصى هو نقل صديقين له من القاهرة إلى الصعيد؟ ما هو الحكم بعد تأكيد الجبلاوى فى مذكراته ص ٨٩ وهو أحد الصديقين ما أعلنه مكرم عبيد. وتأكيد رجاء النقاش فى مناقشته لهذه القضية فى ١١١ من كتابه عن العقاد؟

* العقاد وثورة ١٩١٩ تبالغ الحلقة (٨) حين ترى أن نفى سعد زغلول وصاحبه عام ١٩١٩ هو سبب الثورة. مع أن مؤرخنا الكبير الرافعى يرى فى كتابه (ثورة ١٩١٩) أن هذا النفى كان بمثابة الشرارة الأولى التى أشعلت الثورة، لكن هناك أسباب أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية. ويؤكد رأيه بأن سعد زغلول نفى للمرة الثانية عام ١٩٢١. وكانت مكانته قد عظمت عند الأمة ولم تقم فى البلاد ثورة! وتزيف هذه الحلقة التاريخ حين تجعل العقاد كاتبا للمنشورات السرية لثورة ١٩١٩. والحقيقة أن كتابة هذه المشورات تكونت لها لجنة من ممثلين عن المدارس العليا وهم ثلاثة "إبراهيم عبد الهادى، ومهدى علام، وعبد العزيز عز العرب" ولعل الحلقة تأثرت فى ذلك كما تأثر غيرها بما كتبه الدكتور شوقى ضيف فى ص ٣٧ من كتابه "مع العقاد" عن جماعة اليد السوداء وبأنها كاتبة منشورات الثورة.

كذلك تبالغ هذه الحلقة حين تجعل أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى يعلنان الثورة مع أن الرافعى يذكر أن الاعتراض الذى كتبه أعضاء الوفد برياسة على شعراوى كان بمثابة الإعلان عن الثورة.

* العقاد والبرلمان الحلقة (٩) تعلن عن ترشيخ الوفد للعقاد عن دائرة أسوان، بعد صدور دستور ١٩٢٣ ولا ينجح، وفى حلقة (١٠) يرشحه فارس ومرزوق عن دائرة بولاق وينجح لكن البرلمان يحل بعد تسع ساعات. وفى نفس الحلقة يقف فى البرلمان مدافعا عن الدكتو طه حسين فى معركة كتاب فى الشعر الجاهلى ١٩٢٦. الحلقة (١٢) يرشح نفسه عن الصحراء الغربية وينجح.

الثابت فى مضابط البرلمان فى الفترة ما بين ثورتى ١٩١٩، ١٩٥٢ وكتاب تاريخ الحياة النيابية فى مصر، لمحمد خليل صبحى أن العقاد دخل مجلس النواب مرتين.. الأولى عام ١٩٣٠ بعد نجاحه عن دائرة بولاق، ولم يحدث حل للبرلمان فى هذا العام، وإنما حدث فى عام ١٩٢٥، وكانت المرة الثانية عام ١٩٣٨ عن الصحراء الغربية، وعين بمجلس الشيوخ عام ١٩٦٤.

* العقاد فى السجن: لم تذكر الحلقة (١٢) حقيقة تعلم العقاد اللغة الفرنسية مع أنه سجلها فى سيرته "عالم السدود والقيود" ص ٤٢. واهتمت بتصوير زيارة مسئول سياسى كبير للعقاد فى سجنه ولم تعلن عن اسمه، وقد عامله العقاد بما لا يليق مع أى انسان. حيث كان يحدثه وهو نائم وواضع ساقا فوق ساق متعمدا. ومع أن العقاد لم يذكر هذه الواقعة فى سيرته، وذكرها الجبلاوى فى مذكراته ص ١٢١ نقلا عن الأستاذ محمد التابعى فى آخر ساعة بتاريخ ١٩٦٤/٣/١٨ فإنه لا يليق تصويرها خاصة لو كان المسئول هو على ماهر باشا.

ولم تكن زيارته لضريح سعد زغلول عقب خروجه من السجن مباشرة، كما أعلنت الحلقة وإنما كانت بعد عودته بيته وتخفيه عن أعين الرقباء. وزار أيضاً قبر الوطنى ويصا واصف كما يذكر فى ص ١٥١.

* العقاد والمرأة: قدم المسلسل هذا الجانب كعبقرية تحسب للعقاد فاخترع شخصيات لا وجود لها فى حياة العقاد ومنها "جوانا" و "سبحه" و "قمر" و "أنيسة"؟

"مىّ" التى تلتقى بالعقاد فى الحلقة "٨" وبالطبع تسقط صريعة النظرة الأولى مع

أنها تعلن لوالدها متحدية اياه.. هى حرب وهو الذى أعلنها لكن سرعان ما يذوب تحديها، وتبدو كفتاة مراهقة وليست كأديبة عظيمة يقول عنها العقاد فى كتابه" ردود وحدود" ص ٢٢.. فما عرفت العربية كاتبة أفضل من ميّ وأقدر وأجلى..".

"سارة" التى تصورها الحلقتان (١٣، ١٤) وقد اكتشف خيانتها له وهو فى السجن، وأيضاً بعد خروجه من السجن، فيزجرها قائلا: بأنها خائنة وهو مسجون وسامحها، ولكنه لا يستطيع هذه المرة. ومن نكد الدنيا أن تبرر خيانتها مرتين له ولمريانا صديقتها بالتزاماتها هى وطفلتها. كأنها تجعل فى حياتها رجلا للحب وآخر للأموال وثالث للزواج، يا لطيف يارب.

"هناء" وظهورها فى الحلقات (١٥، ١٦، ١٧) يؤكد ما يسئ للعقاد" فهذه الممثلة الناشئة قديسة وعاقلة مترببة فى عرف حكماء ماسبيرو فهى تريده أبا وأستاذا وصديقا، وهو يريدها فتاة للحب وهى تقول له: أنا فشلت أن أرجعك لمعنى الصداقة وهو يرد: إن كنت قد فشلت فى الصداقة أنا فشلت فى الحب وترد: الصداقة أبقى من الحب؟

ويبقى لقاؤنا مع العقاد والشخصيات السياسية والأدبية، وكذلك العقاد والوظائف والمناصب مع كلمات للتاريخ من الدكتورة نعمات فؤاد والدكتور حسين فوزى النجار، وسيد العقاد وأحمد إبراهيم الشريف.

* العقاد والوظيفة: فى الحلقة (٦) يصطدم العقاد بالمهندس الاسترالى وينتهى الأمر بأن يضربه المهندس ويسبه. مما يجعل العقاد يحمل مسدسا طلبا للثأر من المهندس ليس لهذه الواقعة المهينة بالعقاد أى أثر فى سيرته بل على العكس كما ذكر العقاد فى سيرته "حياة قلم" ص ٦٣ أن يكون وجود المهندسين الأجانب فى المشروع جعله يطلع على الصحف الأجنبية.

كذلك تصور هذه الحلقة تدبير نفى العقاد إلى مالطة لأنه رفض التبرعات التى طلبها المفتش الإنجليزى والأمر على هذا النحو مبالغ فيه، لأن العقاد يذكر فى سيرته أنا ص ١٢٠. ما خلاصته أن خلافا دب بين العقاد وأحد المديرين وفتئذ. وكان العقاد

ناظرًا للمدرسة الإسلامية بأسوان حول الاحتفال بنجاة حسين كامل وليس حول التبرعات.

* العقاد والمناصب: فى الحلقة (١٧) مشهد لوكيل الديوان الملكى يخير العقاد بين الباشوية أو التعيين فى المجمع اللغوى. وهذا المشهد ينطوى على أكثر من خطأ، أولا: عضوية المجمع حسب قانونه بالانتخاب. أما إذا أراد المجمع زيادة فى أعضائه يصعب معها طريقة الانتخاب فإن المجمع يختار هذا العدد ويستصدر مرسوما أو قرارا كما يحدث فى حالة الانتخاب. وقد تطلب الأمر زيادة عدد أعضاء المجمع عام ١٩٤٠ فاختار المجمع ١٠ منهم العقاد كما يذكر الدكتور إبراهيم مدكور فى كتابه عن المجمع ص ٣٥. وقيل إن العقاد اختير كما يذكر الدكتور مهدى علام فى كتابه المجمعيون ص ٨٤ مرتين. وأما الباشوية فقد ذكرها الدكتورة نعمات فؤاد فى كتابها "فى أدب العقاد" ص ١٥٩. فى موضع آخر حين خيروه بينها وبين البقاء عضوًا بمجلس الشيوخ فاختار العضوية ثالثا: مسار الأحداث يشير إلى أن عضوية المجمع كانت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ والصحيح أنها كانت عام ١٩٤٠.

* العقاد والشخصيات السياسية وسعد زغلول وتصوره الحلقة (١١) فى لحظاته الأخيرة وحوله النحاس وأحمد ماهر والعقاد. ويطلب منهم أن يدافعوا عنه ضد خصومه. ويوجه الحديث للعقاد قائلا: سامع يا عباس هذه الواقعة جزء منها نفاه الأستاذ مصطفى أمين فذكر أن النحاس كان فى أوروبا وأحمد ماهر كان فى عرض البحر. والباقى ينفيه العقاد نفسه فى كتابه عن سعد زغلول، فيذكر أن اللحظات الأخيرة لم يشهدها غير قرينته وطبيبه، وأن آخر لقاء للعقاد بسعد كان قبل وفاته بأسبوع فى استراحته" بمسجد وصيف وليس فى بيته بالقاهرة وأن أخر كلمات سعد للعقاد ذكرها فى ص ٦١٨: "ليس لى يا بنى خصوم أحسب حسابهم إنما أخشى الأصدقاء".

د. أحمد ماهر: وظهور العقاد فى الحلقة (١٧) حزينا على اغتياله، ويتعجب لاغتيال أحمد ماهر على يد واحد من الجماعات السرية.

والثابت كما يذكر عبد العزيز خميس "فى أسرار الكفاح السرى" أن القاتل وهو

محمود العيسوى المحامى لم يكن عضواً فى الجماعات السرية، وأنه كان رئيسا للجنة الشباب بالحزب الوطنى.

* العقاد والأدباء: لأمر ما جعل المسلسل العقاد بطلا، وسائر أدباء عصره كومبارس. فأديبنا المازنى يسخر منه فى الحلقة (٧) حيث يرد على سائل عنه" نسيناه فى الدرج "مشيرا إلى قصر المازنى والشاعر الجبلاوى أسئ إليه حين جعلوه يلهث فى مراقبة امرأة" وإمام الأدب العربى الرصين الرافعى لا يفهم ولا يسمع وشاعر النيل حافظ إبراهيم مهرجاً" والناثر الساخر البشرى أضحوكة. وشبل شميل صاحب النظريات العلمية مخبولا، وشاعر العراق الزهاوى مهووسا، والشاعران الفحلان إسماعيل صبرى وولى الدين يكن لا يشعران إلا فى غزل مىّ، وعميد الأدب طه حسين لا يستحق مقابلة. ما كل هذا؟

وبعد فهذه الملاحظات التى ذكرتها على سبيل المثال لا الحصر تجعل التليفزيون يعيد النظر إلى ما يقدم بعد اليوم من مسلسلات تتناول حياة المفكرين. أما بالنسبة للعملاق فيجب مراعاة ذلك.

١ – تنقية الحلقات من الأخطاء الفادحة. وذلك بحذف مشاهدها حتى لو أدى ذلك إلى التشويه. لأن تشويه مشهد أسهل من تشويه تاريخ.

٢ – لو أصر التليفزيون على إذاعة المسلسل مرة ثانية. فليكتب تحذيراً فى مقدمتها.. هذه الحلقات لا تمثل العقاد "كما تفعل شركات السجاير لا تمنع تداولها ولكن تكتب "التدخين ضار بالصحة".

٣ – إذا استحال كلا الأمرين وكان فى الحسبان كتابة الجزء الثانى الخاص بحياة العقاد بعد ١٩٥٢ – كما سيفعل التليفزيون مع طه حسين – يراعى أن يتضمن تصحيحا لما سبق.

٤ – وإذا تعذرت هذه الأمور يلغى المسلسل على أن يشمل قرار الإلغاء المنطقة العربية. ولا نأسف على الخسارة المادية، لأنها تتضاءل أمام خسارتنا المعنوية إذا بقى.

وها هى أمثلة للردود التى أسهمت فى تقييم هذا لمسلسل.. استجابة لما كتبه صاحب هذه الصفحات.

أن يملأ العقاد الحياة الفكرية والسياسة والوطنية فى نصف قرن بالمواقف الكبيرة التى يعز وقوفها، شموخ جعل منه عملاقا فى تاريخنا يتحتم على الآخرين، إذا ارادوا موضوعا للدراسة بالقلم أو الصورة أن يرقوا إلى هذه الذروة بالدرس المتصل والإحاطة الشاملة، والنفاذ الواعى والعمق البعيد.. ليس من أجل العقاد وحده، ولكن من أجل أمة يمثل العقاد كبرياءها ورأيها وإصرارها، وقيمها وكرائمها.

والعقاد هنا ليس فردا بنفسه. ولكنه عصر زاخر بأحداثه وأشخاصه وشخصياته، ودوره وإنجازاته مما تفاعل معها العقاد بالأخذ والعطاء.

والعقاد العظيم إذا صادق فصديقه قمة تسامقه. وهكذا كان المازنى أحد رواد النهضة الأدبية الحديثة، وأحد ثلاثة كانوا عمد مدرسة الديوان التى دعت إلى التطور والتجديد وقد تركت هذه المدرسة بصماتها على الحياة الأدبية، بل امتد أثرها إلى المهجر حيث تأثر بها شعراؤه.

كان المازنى ساخرا ولكن ليست سخريته كلمة (يا عمنا) التى تسلق عليها المسلسل، ولكنها سخرية الملاحظة المنتخبة الذكية حتى لقد ارتفع المازنى بالفكاهة إلى مرتبة الأدب خاصة فى كتابه "صندوق الدنيا" بما حواه من صور ممتعة باقية.

ثم أين آراء العقاد الأدبية، أين ثورته على الشعر العربى؟ وشعر المديح والنفاق خاصة؟

أين ثورة العقاد على الديكتاتورية من كل نوع وطبقة إلى أن رحل؟ أين انتصاره للديمقراطية الحقيقية الحقة؟ أين صدق العقاد الذى لا يقبل الكذب؟ أين جدية العقاد التى تنفر من التهريج الرخيص؟ أين موسوعية العقاد؟ الذى كتب فى الأدب والعلم، والفنون والفلسفة، والدين والتاريخ؟ أين عصر العقاد ورجاله من الأدباء والعلماء

والسياسيين؟ أين بيت العقاد الذى أفرد له كتابا؟ أين ندوة العقاد فى القاهرة وأسوان التى كانت مدرسة وجامعة؟ أين شعبية العقاد التى لا يمنحها الشعب إلا للأفذاذ دون غيرهم؟ أين عالمية العقاد؟

كيف غاب هذا كله عن المسلسل وغاب قبله عن ذهن كاتبه ومخرجه؟

المسلسل الذى لم يتورع أن يضرب العقاد وهو ما لم يحدث أبدا للعملاق الذى كان قلمه يصفع الحاكم إذا تطاول على هذا الشعب أو تهدده؟

ولو كان هذا حدث فرضا، هل كان أولى جوانب العملاق بالتقديم؟ هل غَطّى المسلسل من أبعاد الشخصية ما هو أكرم وأليق! هل فرغ المسلسل من تغطية الزخر الزاخر فى حياة العقاد حتى يستدير إلى الإهانات؟

لا تقربوا العقاد إن لم تملكوا مقومات الكتابة عنه.

"د. نعمات أحمد فؤاد"

رفقا يا هواة

المسلسلات بثقافاتنا!

كنا نظن فى مسلسل العمـــلاق تصويرا لحياة كاتبنا الكبير عباس محمود العقـــاد، أو على الأقل إبراز لملامح شخصيته الفريدة فى حقبة من الزمن حفلت بالأحداث العظام فى تاريخ مصر المديد فقد ولد العقاد فى أعقاب الاحتلال البريطانى لمصر. وقد عاش حقبة من الزمن شهدت فيها البلاد الكثير من الأحداث التاريخية والآن وقد أصبح العقاد فى ذمة التاريخ كيف نتناوله؟

نتناوله على ضوء الأعمال التى قام بها، والتى تجعل منه شخصية متميزة تجذب اهتمام التاريخ من بين الملايين من الشخصيات التى لا يعنى بها ولا يلقى اليها بالا. فالبطل فى التاريخ لا يتميز ولا يستوقف موكب التاريخ ما لم يترك علاماته البارزة على صفحة الزمان والمكان وهو ما نعبر عنه بالأثر التاريخى.

وهذا هو ما غاب عن الذين اشتركوا فى إخراج مسلسل العملاق للتيفزيون. فليست قصة العظيم أو البطل فى التاريخ مسلاة للمشاهدين لنشحنها بكل ما يعرى البطل من رداء البطولة، فللعقاد أن يحب وكل الناس يحبون. إلا أن عظمته وخلوده ليست فى الحب. وليس لكاتب المسلسل أن يشط به الخيال فى تصوير الخصال ليفسدها ويصم صاحبها إن لم يكن بالغرور فبتفاهة المقدور.

وقد رأينا فى الفترة التى عرض فيها المسلسل فيلما يصور نشأة تشرشل وشتان ما بينه وبين المسلسل ولعل كتاب التليفزيون عندنا إذا ما تناولوا أحداثا تاريخية أن يكون لديهم الوعى الكافى بالتاريخ فكم اجتاحنى التقزز وأنا أشاهد لقطة من العرض تناولت الخديوى عباس حلمى الثانى فصورته رجلا أبله وما عرفوا أن حاكما أبله لا يحكم غير شعب من البلهاء.

وعلينا أن نعى دور أجهزة الإعلام المرئية والصوتية فى بناء ثقافة الأمة. وليس بناء الثقافة فى استجداء أهواء الجماهير، وتسليتهم.

وقد دون العقاد صور حياته وتطور فكره فى كثير مما صدر عن قلبه: سواء فى "أنا" أو "حياة قلم" أو "فى بيتى".. ولا نرى فى كل ما كتب أنه عنى بتدوين حياته الخاصة، فهو أعرف الناس بأن الأثر التاريخى الذى يتركه العظيم على صفحة الحياة هو كل ما يحفل به التاريخ.

وإذا كانت صورة حامد فى قصة زينب تمثل صبا الدكتور هيكل، وكانت صورة محسن فى عودة الروح تمثل صبا توفيق الحكيم فليس ذلك هو ما نحفل به حين ندون للدكتور هيكل أو لأستاذنا الحكيم.

فرفقا يا هواة المسلسلات والكسب الرخيص بثقافة الأمة وبتراث الكبار وتاريخ الجيل.

"د. حسين فوزى النجار"

إعادة العملاق

تشويه للعقاد

للحقيقة والتاريخ أقول إن مسلسل "العملاق" لا يرقى فى أية حلقة من حلقاته بل فى أية جزئية من جزئياته لمستوى فكر العقاد، ولا بشمول معرفته التى جعلت منه دائرة معارف متحضرة، تذهل كل من يحاول التعامل معها عن قرب أو عن بعد.

وللحقيقة والتاريخ أقول إن اتصال العقاد بالمرأة كان اتصالا طبيعيا فيه التقدير والإعزاز وليس فيه الكباء على الأطلال والدمن ولا تمزيق الثياب والصور والهدايا.

وللحقيقة والتاريخ أقول إن أحدا من أسرتنا لم يحاول منع العقاد من مواصلة الدراسة بل إن رغبته الجامحة للتحصيل العريض الشامل فى القراءة هى التى جعلته يعرض عن الدراسة.

ويتصل بهذا عن قرب موهبة ساعدته على القراءة وهى قوة الذاكرة فإذا قرأ شيئا كان يحفظه ولا ينساه وإذا أراد الرجوع إلى موضوع من الموضوعات كان يطلب منى أو من شقيقه ياسين العقاد – وكنا نقيم معه فى شقته فى مصر الجديدة – إحضار الكتاب محددا مكانه بكل دقة وهذه الموهبة الفذة هى التى مهدت له الطريق ليكون دائرة معارف شاملة، لم يحاول المسلسل إلقاء الضوء عليها ويتصل بذلك عن قرب تصوير المسلسل لأقرباء العقاد فلم يكن أمينا فى هذا التصوير وأبرز خطأ فى هذا المجال تصويره لخال العقاد الشيخ إبراهيم الشريف العالم المتصوف الذى كان قبلة أنظار الجميع فى أسوان لعلمه الواسع الغزير فى دراسات القرآن والفقه. تصويراً يشوه تاريخ هذا الرجل.

بقى شئ هام يجب أن أقوله وهو أن إعادة عرض مسلسل العملاق شئ لا يعدو أن يكون إصرارا على تشويه صورة العقاد فى أذهان الناس.. إن الأوفق أن يعتبر

هذا المسلسل تجربة أخفقت و لم يدركها النجاح وأن ينهال عليها غبار النسيان حتى لا يزداد جرح وأن ينهال عليها غبار النسيان حتى لا يزداد جرح أهله الذين صدموا صدمة عنيفة انتاب الكثيرين منهم ضجر محزن كاد يؤدى بهم إلى الشكوى بالطرق القانونية.

وفى الختام أقول: إذا كان لابد من مسلسل تليفزيونى للعقاد فيجب أن تشكل لجنة تضم عددا من كبار الأدباء الذين درسوا كتبه، وعددا من تلاميذه المخلصين الذين مازالوا على قيد الحياة. وعددا من أقربائه وهم كثيرون بحمد الله بأسوان حتى يأتى المسلسل قريبا من الواقع وليس بعيدا عنه ولا يمت له بصلة كما حدث، فمن العوامل التى ساهمت فى إنتاج المسلسل بالصورة المهلهلة التى ظهر بها أنه لم يعتمد على أشخاص خالطوا العقاد وعاشروه عن قرب فى مختلف ظروف حياته.

"سيد العقاد"

رسالة توضح

موقف أسرة العقاد

الأستاذة همت مصطفى، الأستاذ يحيى العلمى..

تحية طيبة وبعد ،،،

فقد صورتم أبي المرحوم الشيخ إبراهيم الشريف فى صورة تاجر متحجر رجعى، لا يؤمن بالعلم ويقاوم استكمال ابن اخته لتعليمه بإلحاح شديد وهى صورة خاطئة جملة وتفصيلا بشهادة الواقع وشهادة الأستاذ عباس محمود العقاد نفسه.

فأما عن شهادة الواقع فهى أن أبي لم يكن تاجرًا، بل كان منقطعا للعلم والفقه والتصوف، عازفا عن الدنيا مقبلا على الدين. فلم يتزوج، ولم يتوظف بشهادته الأزهرية، ولم يفتح عملا تجاريا إلا بعد سنة ١٩١٤ حين رضخ لرغبة أمه. فتزوج وأنشأ دكان بقالة صغيرة لا تحتاج إلى الموظفين أو العمال.

وكان فى مدة انقطاعه للعلم يعقد ندوة لمريديه يشرح لهم فيها العلوم الدينية ولا سيما إحياء علوم الدين للغزالى، وفقه العبادات، وألف فى هذه المدة كتابين أحدهما" الإرشادات فى العقائد والعبادات" على المذاهب الأربعة. وما يزال على قيد الحياة عدد من رواد ندوته ومريديه والمتتلمذين عليه بأسوان والسودان وجهات أخرى.

ليس هذا هو بالرجعى ولا هو الأمى الذى يحتاج لمن يكتب له العرائض. ولا كان يهتم بشئون دنياه فضلا عن دنيا ابن اخته ليلح فى تعليمه أو قصر تعليمه. ولا كانت له خصومة مع حنفى بك ابن منصور بك حمادة الذى تسميه المسلسلة حفنى.

فلعمرى ما أبعد الفارق بين الحقيقة وما اخترتم أنتم له من تصوير.

وأما عن شهادة الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فيقول فى الصفحة ١٥٢ من كتابه أنا "وكان فى بيت أخوالى درس لقراءة الكتب الدينية وأذكر منها مختارات الأحاديث النبوية وإحياء علوم الدين فللوراثة شأن عندى فى سليقة الاعتقاد. وكان كثيرا ما يصرح فى ندواته بأنه أخذ هذا عن خاله إبراهيم محمد الشريف خاصة.

وأما عن شهادة كاتب المسلسل نفسه عامر العقاد فذلك قوله فى الصفحة ٥٩ من كتابه لمحات من حياة العقاد الذى صدر فى سنة ١٩٦٨: "عاش الفتى الصغير يتمنى تحقيق تلك الأمانى الكبيرة إلا أن أباه كان يرى أن يكتفى بما حصل من الدرس وأن يسلك طريق الوظيفة الميرى، كذلك أخواله التجار كانوا من أولئك الذين يؤمنون بالمبدأ القائل إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه فحبذوا فكرة الأب فى أن يسلك الفتى خدمة الحكومة لاسيما وأن أخويه الكبيرين سبقاه إليها من زمن ليس باليسير..".

إذن المعارض أبوه لا خاله، والمحبذون أخواله التجار لا المنقطع للعلم والتعليم والتأليف والسبب قلة الدخل لا الرجعية وعدم الاعتقاد فى العلم والتعليم والتأليف.

لهذا أتشرف بأن أرفع إليك كتابى هذا راجياً صدور أمرك الكريم بتصحيح هذا الخطأ الذى يسئ إلى سمعة المرحوم أبى بالطريقة التى ترينها مناسبة.

"أحمد إبراهيم الشريف"

لو كان الأستاذ العقاد حيا لما رضى عن نفسه فى مسلسل العملاق. ولما تنازل عن عقاب ابن أخيه "عامر العقاد" الذى كتب المادة العلمية لهذا المسلسل، و "عصام الجمبلاطى" الذى وضع السيناريو والحوار له. وذلك لما اقترفاه فى حقه وفى حق صديقه" المازنى" وقد أثبت الكاتبان أنهما يجهلان كل الجهل شخصية المازنى "فأساءا إليه إساءة كبيرة لا تغتفر، وإنه لمن المؤسف حقا أن نقدم فى التليفزيون عملا يهبط بالقيمة الأدبية لمجموعة من الرواد الذين لا يختلف اثنان على اتصالهم وريادتهم، وإذا كنا نظهر كتابنا ومفكرينا بهذا المظهر المزرى السخيف أمام أبناء البلاد العربية التى تعرض مسلسلاتنا، فماذا يكون رأيهم فى هؤلاء الرواد الذين ينظرون إليهم نظرة إكبار وإجلال، ماذا يكون رأيهم فى المازنى الذى شاعت عبقرية الكاتبين أن يظهراه أشبه بالمهرج أو غيره ممن تناولهم هذا المسلسل بالمسخ والتشويه. ولماذا يقرأون كتبهم وما خلفوه من آثار إذا كان هذا رأينا فيهم؟

بل ماذا يكون رأى الشباب الذين يدرسون هؤلاء الرواد، كيف يقتنعون بهم، ومن ثم لماذا يقرأون لهم وهم يرونهم على الشاشة بهذا المظهر السخيف، لا أكثر من مهرجين وبهلوانات.

وسأضرب مثلا بما اقترفه الكاتبان فى احدى الحلقات. عندما طرد ناظر المدرسة كلا من العقاد والمازنى بطريقة هزلية مهينة أشبه بما نشاهده فى المسرحيات الهزلية وتقبل الاثنان الإهانة دون أن يفتح الله عليهما بكلمة واحدة ردا على وقاحة الناظر. وخرج العقاد ليقول لزميله المازنى "لقد أصبحنا بلا مأوى" فأخذه المازنى إلى أحد مدافن حى الإمام الشافعى ليسكنه فيه. أهذا يليق؟ إن المازنى فى هذا الوقت كان رب أسرة ويعيش فى بيت وليس فى مدفن، وكان لا يمكن أن يفكر فى إسكان صديقه فى

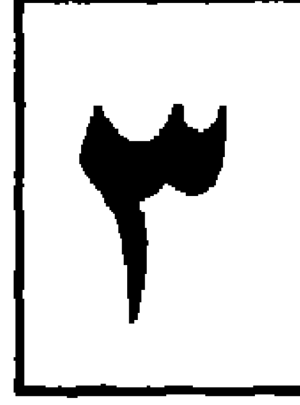
مدفن، والأستاذ العقاد سكن فى الإمامين مرتين على فترتين المرة الأولى فى حى الإمام الليث بن سعد، والمرة الثانية فى حى الإمام الشافعى. وتفصيل ذلك له وقته، وهذه الفترة فى حياة العقاد لا يعرفها كاتب هذا المسلسل بدليل أنه جعل عمه من سكان المدافن.

ليس هذا كل ما أريد أن أقوله. ولكنها كلمة أستهل بها معركتى دفاعاً عن سمعة أبى وكرامته ومكانته الأدبية التى شوهها عباقرة آخر الزمان.

وهذا حقى وحق كل أصدقاء المازنى ومحبيه الذين انهالوا علىّ باللوم والتقريع لما ظنوه سكوتا ورضاء عن الإساءة التى لحقت بأبى.

إننى لن أسكت ولن أرضى. وقد رفعت الأمر للقضاء ليقول كلمته حول تشويه صورة أبى مما سبب لنا أضرارا كبيرة.

"محمد عبد القادر المازنى"



ثالثا : العقاد والنصف الآخر

- هل كان العقاد عَدُوًّا للمرأة
- العقاد... وميّ وأشهر قصة حب
- فصل شارد من رواية سارة للعقاد

سؤال قبل الإجابة عليه، ينبغى أن نعرف أولا حكاية العقاد مع المرأة

وحكاية العقاد مع المرأة.. تشبه إلى حد كبير.. الحكاية التى ترويها الأساطير القديمة، أن الرب حين منح الرجل المرأة، برم بها، وشقى معها. وشكا مستغيثا منها. فاستعادها الرب إليه فلما استشعر الرجل الحرمان من المرأة، لم يطقه، ولم يصبر عليه.. فذهب إلى ربه مستغفرا وطالبا أن تعود المرأة إليه مرة ثانية فهى نصفه الذى لا يستغنى عنه.. فقال الرب: ألم تقل إنك شقيت بها، وأنك لا تطيقها؟! قال الرجل نادما على ما فعل: ولكننى لا أستطيع الحياة بغيرها.. إنها الشر الذى لابد منه!

حقا لقد هرب العقاد بجلده من الزواج بالمرأة.. حتى لا يتقيد بها فى حياته.

ولكنه لم يستطع أن يهرب من حبه لها، حيث أوقعه كيوبيد فى شراكها أكثر من مرة. فلم يخل قلبه من حبها حتى آخر لحظة فى حياته.. إلى درجة أنهم وجدوا بجواره على فراش الموت أبياتا من الشعر تتغزل فى المرأة وتؤكد من جديد أن هذا القلم الجبار الذى وصفوه مرة بعد مرة بأنه عدو للمرأة. يتحول فى يد صاحبه إلى قلب صغير.. ينبض بأجمل العواطف وأرق الأحاسيس حين يكتب عن المرأة.. لأنه فى الأصل يعبر عن حب دفين لها.

وأما ما كتبه العقاد فى كتبه وفى مقدمتها "المرأة فى القرآن" و "هذه الشجرة والمرأة ذلك اللغز" إلى جانب دواوين شعره وقصائده، والتى اعتبرت بأنها ضد المرأة، أو بمعنى مباشر يمثل بعضها عداوة للمرأة. فإنه يدل دلالة واضحة على أن العقاد اهتم بها بعد أن فهمها. فلم تكن علاقته بها هى علاقة بحث ودرس. كعلاقة عالم يدرس "حالة فى معمل أو باحث عن "الحقيقة" فى بطون الكتب.. وإنما كانت هذه العلاقة هى نفسها علاقة المحب لها، العارف بفضلها عليه كأم له.. أورثته الكثير من الخصال الحميدة التى أوردها فى سيرته الذاتية "أنا" من حَسْم وعزم، من صمود وكبرياء".

ثم علاقته بالمرأة كصديقة وزوجة للمستقبل وهى نفس علاقة الشاك فى سلوكياتها، المكتوى بنيرانها، العاشق الذى عرف البكاء قلبه قبل أن يعرف عينيه، وعرفت الجروح كبرياءه قبل أن تعرف جسده، وشمل الألم أقطار نفسه قبل ان يعرف مواضع جسده.

لقد تعذب العقاد من جراء حبه للمرأة. حتى كأنه وقع عقدا بين قلبه وبين العذاب. فضاق بعشقها، وتألم من فراقها، وشقى بهجرها. بعد أن ذاق عذوبة القرب، وتجرع مرارة الحرمان.

يذكر صديقه وكاتم أسراره الشاعر محمد طاهر الجبلاوى بكتابه "من ذكرياتى فى صحبة العقاد" عبارة لا تخلو من دلالة حيث يقول: "كنت أسير مع العقاد ذات مرة عقب حفلة تكريم أقيمت له، فرأيت بعض الناس يشيرون إليه بالبنان مرددين اسمه. فلفته إلى ذلك ليتنبه فقال: "ألا يدرى هؤلاء الناس. أن الرجل الذى يشيرون إليه، ويرددون اسمه.. هو أشقى رجل فى الحياة".

ويعلق الجبلاوى فى نفس الكتاب قائلا: "وكانت قد ألمت به أزمة عاطفية أثارتها امرأة فاكتوى بنيرانها فترة من الزمن".

ومثل هذه الأزمات.. التى كانت تمر بالعقاد بين حين وآخر. جعلت بعض نقاد الأدب ودارسيه يربطون بينها وبين عنف موقفه من المرأة فى بعض الأحيان. مثلا لقد ربط تلميذه الأستاذ أنيس منصور بين حب العقاد لسارة وما أصابه بعد ذلك من جرح عميق وبين موقفه من المرأة حيث سجل بكتابه" يسقط الحائط الرابع" قائلا: "وسارة هى المسئولة عن كل ما أصاب المرأة من قلم العقاد فالعقاد كان يراها تافهة، عاشقة للقوة والشباب، كما يراها لا تقدر الرجل الحقيقى حق قدره وأنها - أى المرأة - ضيقة الأفق، حيث لا يتسع أفقها لأكثر من ثلاثة أو أربعة أشخاص هم: أبوها وزوجها وأخوها وابنها. فهذه هى الدنيا بالنسبة للمرأة.. إلى أن يقول: "ويرى العقاد أن حياة المرأة تتلخص فى سطر واحد: أنها تضع الأحمر والأبيض وتعرض نفسها فى الشارع أو النافذة انتظارا للرجل".

وقد يبالغ كاتبنا الكبير أنيس منصور فى وصف مواقف أستاذه العقاد من المرأة حيث يقول فى نفس الكتاب: "سارة هى المسئولة عن كل ما جاء على لسان العقاد من اتهام المرأة بالخيانة. فهو الذى قال: خنها.. خنها.. ولا تخلص لها أبدا.. تخلص إلى أغلى غواليها".

إلا أنه فى الجانب الآخر. نرى أن هذه الظروف العارضة لا تشكل عداوة من العقاد للمرأة بوجه عام. لأنه كان يصرح فى مناسبات كثيرة بأنه ليس هناك عداوة أو كراهية بينه وبين المرأة، ولعله كان حريصا على إعلان ذلك تبرئة لنفسه من هذا الاتهام، إنه مثلا يجيب على سؤال لمجلة آخر ساعة فى عددها الصادر بتاريخ ٥ يوليو ١٩٦١ هو: ما سر العداء التقليدى بينه وبين المرأة: "أبدا ليس هنا عداء.. المسألة أننى أضع المرأة فى مكانها الصحيح.. حسب فهمى لها. على ضوء إمكانياتها الطبيعية والنفسية".

ولعله كان صادقا فيما قال حيث يتفق ذلك مع الذى كتبه وقاله فى بداياته الفكرية. حيث كانت أراؤه لا تنبئ عن عداوة أو كراهية.

فهذا الموقف الذى أعلنه العقاد قبل وفاته بثلاث سنوات هو نفس موقفه الذى أعلنه فى بدايات حياته أو بالتحديد عام ١٩١٢. حيث طالب فى كتاب "خلاصة اليومية والشذور" بتعليمها، وتحريرها، كما اعترف بدورها فى الحياة. بأنه لا غنى عنها.

عن تعليمها مثلا يقول: "لا ينبغى أن يقتصر الغرض من تربية البنت على تعليمها كيف تكون زوجة إلا إذا كنا نعلم الفتى فى المدارس كيف يكون زوجا والواجب أن نعنى أولا بتعليمها ما تنشأ به كإمرأة قادرة على النهوض بنصف أعباء الهيئة الاجتماعية فإن العشرة الزوجية ليست حرفة يتلقى الطالب أسرارها فى دور التعليم، ولكنها عمل كسائر أعمال الحياة يحسنه الإنسان أو لا يحسنه بمقدار ما له من الخدمة والاختيار".

ويطالب بتحريرها فيقول: "أين هو الرجل الذى يفهم الحرية وهو يسكن إلى شريكة فى الحياة مستعبدة، وأين هو الرجل الذى ينعم بثمرة الحرية وهو وليد أمة مقيدة، وأين هو الرجل الذى تحيا نفسه وقد مات فيها الجانب الذى خلقت المرأة لتحييه"..

ويقول مؤكدا استقلال المرأة وبأنها كائن اجتماعى مساو للرجل فى الحقوق والواجبات: "لا أعلم لماذا يسوغ للرجل أن يستحوذ على أكثر من أربع نساء ولا يسوغ للمرأة أن تطمع فى أكثر من ربع رجل إن لم يكن أقل"..

إلى أن يقول موضحا مهمة المرأة ودورها فى الحياة: "إن أكثرنا يظن أن المرأة من متممات زينة البيت، فكما أن فى البيت متاعا وأثاثا من كل صنف. كذلك يحسن أن تكون فيه واحدة أو أكثر من صنف النساء، وإن بعضهم ليغير زوجته مراراً، ولا يغير ملاءة سريره.. المرأة لها دور فى الحياة أكبر من أن تكون كذلك".

فإذا كان هذا هو موقف العقاد فى عام ١٩٦١ أى قبل وفاته بثلاث سنوات، وموقفه فى عنفوان شبابه عام ١٩١٢ فما الذى جرى حتى نراه بين التاريخين يكتب كتابين عن المرأة أولهما عام ١٩٤٥ بعنوان" هذه الشجرة" وثانيهما عام ١٩٥٩ بعنوان "المرأة فى القرآن ويأتى فيهما بآراء يوصف بعدها بأنه عدو للمراة ليدخل فى معركة حامية تكون المرأة التى أحبها طرفا فيها؟ لعل سلوك المرأة حياله هو السبب المباشر.

ولنبدأ بهذه الآراء التى وردت فى هذين الكتابين. مع التأكيد على أن ما كان يقوله العقاد لم يخرج عن كونه فهما لطبيعة المرأة ونفسيتها لا أكثر ولا أقل كما كان يصرح دائما. وإن تطرف فى الحكم عليها. فمرجع ذلك عارض من العوارض التى سرعان ما يزول أثره بزوال هذا العارض وبقى موقفه هو نفسه موقف المحب العاشق للمرأة، الفاهم لطبيعتها وإمكانياتها. المدافع عن حقوقها المشروعة.

من هذه الآراء التى وردت فى الكتابين أنه يرى أن الإغراء والإغواء خصلتان من خصال الأنوثة. فيهما المرأة تتعرض وتنتظر، والرجل يطلب ويسعى والتعرض هو الخطوة الأولى فى طريق الإغراء فإن لم يكف فوراءه الإغواء. بالتنبيه والحيلة، والتوسل بالزينة، والإيحاء.. وكل هذا تحريك إرادة الرجل ثم الانتظار.

ويصل العقاد إلى نتيجة هامة هى أن إرادة المرأة تتحقق بأمرين:

النجاح فى أن تراد، والقدرة على الانتظار، ولهذا كانت إرادة المرأة سلبية فى

الشئون الجنسية على الأقل. إن لم نقل فى جميع الشئون. وكلمة (لا) سابقة لكل نية تمتحن بها المرأة إرادتها وصبرها.

كذلك يقرر العقاد أنه ليس للمرأة أن تريد غير هذا النوع من الإرادة السلبية. لأسباب عميقة فى أصول التركيب والتكوين.

وموقف الجنسين من الاستجابة لمطالب النوع يهدينا إلى حكمة هذا الفارق. فالذكور من جميع الحيوان قد أعطوا القدرة - بتركيبهم الجسدى - على إكراه الإناث للاستجابة لمطالب النوع طائعات مقسورات.

وحكمة الفارق بين الجنسية ظاهرة كل الظهور. لأنها هى الحكمة التى توافق بقاء النوع، وارتقاء الأفراد جيلا بعد جيل.. فالإغواء كاف للأنثى ولا حاجة بها إلى الإرادة القاسرة.

بل من العبث تزويد الأنثى بهذه الإرادة القاسرة التى تغلب بها الذكر عنوة. لأنها متى حملت كانت هذه الإرادة مضيعة طوال شهور الحمل بغير جدوى. على حين أن الذكر قادر إذا أدى مطالب النوع أن يؤديه مرارا. بلا عائق من التركيب والتكوين، وليس هذا فى حالة الأنثى بميسورعلى وجه من الوجوه.

ويؤكد العقاد أن إكراه الأنثى على تلبية إرادة الذكر لا يضير النوع. ولا يؤذى النسل، الذى ينشأ من ذكر قادرعلى الإكراه، وأنثى مزودة بفتنة الإغراء. فهنا تتم للزوجين أحسن الصفات الصالحة لإنجاب النسل. من قوة الأبوة، وجمال الأمومة. ويتم للنوع مقصد الطبيعة من غلبة الأقوياء القادرين على ضمان نسلهم فى ميدان التنافس والبقاء. وعلى العكس.. لو أعطيت الأنثى القدرة على الإرادة والإكراه.. لكان من جراء ذلك أن يضمحل النوع ويضار النسل. لأنه قد ينشأ فى هذه الحالة من أضعف الذكور الذين ينهزمون أمام الإناث.

وليس العدل مفقودا فى هذا التوزيع. الإرادة والقوة للذكور، والإغراء والتلبية للإناث. ولنضرب مثلا بأشهر الحمل التى - قيل - إنها جنت على المرأة حين خصتها بالألم. وجعلت الإرادة من نصيب الرجل حتى فى هذه الحالة نجد هناك عدلا طبيعيا.

فقد أتاح لها الحمل مزية فطرية لا تتاح لزوجها بأى حال من الأحوال وهى ضمان نسلها بغير دخل أو شك فكل من ولدت المرأة.. فهو وليدها الذى يستحق عطفها وحنانها وليس ذلك شأن الآباء فيمن بنسب إليهم من الأبناء.

وعلى هذا يعتز الرجل بأن يريد المرأة – ولا تعتز المرأة بأنها تريد الرجل. ويحدد العقاد أدوات إغراء المرأة وإغوائها. فيرى أن الأداة البالغة هى على الرياء والتظاهر بغير ما تخفيه. فهذه الخصلة قد تسمو بها حتى تبلغ رتبة الصبر الجميل، والقدرة على ضبط الشعور، وفعالية الأهواء، وقد تسفل حتى تعافها النفوس، كما تعاف أقبح الختل والنفاق.

فمن أسباب القدرة على الرياء أو القدرة على ضبط الشعور. أن المرأة رضيت زمنا على إخفاء حبها وبغضها، لأنها تخفى الحب أنفة من المفاتحة به والسبق إليه وهى التى خلقت لتتمنع وهى راغبة. وتخفى البغض لأنها محتاجة إلى المداراة احتياج كل ضعيف إلى مداراة الأقوياء.

ومن أسبابها أن الأنوثة. دائما فى موقف الانتظار فليس من شأن رغباتها أن تسرع إلى الظهور والتعبير.

ومنها أيضا أن اصطناع لكل ظاهر يحس بالإبصار والأسماع، أو يحس بالضمائر والأفهام.. على اعتبار أن الزينة التى تعنى التجميل تفيد فى اللغة معنى التربية لمرأى النفوس.

وبعد أن يفرق العقاد بين الجمال والجنس، يرى أن جسم المرأة تابع وليس بالجسم المستقل ففيه الثديان اللذان يتغذى منهما الطفل، وفيه الرحم الذى يحمل الجنين وفيه طبقة دهنية تحت البشرة مفضلة فى جسم المرأة لحماية الجنين على الأقل. ويقرر أن هذه التبعية واجبة فى ملاحظة جسم المرأة والحكم عليه.

وشعور المرأة بالجمال – فى رأى العقاد محدود، وقد تكون تابعة فيه أو خاضعة للإيحاء والشهرة سواء من الجماعات أو الأفراد. هذا الشعور لم يبلغ مرتبة الإبداع والتفنن والخلق التى بلغها الرجل فيندر جدا فى النساء من تبدع فى فن من الفنون سواء

كان الشعر أو التصوير أو الموسيقى أو التمثيل أو الرقص. مع أن هذه الفنون أقرب للمرأة وأنسب لطبيعتها.

وأن المرأة لا تبدع فى فن من الفنون وإن طال عمرها فيه كالطهى والخياطة والتزين والتجميل فالرجل دائما متفوق. وحتى البكاء والنواح والرثاء والحداد على الأموات وهو من خصال المرأة ومع ذلك لم تتفوق بقصيدة واحدة فى الرثاء ولم يقدم لنا تاريخ الأدب شاعرة متفوقة على الرجل فى فن الرثاء.

ومن السخف أن يقال إن المرأة قد تخلفت عن الرجل فى هذا المجال أو ذاك، لأن الرجل قد حجر عليها وقيدها بما يرضى هواه، دون ما يرضى ملكاتها وأذواقها.

بل ويرى أن حجر الرجل على المرأة هو نفسه دليل على نقصها فى القدرة البدنية والقدرة الذهنية، وأنها بالقياس إليه فى المرتبة التالية على كل حال.

وللمرأة عادات وشعائر وأحكام تساير الغريزة الجنسية عندها.

ويضرب العقاد على ذلك أمثلة منها: منذ القدم أمر الدين المرأة بالصيام فى موسم من مواسمه المعروفة. فلم تصبر عليه كما صبر الرجل. ولم تزل تراوغ حكم الدين وهى فى سن الشباب. إلى أن يتحافاها الجمال ويعرض عنها الرجال. إلا أن المرأة الحديثة تتجشم من الصوم ما لم يتجشمه كثير من النساء لإعجاب الأعين، واجتذاب الأهواء حيث تتجنب الطعام اللذيذ والشراب الشهى، لتجتنب السمنة التى يعافها الرجل فى هذا الزمن.

ومثل آخر فى الصلوات التى تتنصل منها ما استطاعت، مع أنها شئ هين بالقياس إلى حركات الرياضة والتدليك ومتاعب الكساء الضّيق والتزويق. ولكنها لا تثقل عليها كما تثقل الصلاة: إذ كان وراء هذه المتاعب جزاؤها السريع من نظرة إعجاب أو كلمة إطراء من الرجل!

والعقاد يرى أن التناقض خصلة من خصال المرأة. لأنه ملازم لأنوثتها، حتى فى ألزم لوازمها وهما الأمومة والحب بشتى معانيه، فاللذة والألم - كما نعلم نقيضان فى أى

كائن حى. ولكنهما يتماشيان معا فى إحساس المرأة. فتجمع بينهما اضطرارا من حيث تزيد أو من حيث لا تزيد.

فأسعد ساعات المرأة هى الساعة التى تتحقق فيها أنوثتها الخالدة وتلك ساعة الولادة. فى تلك الساعة يغمرها فرح لا يوصف ومع هذا هى أشد ساعات الآلام والأوجاع فى جسد الأم الطريح بين الحياة والموت.

وأسعد ساعاتها أيضا - هى ساعة التسليم والخضوع للرجل الذى تحبه. والشعور بالخضوع والتسليم مؤلم مذل لأى كائن حى. ولكن المرأة هى الكائن الحى الوحيد الذى يسعد بهذا التسليم وذلك الخضوع لأنه يحقق أنوثتها.

العقاد هنا يقرر أن المرأة بين نقيضين فى أمومتها، وفى حبها وذلك هو التناقض الذى لا حيلة لها فيه، ويذكر أنه من الخطأ الفادح أن نتصور أن هذا التناقض من دهاء المرأة وتدبيرها أو من ختلها وخداعها. فهى مخدوعة به قبل أن تخدع سواها، وهى فى قبضته - أى التناقض - فريسة لا تملك ما تريد.

ويذهب العقاد بعد تحليل مدهش إلى أنه عند المرأة حالتان تضاعفان من ظهور التناقض. إحدى هاتين الحالتين طبيعة المراوغة التى وصفن بها. إذ يتمنعن وهن الراغبات والأخرى هى طبيعة الاستغراق فى الساعة التى هى فيها، ونسيان ما قبلها وما بعدها. فيبلغ العجب أشده بمن يراقبها، أن يراها تنتقل بين أطوارها كما ينتقل الممثل بين أدواره ولا يخلط بينها أولا يستبقى من سوابقها بقية فى تواليها.

وينتقل العقاد إلى دراسة حب المرأة فيرى أنه يجتمع فيه كل ما تفرق من نقائضها وأسرار خلقها. لأن الحب هو محور الوظائف الجنسية التى خلقت فيها نقائضها وأسرارها. ومما يضاعف نقائض الحب أن للمرأة فيه. نماذج كثيرة حسب الطبيعة الغالبة عليها من طبائع الأنوثة: فليس حب المرأة المشغولة بالزوجية، أو حب المرأة المشغولة بالعشق وعلاقاته أو المرأة المشغولة بالمتعة الحيوانية أو المشغولة باللعب والعبث والتصدى لكل من تلقاه من الرجال.

ومع أن السمة العامة فى الحب هى التوحد والاكتفاء بمحبوب واحد: إلا أن المرأة

قد تشعر بالحاجة إلى حب رجلين متناقضين فى آن واحد. أحدهما تكبره وتكبر نفسها إذا علمت أنها كبيرة فى نظره، والآخر تصغره ولا تبالى أن تكشف له صغائرها وتطلعه على مذلاتها، وتستريح إلى محادثته لأنه من غير جنسها.

ثم ينتقل العقاد إلى أخلاق المرأة فيرى أن المقياس الذى يرجع إليه فى التمييز بين أخلاق الرجال وأخلاق النساء هو إما "فردى روحى" أو "نوعى جسدى" ويتبين له أن كل ما هو فردى روحى أو اختيارى إرادى هو أقرب إلى أخلاق الرجال وكل ما هو نوعى جسدى أو إجبارى لا إرادى هو أقرب إلى أخلاق النساء. الأول مداره وحى الفهم والضمير عند الرجل والثانى مداره الغريزة الجنسية عند المرأة.

عامل الأخلاق الأول عند المرأة هو الاحتجاز الجنسى وهو من الغريزة الجنسية التى تتساوى فيها إناث الحيوان وليس من الإرادة التى يتميز بها نوع الإنسان.

المرأة تستعصم بالاحتجاز الجنسى لأن الطبيعة قد جعلتها جائزة للسابق المفضل من الذكور تنتظر من يسبق إليها فتلبيه تلبية يتساوى فيها الإجبار والاختيار.

كذلك تصنع إناث الدجاج وهى تنتظر مشيئتها بغير صراع، وكما تصنع القطة وهى تتعرض للقط وتعدو أمامه ليلحق بها، والعصفورة وهى تفر من فرع إلى فرع ليدركها العصفور وكما تصنع الكلبة والفرس والأتانة - أى الحمارة - وهى مضطرة إلى الاحتجاز الجنسى لأنه الحكم الظاهر الذى فرضته عليها وظائف الأعضاء.

والخلاف واسع بين الاحتجاز الجنسى وبين فضيلة الحياء عند المرأة. فمتى بلغ هذا الاحتجاز مبلغه الذى قصدت إليه الطبيعة فقد بلغت الأخلاق الأنثوية غايتها ولم يبق فيها ما يتصل بالحياء فى صورته ولا فى معناه.

وفى هذا الصدد يذكر أنه من ضلال الفهم أن يخطر على البال أن الحياء صفة من صفات المرأة وأن النساء أشد حياء من الرجال. وينقل ملاحظة شوبنهاور التى يقول إن المرأة لا تعرف الحياء بمعزل عن تلك الغريزة العامة. وأن الرجال يستحون حيث لا

تستحى النساء فيستتر الرجل أمام الرجل، ولا تستتر المرأة مع المرأة. فلا تغطى عريها إلا لعيب جسدى تريد إخفاءه.

ويذكر العقاد أيضا - فى مجال أخلاق المرأة - أن الغرائز المختلفة التى تقلل محاسن المرأة تقلل أيضا نقائضها التى تعاب عليها. من بعض جهاتها. وقد لخصها المتنبى حيث قال: "فمن عهدها ألا يدوم لها عهد" ويتفق العقاد مع هذا الرأى فيرى المرأة تتقلب وتراوغ وترائى وتكذب وتخون وتميل مع الهوى وتنسى فى لحظة واحدة عشرات السنين الطوال.

وعن المساواة بين الرجل والمرأة يتساءل العقاد: وهل تفيدها هذه المساواة الفائدة التى تساوى فائدة الشمائل البيئية إذا توفرت لها؟ ثم أليس من الظلم للرجل ألا تكون له مزية وهو أقدر عليها من المرأة كيفما تقلبت الآراء؟

إن من ظلم الرجل ألا تكون رقابته على المرأة أوفى وأكبر من رقابة المرأة عليه لأنها إذا فرطت فى حقوقه ألحقت به نسلا غير نسله وهو إذا فرط فى حقوقها لم يلحق بها نسلا غير نسلها، و لم يخالف بذلك قوام خلقه الأصيل فى جميع الذكور، فإن الذكر يؤدى فريضة نوعية لا تؤديها المرأة إذا اتصلت بأكثر من ذكر واحد اللهم إلا أن تكون شهوة خائنة أو تحللا من الأخلاق.

هذه الآراء وغيرها تضمنتها صفحات كتابيه عن المرأة "هذه الشجرة" و "المرأة فى القرآن الكريم" وطبيعى أن تلقى ردود أفعال كثيرة مضادة بالطبع خاصة من النساء حيث استوقفت بعض هذه الفقرات الدكتورة بنت الشاطئ عام ١٩٦٠ حيث أرادت أن تدفع كل هذه التهم أو بعضها عن بنات جنسها فكتبت بالأهرام وصرحت للصحافة قائلة: أنا لا يعنينى شئ فى رأى الأستاذ العقاد.. بل سلمت بما قاله فى استئثار الرجل بالتفوق والبراعة فى الفنون التى يظن أنها أنثوية كأستاذية الرقص وأشباهها. كل الذى يثيرنى هو اتهامه للمرأة بالقذارة، وأنها لولا إشراف الرجل عليها لما فكرت فى النظافة، وأنه ينعى عليها أصالة الحياء والحنان".

قالت ذلك بعد أن هبت العاصفة، وهبوب العاصفة حيث يرد العقاد. فتتبع

تصريحها بمقال آخر بالأهرام تحت عنوان "اللهم إنى صائمة" فيه عبرت عن غضبها وغضب الباقيات من بنات جنسها المشهورات. لكن قبل أن نتعرض لرد العقاد على الدكتورة بنت الشاطئ نتساءل وأين كان موقف الأخريات وخاصة المشهورات من اتهامات تمس المرأة عامة؟

يبدو أن المرأة أصيبت بعقدة اسمها العقاد فى هذه المعركة التى تولت الدفاع فيها عن المرأة الدكتورة بنت الشاطئ وهذه العقدة جعلت أغلب المشهورات يحجمن عن الرد!؟

مثلا الدكتورة سهير القلماوى يتضح موقفها من حديثها مع الدكتورة بنت الشاطئ "عائشة عبد الرحمن" حيث تقول لها: يا عائشة خليك بعيد أسلم.

أمينة السعيد رئيسة تحرير حواء.. تعتذر بشدة عن الرد.

الدكتورة لطيفة الزيات تعد بالرد بعد يومين.. لكن بعد اليومين تنسحب قائلة: معليهش أنا والنبى.. أصل العقاد.." ولا تكمل.

الأديبة صوفى عبد الله تهرب من الرد حيث تقول إنها عرضت من قبل ما قاله أستاذها العقاد عن المرأة فى كتاب "هذه الشجرة" ومع احترامى الشديد لأستاذى الكبير لم أزل عند رأيي. وهو لا يمكن القطع بوجه عام على الجنس بأكمله.. وكفاية بقى"..

الإذاعية آمال فهمى تعلن أنها ستكتب "حتة رد" لأنها قرأت الكتاب وقالت ده القرآن بيقول" "وللرجال عليهن درجة" إلا أن العقاد عملهم ألف درجة" ثم تقول "على فكرة اتصلوا بى بكرة فسوف أعد هذا الرد" بالطبع بكرة لم يأت فقد اختفت آمال فهمى فى ظروف غامضة حتى لا ترد على العقاد.

وحتى فاتن حمامة وعدت بأنها ستقرأ الكتاب بعناية واهتمام لأنها لازم ترد فهذا كلام لا يحسن السكوت عليه، لكن عند الرد تقول فاتن حمامة: "لا يا خويا.. أكتب فى موضوع ثانٍ أصل العقاد لسانه طويل!"

ولبنى عبد العزيز توصد أبواب كثيرة متحفظة وتبدأ ردها قائلة اعذرونى أنا لم أقرأ

الكتاب "ولكنها تتساءل من منطلق متابعتها للمعركة الدائرة حول الكتاب: لماذا يحكم العقاد بتفوق الرجل على المرأة؟ ولماذا يعتقد أن الجولة قد انتهت لصالح الرجل؟ ولماذا لا ينتظر العقاد عشرين قرنا ويحكم بعدها من هو المخلوق المتفوق الرجل أم المرأة؟

الكل يهرب من الرد على العقاد. ولا يبقى فى الميدان سوى الدكتورة بنت الشاطئ وطبيعى أن يكون للكل الحق كل الحق. فليس الرد على العقاد بالأمر السهل خاصة وأن تعقيباته وتعليقاته كانت حادة وعنيفة إلى جانب أنه متمكن مما يكتب ويقول ويكفى أن نورد هنا عبارتين من ردود العقاد على الدكتورة بنت الشاطئ لنرى إلى أى مدى كان أسلوبه حادا لاذعا مثلا يقول متهكما وما علاقة كاتبة المقال - أى بنت الشاطئ بما أكتبه عن المرأة، لا أضعها فى عالم النساء ولا فى عالم الرجال وأنها مثله الوحيد على تناقض المرأة.

ويقول إننى أعجب من دفاع امرأة هى ثالثة ثلاث فى الترتيب عند الرجل الزوج بالنسبة إلى بنات جنسها.. كيف تسمح لنفسها بالدفاع عن المرأة مشيرا بالطبع إلى أنها الزوجة الثالثة لزوجها الشيخ أمين الخولى!

أو يقول عنها: إن السيدة - ولا يذكر اسمها - تستند إلى قول رجل مبشر أعجمى لتتخذ منه حجة فى اللغة والدين وكلاهما بمنزلة واحدة من العلم بما يكتبان إلى أن يقول: "ولعل الست مفسرة القرآن لم تنس هذا التفسير وهى تستمد العلم الغزير من الأب "لا منسى" وإخوانه وشركاؤه العارفين باللغة والكتاب الكريم". وطبيعى أن تلوذ الدكتورة بنت الشاطئ بالصمت ويلتزم كل جماعتها وشيعتها من الأمناء السكوت.

هذه مواقف كانت تنبع عن فهم طبيعة تكوين المرأة إلا أن هذا الفهم لم يؤثر فى تقديره لها كأم، وحبه لها كإنسانة فالذى يرجع إلى كتبه ودواوينه يقتنع بأن العقاد لم يكن أبدا عدوا للمرأة. بل على العكس لقد أحبها فى صورة الأديبة مىّ زيادة. مع علمه بأن فى حياتها جمعا من الرجال، هذا يعرض عليها إخوته وذلك صداقته والثالث

أبويته. كان يعرف ذلك ولكنه لم يتردد فى حبها فصارحها بحبه علنا، وصارحته بحبها تلميحا ورسائلهما خير شاهد لما يكتبه محبان كل إلى الآخر. وأرخ لها فى روايته الوحيدة سارة باسم هند".

وأحب العقاد "أَليس داغر قريبة المنتجة السينمائية آسيا" أو "سارة" كما كان اسمها فى روايته "سارة" واكتوى بنيران الشك الذى كاد أن يفقده عقله إلى أن عرف الحقيقة وبأنها لم تكن مخلصة له كما كان هو مخلصا لها.

و لم تضع قصته مع سارة حدا لحبه للمرأة.. فقد أحب وهو فى الخمسين من عمره. والحب فى مثل هذا العمر قاس، خاصة ولو كان طرفه العقاد. لقد جعله هذا الحب يقف وراء الباب والنافذة منتظرًا الممثلة السمراء الشابة مستكثرا على نفسه أن يتابع خطوات أقدامها على السلالم واحدة بعد أخرى. وعطرها الرخيص يسبقها إلى أنفه، كما يستكبر على نفسه أن يقف خلف النافذة ليطالع قدومها من بعيد فى أول الشارع.

صحيح أنها أحبت العقاد بجنون ولكن أصدقاءه وتلاميذه كانوا يخشون على قلبه من شبابها.. خاصة وأنها كانت لا تعرف قيمة العقاد ولا تعرف ما الذى قد يصيبه منها.

وكان اسم هذه الممثلة السمراء "هنومة" أو مديحة يسرى فيما بعد. و لم يتوقف قلب العقاد عن النبض حبا بعد الستين لقد عرف هذا القلب حب الكثيرات منهن قصاصات وشاعرتين وباحثه وكاتبة إسلامية وغيرهن وكلهن يذكرن العقاد كأستاذ وكأب وصديق يعرف ما للعلاقات الإنسانية من التزامات. وكلهن بكين عليه يوم وفاته.

لو لم يكن العقاد قد وقع فى حب الأديبة مىّ زيادة.. لتمنى أن يقع فى حبها. وذلك لأن سمات روحها وملامح تفكيرها ومكانتها الاجتماعية. كلها أمور تروق للعقاد وتستهويه.

لقد قال عنها عند الاعتراف بحبها: كانت مثقفة قوية الحجة، تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية، كما أن فيها بعض صفات الرجال من حيث أنها جليسة عمل وفن وأدب. وزميلة فى حياة الفكر.. أى أن اهتمامها كان موزعا بين العلم والأنوثة..

لقد عرف العقاد الطريق إلى صالونها الأدبى وعمره لا يزيد على السابعة والعشرين بينما كان عمرها يومذاك يقترب من الحادية والعشرين. وهناك التقى بنجوم الفكر والسياسة والصحافة.. التقى بأحمد لطفى السيد وعبد العزيز فهمى. وانطون الجميل، وشبلى شميل، وخليل مطران، ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم.

و لم يكن العقاد يختلف عن هؤلاء فى فن المغازلة.. فهو يحادثها ويرسل إليها الخطابات إذا رحل عن القاهرة ثم يلتقى بها فلا يرى منها ما يدل على وصول خطاباته أو ما يدل على أنه صنع شيئا فيضطر إلى مغازلتها.. فتقابل غزله بإيماءة من أصابعها. وينظر إلى عينيها الجميلتين، ويطيل النظر إليها فتزداد حيرته لأنه لا يدرى إن كانت تستزيده أم تنهاه.. ويعيد ما فعله مرة أخرى فلا يزيد الأمر عن أن يقف حائرا بينه وبين نفسه لأنه لا يرى من محبوبته ما ينم عن استياء.

وهكذا استمر المحبان يتناولان من الحب كل ما يتناوله العاشقان على مسرح التمثيل ولا يزيدان..!

ويعترف العقاد فى حديث له مع الأديبة جاذبية صدقى نشرته بمجلة القلم

السودانية أنه كان يستخدم مع مىّ - إذا ما تشاجرا طريقة واحدة لا يغيرها! حتى تجئ إليه هارعة راكعة هى نفسها تستسمحه وتبدؤه الحديث: ويذوب الخصام بينهما. كأن ينشر مقالا ملتهبا ثوريا يهاجم فيه الحكومة القائمة فى اندفاع وتهور فتخشى عليه (مىّ) من الاعتقال أو السجن فتهرع إليه وترتمى عند ركبته تقبل يده ضارعة وتستحلفه بالله أن يكف عن إيذاء نفسه... وهنا يكف عن مهاجمة الحكومة ويضيف العقاد فى حديثه: وكم مرة ظلمت حكومات صدقى ونسيم وثروت لا لشئ إلا لكى ينتهى خصامنا.

ولقد نالت مىّ زيادة حجما محترما من اهتمام العقاد حيث حرص على ذكرها مرات فى كتاباته. وسجل قصته معها كاملة فى روايته سارة، حيث اختار لها اسم "هند" واستمع إليه حين يعقد مقارنة بينها وبين سارة حيث يقول: "حقا لا تخرج عن نطاق جنسها غير أنهما من التباين والتنافر..".

فإذا كانت سارة قد خلقت وثنية فى ساحة الطبيعة، فهند قد خلقت راهبة فى دير من غير حاجة إلى الدير".

والحق أن مىّ كانت تحبه حبا شديداً. وكانت تثق فيه ثقة متناهية، ولم تكن تعلم بحبه لسارة وإنما كانت تزعم بينها وبين نفسها أنه معزول عن عالم النساء ما دام اسمهن "نساء" لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة وشبح غرام واحد. فلما شعرت بأنه يحب امرأة أخرى.. وكان هذا الحب قبل أن تقع هى فى حبه. زارته فى مكتبه وكانت هى الزيارة الأولى والأخيرة وقالت والدموع تنحدر من عينيها، فما تمالك نفسه والتقط يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها فمانعته ولكن لم تكف عن النظر إليه، ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة وهى تتمتم هامسة.. دع يدى ودعنى.

وكانت هذه العبارة.. بمثابة النهاية الحزينة لأحلى قصة حب بين مفكر عملاق.. وأديبة فنانة.. مفكر قال عنها وعن ندواتها:

لو جمعت الأحاديث التى دارت فى ندوة مىّ. لتألفت منها مكتبة عصرية، تقابل مكتبة العقد الفريد أو مكتبة الأغانى فى الثقافة العربية الإسلامية فى المشرق والمغرب.

سارة هى العمل الروائى الوحيد لعملاق الفكر العربى عباس محمود العقاد.. أو هذه المرأة فى الحياة الواقعية التى خلدها العقاد فى أشعاره التى تذيب الصخر، أو فى روايته الوحيدة والأكثر هى بعينها المرأة التى عرف بسببها البكاء قلبه قبل أن تعرفه عيناه، وعرفت الجروح كبرياءه قبل أن يعرفها جسده، وأدركت الآلام أقطار نفسه قبل أن تعرفها مواضع جسده كما قلنا من قبل فى فصل العقاد والمرأة.

سارة فى "الأدب" أو هذه المرأة فى الحياة التى غيرت نظرة العقاد للمرأة حينا من الزمن. فقال بسببها عن المرأة مخاطبا الرجل: "خنها ولا تخلص لها أبدا.. تخلص إلى أغلى غواليها" وقال عن بنات جنسها: "المرأة تضع الأحمر والأبيض وتعرض نفسها فى الشارع أو النافذة انتظارا للرجل".

سارة أو هذه المرأة فى حياة العقاد التى خلدها فى تاريخ الأدب حتى أصبحت من الشخصيات الأدبية المعروفة.. هذه الشخصية فى الحقيقة أو فى الخيال نشرت عنها فى "الأهرام الأدبى" عام ١٩٩٣ اليوم حولها وثيقة نادرة كتبها العقاد بخط يده عام ١٩٢٦ تعتبر فصلا شاردا من فصول رواية "سارة".. فالقارئ لهذه الوثيقة لا يكاد يمضى فى قراءتها حتى يجد نفسه فجأة فى جو رواية "سارة" التى كتبها العقاد عام ١٩٣٨، هذه الوثيقة النادرة التى عمرها عشرات السنين، والتى تنشر لأول مرة، عثر عليها واحد من أقدم تلاميذ وأصدقاء العقاد، هو الأديب والمحقق الكبير محمد محمود حمدان.. الذى عرفناه محققا وشارحا ومقدما لأمهات كتب التراث العربى القديم وفى مقدمتها مجلدات "تاريخ الإسلام" للذهبى، و "أوجز السير لخير البشر" للرازى، حيث خصنى مشكورا بهذه الوثيقة وتحقيقها العلمى وهى مادة تنشر لأول مرة فى تاريخ أدبنا العربى. كما يقول مكتشف الوثيقة الأستاذ محمد محمود حمدان.

الوثيقة تستأنف حديثا جرى وتستكمل وقائع ختام رواية سارة للأستاذ العقاد وفى الفصل الذى اختار له عنوان "القطيعة" وصف العقاد فى تعبير فاجع مؤثر مشهد الوداع الأخير بين همام بطل القصة وهو العقاد على التحقيق وبين صاحبته سارة على أثر اكتشافه خيانتها له، وما كان من تواعدهما على اللقاء الأخير فى مفترق الطرق.

يقول العقاد فى وصف الحالة النفسية التى استولت عليه عقب ذلك اللقاء: "لو كان همام فى غير ذلك الموقف لتذكر وقال وتدبر، تذكر مفترق الطريق فى هذا المساء وقارن بين لقاء قلما يضن فيه بشئ، ولقاء قلما يجاد فيه بسلام الوداع الأخير. ولكنه كان مغمور الفؤاد فى جو من الغم واليأس كجو الضباب الكثيف..".

وفى غمرة تلك الأزمة النفسية اللاعجة سافر العقاد إلى الإسكندرية يلتمس هدوء الراحة ويحدوه الأمر فى أن يواتيه السلوان، ويغرق فى أمواج البحر الخضم لواعجه وأشجانه ومن هناك كتب رسالة إلى صديقه عبد الرحمن صدقى أو "العشير القديم" الذى أشار إليه العقاد فيما بعد فى سياق الرواية.. هذه الرسالة تبدو كأنما تستأنف حديثا جرى بينهما قبل أيام، وتستكمل رواية وقائع ذلك اليوم العاصف الذى شهد ختام قصة الحب بين سارة والعقاد.

وهذه الرسالة التى كتبها العقاد فى سنة ١٩٢٦، وقمت بنشرها فى الأهرام لأول مرة فى ١٩٩٣/٧/٢٧، تكاد تكون فى جملتها وتفصيلها، بل وفى ألفاظها ومعانيها فصلا شارداً من فصول "سارة" كما طالعها القراء عند صدور طبعتها الأولى عام ١٩٣٨ ولم يكن فارق عشر سنوات على الأقل بين كتابة هذه الرسالة، وكتابة القصة بمانع من أن يظل توهج العاطفة وتدفق الإحساس على درجة واحدة فى كلا العملين، مما يؤكد عمق تلك التجربة النفسية فى حياة العقاد وقوة تغلغلها فى حسِّه ووجدانه.

أما لماذا آثر العقاد صديقه عبد الرحمن صدقى بهذه الرسالة فذلك لأنه كان هو "العشير القديم" فيما بعد فى سياق الرواية، والذى دعاه ليكون معه فى بيته فى ذلك

اليوم، وكان يعلم - كما تقول الرواية - أين ذهب العقاد ومن أين عاد؟ وأنه لما رأى سكوت العقاد وعزوفه عن الحديث قال له - فى الرواية - يمازحه ويسليه: "علام أنت آسف يا صاح؟ هل تركت فيها من بقية وطر تشتهيها؟ هل عندها من متعة لم تستوف شبعك منها؟ فما بالك تأسى وتكتئب وقد أراحك الله من رفاقها بعد أن نعمت بروحها ولبابها..".

ولم يسترح العقاد إلى هذا العزاء، بل رآه نقيض العزاء.. حيث قال فى الرواية: "إنما يعزيك الزميل الذى تحسه قريبا منك بشعور مثل شعورك، ولقد يغنيك من عزائه إحساسك بقربه ساعتئذ وهو صامت واجم دون كلام ولا إيماء..".

وهذا هو نص الرسالة:

عزيزى عبد الرحمن:

أكتب إليك هذا على شاطئ البحر فى رمل الإسكندرية، والجو صحو" والسماء صافية، والضياء يغمر الآفاق، والهواء بليل لا هو بالرطب الكثيف، ولا هو بالدافئ المرهق. وفى نفسى علامة حسنة تبشر بالخير فإننى لا أشعر الآن فى وحدتى بذلك المكان الخالى الذى أفتأ أحمله معى حيثما ذهبت، وأريد أن أملأه بمن كانوا يملأون فى كل حين.

أصبحت يوم الأحد على مناوشات صبيانية من قبيل ما تعلم: "وقفه خلف الباب تتسمع.. ثم خطرة عند النافذة تتراءى لى بالقميص الذى تعرف أننى أحب أن أراها فيه. ثم ذهاب وجيئة وحركة وابتدار فى غير طائل.. ثم استدعاء للخادم مرة بعد أخرى فى غير موجب.. فتجاهلت هذا وأعرضت عنه مخلصا فى الإعراض وخرجت مترفعا ألتمس هدوء الراحة فى الأمل الذى قدرته فى الإسكندرية ولكنى ما كدت أستقر فى القطار حتى فأجاتنى خيبة أمل لاذعة، وآذنت الرحلة بالفشل من أول خطوة، فهممت والله بالرجوع لولا أننى أعلم أننى لن أعود فى القاهرة إلى خير مما أقصده فى الإسكندرية، جلست فى مثل مجلسنا بالقطار يوم القناطر الخيرية والحجرة مغلقة علينا.. فما لمحت لى هذه الذكرى واستعرضت يومها فى مثل خطف البرق

لحظة لحظة، حتى شعرت بتلك الحديدة المحماة التى تتعقبنى فى العهد الأخير تكوى فى صميم النفس كيها المختنق المكظوم. لا منفس له ولا مهرب منه... وأردت أن أضحك من نفسى، وأن أرفه الألم بالسخرية فقلت: بل أضحك من شياطين جهنم فذلك أبر بالنفس وأعدل فى شرعة الانتقام!..

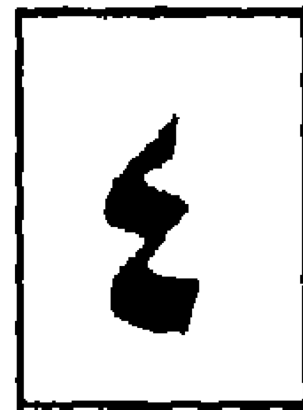
أتحدى شياطين جهنم جميعاً أن تزيد أنفس المعذبين عندها ذرة من العذاب فوق ما أشعر به فى تلك الساعة .. وأقعد حيث أنا ساخر منها متهافت عليها لأنها لا تستطيع! وكأننى استرحت إلى هذا الخاطر، أو كأنما سرت إلى عدوى القطار الذى لا يلوى على شئ، فمررت بهذه الذكرى إلى غيرها. وجعلت أنظر إلى ما حولى غير واقف عند منظر ولا متريث عند فكرة. وما بلغت طنطا حتى كنت قد ظفرت باكتشاف جديد سبحان الله! هذه دنيا واسعة خارج دنيا تطلع عليها الشمس ولا تبالى نظرات من تنظر، ومن لا تنظر من النساء. فكيف نسيت هذه الدنيا ولم استبق لها لفتة عين منى ولا فضلة إحساس؟ وما كدت أسترسل مع هذه السلوى حتى تحرك شيطان الوساوس يتهيأ بهواجس التنغيص والتكدير، ورقى إلى بسؤال يمتحن به صلابة تلك السلوى: أو كنت تبالى أن تبعد عنك هذه الدنيا كما تبالى الآن أن تبعد عنك أهون لمسة من يد امرأة واحدة بين نساء العالمين؟ فلم المغالطة فى الصبر والكذب على العزاء؟ والحق أننى رأيت بعد ذلك أننى لم أغالط نفسى، ولم أكذب على العزاء إذ لو أننى فقدت ضوء الشمس كما فقدت تلك اللمسة من يد تلك المرأة لتلهفت على شجرة واحدة أراها فى العراء تحت قبة السماء كلهفتى الآن على أحب ما أشتاق من ذلك النعيم المفقود. فليست العزة وقفا على ذلك النعيم المفقود ولكنها حظ مباح لكل ممنوع مزءود.. والزهرة التى يريدها السجين على شجرتها ولا تطول إليها يده.. هى أعز عليه من كل ما فى الأرض من النساء وغير النساء، وهنا عدت إلى فكرتى فى الحرية وعلمت مرة أخرى أننا إنما نأسى على أى شئ من الأشياء وأى حظ من الجمال.

وهذا البحر الذى أراه ممتداً أمامى فى سعة مطمئنة وعمق رصين.. هذا البحر القوى الكبير أطالبه بامر هين وأحسبه يخجل من عجزه عن تلبية هذا الطلب الصغير..

أقول يا شيخ.. أنت تغرق عشرين قطراً كاملاً بما فيها من الرجال والنساء والعاشقين والأعداء ثم تطويهم فى ضميرك لا يبين منهم إلا فقاقيع لا تثبت على مس الهواء. أفيعجزك أن تغرق فى جوفك هذا اللاعج اللئيم الذى جئتك به من القاهرة ألقيه إليك؟ وأخاله سيستحى على طوله وعرضه فلا أعود إلى القاهرة إلا وقد شيعت ذلك الغريق وأمنت من ملاحقة أطيافه التى لا تطاق.

هذه حالتى الآن بين ما أزود به النفس من دواعى العزاء وبين ما تثيره من الهواجس من الألم اللجوج، والخواطر السود، وسنرى إن لم أكن قد رأيت إلى الآن ما فيه بلاغ.

١٩٢٦/٤/١٢. عباس محمود العقاد.



رابعا : العقاد وهذه الموضوعات

- شعر أمير الشعراء أحمد شوقى
- فلسفة ثورة ٢٣ يوليو
- الفكر العالمى
- الدلالة الأدبية لجائزة نوبل العالمية
- الفنون

(الشعرية – المسرحية – السينمائية التشكيلية)

اتسمت حياة العقاد من أولها إلى آخرها بخوض العديد من المعارك، حتى كانت الخمسة والسبعين عاماً التى عاشها تكاد تكون فى معركة دائمة.. وكانت معركته مع أمير الشعراء أحمد شوقى واحدة من هذه المعارك التى أفادت الأدب والنقد. حين قدمت نظرة جديدة لهما. فى إطار مدرسة فكرية هى الديوان. التى لم يقتصر تأثيرها على شعر شوقى بل امتد إلى الأدب والدراسة فيه والقصة. والنقد حين وضعت له موازين جديدة.

وفى البدء يمكن القول بأن كبرى نتائج هذه المعركة هى ظهور معالم مدرسة الديوان بما تنطوى عليه من أصول ومبادئ هى فى مجملها استحداث لقيم ثقافية جديدة أفادت الثقافة العربية إلى حد كبير. صحيح أن هناك أعمالاً أدبية ونقدية لدعاة هذه المدرسة (العقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى) سبقت ظهور كتاب "الديوان فى النقد والأدب" الذى تضمن نقد العقاد لشوقى. وهو ما عبرت عنه المقدمة التى تقول: "هو كتاب... موضوعه الأدب عامة ووجهته الإبانة عن بعض أثاره، وتهيأت الأذهان الفنية المتهذبة لفهمه والتسليم بالعيوب التى تؤخذ على شعراء الجيل الماضى، معنى هذا أن ملامح هذه المدرسة ظهرت بصورة خام أو جنينية فيما كتبه دعاتها الثلاثة قبل تاريخ نشر كتاب الديوان عام ١٩٢١. وما اشتمل عليه من نقد لأمير الشعراء وجيله بصورة مكثفة.

مثلاً لقد ظهرت بعض هذه الملامح فى النماذج الشعرية التى تحمل فى أطوائها مبادئ وأسس الاتجاه الجديد لمدرسة الديوان ومنها ديوان عبد الرحمن شكرى "ضوء الفجر" الذى صدر عام ١٩٠٩، أو فيما نشره العقاد بكتابه خلاصة اليومية عام ١٩١١ تعليقاً على قصيدة لشوقى فى رثاء بطرس غالى. أو فيما نشره الدعاة الثلاثة

بصحف البيان وعكاظ والمؤيد والمقتطف والأهالى والأهرام ما بين ١٩١٣ - ١٩٢٠ أو فيما قاله العقاد فى مقدمتيه لكل من ديوان شكرى الثانى عام ١٩١٣. وديوان المازنى الأول عام ١٩١٤ علاوة على أن فى الديوانين نماذج ملتزمة بقواعد وأصول مدرسة الديوان كما يراها دعاتها الثلاثة.

إلى أن بدت معالم هذه المدرسة جلية واضحة فى كتاب الديوان للعقاد والمازنى. كاتجاه جديد يقف فى مواجهة اتجاه قديم تمثله مدرسة الإحياء والبعث التى يتزعمها وقتئذ شوقى بحكم وجوده بعد البارودى.

وهذه المدرسة الجديدة - أعنى مدرسة الديوان - لم تكن نبتًا بغير جذور. فهى إن كانت تعارض الجيل الماضى عليها. إلا أنها لم تقطع صلتها بالأدب العربى القديم. فكما يقرر الدكتور شوقى ضيف" بل أكدت هذه الصلة ووثقتها عن طريق استيعابها للأصول الأدبية الموروثة ودراستها دراسة متعمقة". كما أنها لم تلغ صلتها بتيارات ومذاهب الأدب العالمى بل قصدتها للاستضاءة بنورها فاطلعت على نقد وأدب الإنجليز وكل ذلك جعل البعض يشبه موقف دعاتها ممن سبقهم من شعراء الجيل الماضى، بموقف شعراء البحيرة الإنجليز بمن سبقوهم أو عاصروهم. إلا أن العقاد يدفع هذا الاتهام مؤكدا بأن مدرستهم ليست مقلدة للأدب الإنجليزى وإن كانت مستفيدة منه فلها رأيها فى كل أدباء الإنجليز. كما تقدره هى، لا كما يقدره الإنجليز.

وتتحدد معالم هذه المدرسة فى مقدمة كتاب الديوان بأنها مما يقرر دعاتها" إقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما وأقرب ما تميز به مذهبنا أنه مذهب إنسانى مصرى عربى".

وتكون لها مقاييسها الجديدة التى من خلالها تسلك سبيل الأدب ونقده. فهى ترى الشعر صورة لحياة الشاعر النفسية ولإدراكه العميق للحياة. أن تعم فى قصائده وحدة عضوية. وأن لا يأبه للمحسنات اللفظية أو القوالب الموروثة وأن يتحرر من كل القيود التى تحد من انطلاق وجدانه وفكره ولسانه. وأن يكون هدفه دائما التعبير الجميل عن الشعور الصادق.

وطبيعى أن تكون هذه المقاييس مخالفة تماما لأسلوب الجيل الماضى. وطبيعى أيضاً أن يكون شوقى هو أول من نفتتح به صفحات كتاب الديوان حين يضعه العقاد فى الميزان. لأسباب كثيرة منها: كون شوقي هو الممثل الحقيقى لمدرسة الإحياء والبعث. وهو ما لمح إليه العقاد قبل وفاته قائلاً: "كان شوقى علماً للمدرسة.. اجتمعت له جملة المزايا والخصائص التى تفرقت فى شعراء عصره". كذلك لمكانته فى قلوب الجماهير، وتأييد السلطة له كشاعرها المجيد. ولا عجب أن يقول عنه العقاد وقتئذ على صفحات الديوان: كنا نسمع الضجة التى يقيمها شوقى حول اسمه فى كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات. لا استضخاما لشهرته ولا لمنعة فى أدبه عن النقد. فإن أدب شوقى ورصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه فى اعتقادنا أهون الهينات".

كذلك يرجع العقاد صمت النقاد عن شوقى إلى أسباب: منها علاقته بالسراى تجعل أصحاب الصحف لا يبخلون عليه بالمديح والتقريظ. وثانيها أن شوقى يرصد المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم والأدب ليمدحوه. وثالثها أن هناك من اعتادوا أن يرتبوا المواهب على حسب الوظائف والألقاب كأنما يرتبون الشعراء فى ديوان التشريفات لا فى ديوان الأدب.

ولذلك أيضاً يبرر العقاد لنفسه – على الأقل – ضرورة نقد شوقى. ونلمح ظلالا لهذا التبرير فى قوله: "وإنه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه. فإن أبلغ ما يكون العيب إذا كان فاشيا" من بعده يتناول شعر شوقى بالنقد فى الديوان تحت عنوان: "شوقى فى الميزان" من خلال نقد لست قصائد، أربع منها فى الرثاء والخامسة فى استقبال الوفد والسادسة هى النشيد القومى. وتكون له فيها وجهات نظر صائبة تفيد الأدب والنقد. وأخرى متجنية وأبلغ ما يكون تجنيبها حين يختار هذه القصائد بالذات التى لا تمثل شعر شوقى الحقيقى كما يرى الدكتور حمدى السكوت فى تقدمته لببليوجرفيا العقاد والعجيب أن شوقى لم يرد على هذا النقد الذى استغرق ما يقرب من ثلثى صفحات جزئى الديوان. إلا أن هذا ترك تأثيره فى الأدب والنقد.

والسؤال الآن: وما هو التأثير الذى تركته مدرسة الديوان على الأدب والنقد بعد تقييمها لشعر شوقى وهل انتهى هذا التأثير بوفاة إمامها العقاد؟ فعن التأثير فقد كان بالغا لو ذهبنا مذهب العقاد حين سجل فى كتابه "شعراء مصر" أن شوقى نفسه قد تاثر بما بشرت به هذه المدرسة فجنح إلى أغراض من الشعر تخالف أغراضه الأولى التى عابها دعاة الديوان. ويكون تأثيرها بالغا إذا نظرنا إلى ما قدمه دعاتها من نماذج شعرية ونقديه. تطبيقا لما ينادون به. ثم يكون تأثيرها بالغا أيضاً إذا كانت قد وجهت الدراسات الأدبية توجيها جديداً حيث صاغ العقاد نماذج لهذه الدراسات منها: كتابه عن ابن الرومى واعتبار الكتاب ليس ترجمة لحياته بقدر ما هو صورة لحياته حيث نظر فى شعره فوجده صورة ناطقة لحياته. أو حيث نشر عن أبى نواس كتاباً يقوم على التحليل النفسى لشذوذ هذا الشاعر وتعليل ذلك تعليلاً يكشف عن طبيعته الإنسانية وكيف كان شعره تعبيرا صادقا عن دخائله وحياته الباطنة. ونفس الأمر نجده فى بقية دراساته الأدبية.

تبقى بعد ذلك مسألة فرض انتهاء هذه المدرسة بوفاة أمامها العقاد. هنا لا يظن متابع أنها قد انتهت. فروحها لا تزال سارية فى كتابات الكثيرين من أصدقاء العقاد وتلاميذه ومريديه. ولعل كتاب "شعراء ما بعد الديوان" للدكتور عبد اللطيف عبد الحليم قد وضح هذه المسألة توضيحاً لا يتطلب المزيد.

بل يمكن القول بأن هناك أدباء ونقادا لم يتتلمذوا على العقاد إلى أن فيهم من تأثر بتحديد مدرسة الديوان فى الأدب والنقد، نكتشف ذلك حيث نرى فى أدبهم أدب الفكرة الواعية بكل ما تعنى هذه الكلمة من معانٍ ودلالات.

عندما قال الفيلسوف الفرنسى سارتر: "الكاتب ليس من المقيدين فى حياة المجتمع كما أنه ليس من المتحررين منها. فهو فى غمار المعركة.. ملحوظ وشريك.. حتى فى أقصى حالات عزلته.. صمته يعتبر رأيا تحاسبه عليه الأجيال". فإن سارتر كان يقصد بذلك الكاتب الحقيقى - لأن غير الحقيقى لا شأن لنا به - فهذا الكاتب الحقيقى هو الذى يعيش أحداث عصره، ويكون فى معركة بناء وطنه طرفا وشريكا.. وهكذا كان العقاد فى كل مراحل حياته. ولذلك حرص الزعيم الراحل جمال عبد الناصر على إهدائه كتابه فلسفة الثورة فى ٦ يونيو ١٩٥٤ ليكتب عنه العقاد مقالا نقديا بمجلة آخر ساعة فى ٣٠ يونيو ١٩٥٤ عنوانه: "فلسفة الثورة فى الميزان" والسؤال الآن: لماذا حرص عبد الناصر على الإهداء ولماذا بادر العقاد بالكتابة؟ سؤال لا غرابة فى سبقه إلى الأذهان. خصوصا وأن علاقة العقاد بالثورة بوجه عام، وبقائدها بوجه خاص.. يصورها البعض تصويرا غير مطمئن. سواء بالنسبة للثورة التى لم تصب المفكر الكبير عباس محمود العقاد بأى سوء، أو بالنسبة للعقاد الذى لم يكن يوما بمعزل عن معركة بنى وطنه مع السراى والرجعية والاستعمار!؟

أما لماذا حرص عبد الناصر على الإهداء. ففى اعتقادى أنه كان يؤمن بالدور الوطنى الكبير الذى كان يقوم به قبل الثورة الكتاب من طبقة العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم. هذا الدور الذى يمكن أن يكون بصورة أو بأخرى ممهدا للثورة، ومؤيدا لنجاحها، معاونا لمسارها فى الطريق الصحيح. فمن كان يستطيع تصوير واقع المجتمع المصرى واستحياء إلهام هذا الواقع من المجتمع أكثر من هؤلاء الكتاب الثلاثة؟ ومن كان يستطيع أن يلهم المجتمع المصرى بما استوحاه من هذا المجتمع أكثر من هؤلاء الثلاثة؟ ومن كان يستطيع أن يصور ما هو حادث فى حياة المجتمع المصرى

وما يجب أن يحدث أكثر من هؤلاء؟ باختصار من كان يستطيع أن يفعل ذلك كله غير هؤلاء ومن كانوا فى طبقتهم؟

ومن هذه الاستطاعة ينشأ إيمان وتقدير الثوار بالكتّاب الوطنيين، ومنها أيضا تنبثق مسئولية هؤلاء الكتّاب تجاه المجتمع وحركة تاريخه. فكاتب مثل العقاد ليس بالأديب الفنان الذى يسبح فى بحار الخيال ويدير ظهره لقضايا وطنه، كما أنه ليس بالناقد الذى يهدم ولا يبنى فيتحول من ناقد موضوعى إلى ناقم شخصى، وليس كذلك بالباحث التجريدى الغارق فى سطح الأشياء. إنما العقاد أديب حياته وحياة مجتمعه فىأدبه، وناقد يجيد تصويب الهدف، وباحث يقظ يفتش عن الجدة والجديد.. هو كل ذلك جميعه مضافا إليه أنه حامل رسالة اجتماعية، وحامل الرسالة الاجتماعية مسئول عنها. وقيمته تتحدد بمقدار ما يقول به فى تحمله عبء هذه الرسالة الاجتماعية.

وتاريخ الثورات يحدثنا عن أدوار جليلة قام بها أدباء ونقاد ومفكرون وحملة رسالات اجتماعية.. للتمهيد للثورات وتأييدها ومعاونتها حتى لو كانوا موتى فإنهم على قيد الحياة الأدبية.

لقد قام "دانتون" وروبسبير ميرابو" بالثورة الفرنسية فهل كان هؤلاء يعتزمون على القيام بها لو لم يمهد الطرق لهم "فولتير وروسو وديدرو"؟ وقام "جورج وشنطن" بالثورة على الاستعمار الإنجليزى فهل كان بمستطيع أن ينجح على امبراطورية لا تغيب عنها الشمس لو لم يهيئ له طريق النجاح "توم بين وبنيامين فرانكلين"؟ وقام "لينين" بالثورة الاشتراكية محطما القيصرية الروسية ومعلنا حقوق الطبقة العاملة. فهل كان يستطيع النجاح لو لم يمهد له الطريق "دوستويفسكى، وتولستوى وجوجول، وتشيكوف، وجوركى". والمثل قام عبد الناصر ورفاقه بثورة يوليو ١٩٥٢ بعد أن قرأوا للعقاد كاتب ثورة ١٩١٩ ومهاجم الرجعية الممثلة فى الملك وبطانته وعدو الاستعمار وأعوانه، وقرأوا طه حسين صاحب "المعذبون فى الأرض" وقرأوا الحكيم صاحب "عودة الروح" وغيرهم.

لذا كان تقدير عبد الناصر لهؤلاء الثلاثة، ولهذا أيضا لم تمسهم الثورة بسوء. رغم أنهم كانوا يتمتعون بألقاب وامتيازات قبل الثورة. فمنهم "الباشا" ومنهم "البيك"

ومنهم "عضو البرلمان بالتعيين" بل على العكس وجدوا تقديرا من الثورة. حيث كان ثلاثتهم فى مقدمة من كرمتهم الدولة بالأوسمة والجوائز. ونشرت أعمالهم الفكرية، واختارتهم قادة فى مؤسسات الرأى والفكر، لأنهم رموز ينبغى تقديرها.

وأما لماذا حرص العقاد على تقييم فكر الثورة، فلأنه فى الأصل كاتب مسئول. والكاتب المسئول أديبا كان أو ناقداً.. هو من يعبر فى أدبه ونقده عن نظرته إلى مختزنات تراث أمته الذى مضى. وإلى ما هو حاصل من ممهدات إلى ما كان، وما سوف يكون وهذا يفرض أن تجتمع فى هذا الكاتب ميزتان. ميزة الفنان الذى يستطيع أن يعبر تعبيراً جميلاً يصل إلى القلب. وميزة المفكر الذى يخترق بنظرته حجب الزمان فيعبر تعبيرا معقولا يقبله العقل.

ومن هنا لا مفر وقد وضع فى إطار هذه المسئولية أن يتدارس مشاكل الحياة وأن يعيشها سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثورية. ولكل واحدة من هذه لونها الخاص. التى ربما تجتمع للكاتب الواحد. فيصبح مفكراً صاحب نظرة إلى الأشياء. نظرة قد نتفق حولها أو حتى نختلف عليها. ولكننا فى واقع الأمر لا نملك أن نجرح ما سبق من تقدير واحترام لما كتب. ولقد كان العقاد صاحب نظرة مستقبلية إلى الأشياء يمكن تحديدها: حيث رأى أن حكومات الأقليات الاستبدادية ليست بقادرة على حل القضية الوطنية مهما زعمت عن صلاتها بالإنجليز. وحيث كانت كلمته المحملة برأيه فى بداية الثلاثينات ضد حتى أنه الملك ورجعيه وأعوانه، وأن هذه الرجعية لن تقدم للبلاد إلا مزيدا من الاستبداد حتى أنه تعاطف - مبكرا - مع الاشتراكية حين هاجمها جوستاف لوبون ورأى أنها الحل بالنسبة للمجتمعات التى تبنى نفسها كالمجتمع المصرى فدعا إلى الثورة وسجن. وكان من المؤيدين لثورة ٢٣ يوليو.

تبقى الإشارة إلى مقالة "فلسفة الثورة فى الميزان" للعقاد. والتى مهد لها بالحديث عن ثلاث ثورات سبقت الثورة المصرية هى: الثورة الفرنسية وكيف كان شعارها "الحرية والإخاء والمساواة" مؤكدًا أنه لا يصلح لهذه الثورة سوى هذه الكلمات، والثورة التركية التى استفادت من الثورة الفرنسية وإن استبدلت كلمة الإخاء بكلمة العدالة

كمقصد سياسى وعقائدى وجعلته خطة لازمة فى الداخل والخارج، والثورة الصينية وكيف حصرت مبادئها فى كلمات ثلاث هى: القومية والديمقراطية، والاشتراكية كمطالب تختلف عن مطالب الثورة الفرنسية. ثم كان حديثه عن الثورة المصرية مؤكداً أن شعارها متضمن فى كلمات ثلاثة هى "الاتحاد والنظام والعمل" وهو شعار المصريين بغير فارق فى وجهته أو دواعيه فليس من المصريين من يأبى النظام أو العمل أو الاتحاد.

وبعد هذه المقارنة التى أقامها العقاد بين ثورتنا وثورات غيرنا يقرر أن التفاهم على ما جاء بفلسفة الثورة من تفصيلات قريب، وأن الخلاف عليها هو أقل خلاف. مثلا يقول عبد الناصر فى كتابه: "كان من السهل ومازال سهلا أن نريق دماء عشرة أو عشرين أو ثلاثين فنضع الرعب والخوف فى كثير من النفوس المترددة ونرغمها على أن تتبلغ شهواتها وأحقادها.." إلى أن يقول: "ولكن أى نتيجة يمكن أن يؤدى إليها هذا العمل؟ كان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا" ويرد العقاد "نعم يكون ظلما ويكون أكثر من ظلم لأنه يصيب من لم يصبه العقاب. فيتضاعف داء الشك والحذر، ويبطل فائدة العلاج، وييئس من عقباه" حيث يتجاهل الظروف التاريخية التى مر بها شعبنا.

وينبه العقاد إلى أن مجال اهتمام الكتاب لم ينحصر فى حدود مصر بل تجاوزه إلى غيرها من عوالم هى العالم العربى والعالم الأفريقى والعالم الإسلامى. ويعلق العقاد بأن ما ذهب إليه عبد الناصر هو من طموح الشباب ولكنه من أعباء الشيخوخة المبكرة ثم يتساءل فماذا نصنع إن جنى البترول على العالم العربى فيضعفه بدلا من تزويده بأسباب القوة والمنعة وماذا نصنع إن أصبحت أفريقيا للمستعمرين لا للإفريقيين؟ وماذا نصنع إن هدم معنى الحياة كما تمثله الحضارة الحسية ولم نعتصم من التيار الجارف بعصمة تعمر نفوس الملايين؟ وينهى العقاد تقييمه للكتاب بمقولة لعلها سبيل إلى إيقاظ الأجيال كى تحمل الأمانة قائلا: "ليس علينا أن نعمل كل شئ ليس علينا أن نعمل لنعفى من يأتى بعدنا من العمل. فإننا إن أعفيناه أسأنا إليه. لكننا نترك له واجبه وننهض بواجبنا وواجب كل جيل أن يبقى لمن بعده أمانة".

إذا كان العقاد الإنسان قد مات، فإن العقاد المفكر لم يمت.. نعم العقاد.. الذى استطاع هو – ونفر قليل من أبناء جيله – أن يقيم جسوراً قوية بين أدبنا العربى المعاصر والفكر العالمى، وأن يستوعب هذا الفكر ويهضمه، ويتخذ منه موقفا نقديا.

لقد كان على العقاد وعدد قليل من جيله الفذ مسئولية.. هى مسئولية التنوير العقلى والوجدانى لأبناء هذا الشعب "وأولى واجبات هذه المسئولية فتح النوافذ لتيارات الفكر النقى.. فمصر القرن التاسع عشر.. التى تعيش أحزانها نتيجة إخفاق الثورة العرابية، وبداية الاحتلال البريطانى،وما نجم عنه من نكبات ومحن.. كانت فى حاجة إلى فكر جديد، يتفق مع السلوك المتحضر لهذا المجتمع الذى بدأ فى تشييد البنوك، وإقامة المصانع، ومد شبكات المواصلات.. واقتحام الحياة العصرية بوجه عام، كانت تحتاج إلى التعبير عن آلامها وآمالها.. بشكل يتفق مع قيم مجتمعها الجديد.

ومن هنا تطلعت أنظار أبنائها من الكتاب والأدباء وفى مقدمتهم العقاد.. إلى الفكر العالمى فبدأوا يتأملون الفكر الثورى فى فرنسا ويتدارسون فكر العصر الصناعى فى إنجلترا.

وفى مطالعاته الأولى.. يذكر لنا العقاد مجموعة من أعلام الفكر الأوروبى ممن ألقوا بظلالهم الهائلة على القرون الماضية وكيف تأثر بهم.

ويبحث وينقب فى ميادين الفكر بوجه عام. والفلسفة بوجه خاص، فيتعرف على مذاهبها وجزئياتها الخاصة بالسببية والوجود، وتفصيلاتها فى نظريات ديكارت فى الشك واليقين، ونيتشه فى القوة والإنسان الأعلى، وداروين فى النشوء والارتقاء،

وشوبنهور فى التشاؤم والجمال، ووليم جيمس فى إرادة الاعتقاد. وبيرتراند راسل فى فلسفة الرياضيات، وجان بول سارتر ومن قبله ياسبرز وهيدجر فى الوجودية وإيمانويل كانط فى فلسفة السلام. ودافيد هيوم فى الوضعية المنطقية، وكارل ماركس فى النظرية المادية إلى جانب هربرت سبنسر، وجون ستيورات وغيرهما.

لكن عند "هيجل" نتوقف قليلا حيث نلحظ زادا فلسفيا كبيرا ينبه إليه الدكتور عبد الفتاح الديدى فى كتابه "النقد والجمال عند العقاد" الذى يمثل هنا الفرع المصرى فى المدرسة الهيجلية. حيث يكاد ينطق بلسان "هيجل" فى كثير من نظرياته.

ليس هذا فقط بل يطل من وراء الفكر العقادى.. عقاد آخر يتأثر بفلسفة الظاهريات. تلك التى جاءت لإنقاذ الفلسفة ككل من براثن الشك الديكارتى.

وصال العقاد فى رحاب الفكر العالمى من شرقه إلى غربه وجال، فقدم لنا فصولا ممتعة للمفكرين الفرنسيين وفى مقدمتهم "روسو" و "فولتير" و "بودلير" وفصولا أخرى من فكر شاعر حكيم الهند، وفيلسوف الباكستان إقبال. كما عرض لنظريات "جوستاف لوبون" فى الآراء والمعتقدات وقدم لنظريات ميكيافيلى فى السياسة والفضائل ويجوس فى عالم التراجم والسير فيقدم كتابها ونظرياتهم وأساليبهم فى الكتابة ويتوقف عند "أميل لودفيج" و "توماس كارليل".

وفى النقد أقام مع صديقيه المازنى وعبد الرحمن شكرى مدرسة نقدية عربية جديدة. متأثرة من منابعها الأولى بنظريات بعض النقاد الإنجليز، واعتمدت فى مقوماتها الذاتية على العقل النقدى والأسباب النفسية أكثر من اعتمادها على الأسباب الاجتماعية، وقد استفاد العقاد من هذا المجال من كتاب كثيرين وفى مقدمتهم "ماتيو أرنولد" و"هازلت".

وفى الشعر تأثر العقاد بقراءاته للشعراء الأجانب ففى مطلع حياته كان يرى المثل الأعلى متجسداً فى شعر "لسنج" و "بيرون" و "كيتيس" و "شيلى" و "وليم ورد زورث" و "توماس هاردى" وغيرهم من الشعراء الرومانتيكيين فى إنجلترا أو أوروبا، الذين أضفوا مشاعرهم على الطبيعة وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها.

وبديهى أن ينقل هذه المعانى والأفكار إلى شعرنا العربى - الذى كان يدور فى فلك الهجاء والمديح والمناسبات - ويدعو إلى نظم الشعر فى بعض الموضوعات التأملية التى قلما نجد لها نماذج فيما ترك العرب الأقدمون. كالسعادة والحب والحياة والأمل والرجاء والخيبة واليأس والحلال والحرام وغيرها وقدم لنا شعراء الألمان الخالدين "جيتى" و "شيلر" و "هينى" مؤكدا حقيقة جديدة من خلال أعمالهم هى أن شاعريتهم تحتاج إلى الفكر.

وفى القصة استطاع العقاد أن يستحدث فى أدبنا العربى المعاصر ما يسمى بالقصة النفسية، حيث يتم فيها ترجيح الجانب النفسى والعقلى على غيره من الجوانب. ويرى الدكتور يوسف مراد أن العقاد وضع تقنينا للقصة النفسية. ومثله فى ذلك كمثل الروائى الروسى "دوستويفسكى" فى القصة الروسية.

ولقد اهتم العقاد بتقديم رواد القصة والرواية الأجانب وفى مقدمتهم "ديكنز" و "تولستوى" و "شكسبير" ودوستويفسكى" و "بلاسكو أبانيز" و "كامى" وغيرهم كما أفرد كتابا عن القصة الأمريكية هو "ألوان من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى" قدم فيه عددا من الكتاب الأمريكيين فى مقدمتهم "واشنطون أرفنج" و "ادجار الآن بو" و "مارك توين" و "همنجواى" و "فولكنر" و"شتاينبك" وغيرهم.

والسؤال الآن هل كان العقاد مجرد جسر يصلنا بالفكر العالمى وكفى؟ أليست له إسهاماته الخاصة؟ وما تأثير هذه الإسهامات علينا؟

من الظلم للعقاد اعتباره جسرا يصلنا بالفكر العالمى. فهذا الدور لا يزيد عن دوره لو كان مترجما.

فمن الإنصاف للعقاد. وللثقافة العربية بوجه عام أن نعترف أن العقاد حركة ثقافية عامة، ووجهها من خلال كتبه ومقالاته وندواته وأحاديثه. والأكثر نزالياته ومساجلاته ومعاركه ومواقفه. فصنع ما تموج به الحياة الثقافية من نشاط وفكر لم يكن العقاد إذن مجرد ناقل لفكر الغير وثقافاته فحسب، وإنما هو ناقد ومعلم دخل

جامعة الحياة ليخرج منها أستاذاً يعلم ويبحث ويستقصى ويتأمل وينتج فى أكثر من خمسين سنة. كان فى كل سنة يضيف إلى فكرنا العربى الكثير.

العقاد - إذن - واحد من أئمة التنوير فى فكرنا العربى. وما أصدق معنى التنوير الذى عبر عنه "إيمانويل كانط" حين قال: "تشجع وفكر بنفسك" على العقاد. فهو بالفعل استطاع - بدم القلب ووهج الفكر وصلابة الفولاذ - أن يستوعب هذه الأفكار العالمية ويهضمها ويتخذ منها موقفا وكان صادقاً حين قال: "لم أتأثر بأحد لأننى أردت أن أكون أنا نفسى".

والعقاد يتناول جائزة نوبل الأدبية فى كتابين هما "شاعر أندلسى وجائزة عالمية" و "جوائز الأدب العالمية. مثل من جائزة نوبل"، الأول نشره عام ١٩٦١، والثانى نشره فى أول مارس عام ١٩٦٤ أى قبل وفاته باثنى عشر يوماً. ليجعل صفحات الكتابين تدور حول جائزة نوبل الأدبية وصاحبها الفريد برنارد نوبل، وكل ما يتصل بهذه الجائزة والعقاد حين يتناول هذه الموضوعات التى تشغل فكرنا العربى، يؤكد أنه ما زال على قيد الحياة الأدبية فهو إن كان فارقنا بالجسد فإنه لم يفارقنا بالفكر الذى مازال نابضاً بالحيوية والتطور.

حق للعقاد إذن أن يصدر كتابين عن جائزة نوبل الأدبية لأسباب منها: أن العقاد واحد من قلة قليلة جداً فى عالمنا العربى كانوا يستحقون الجائزة، وإن كانت قد تخطتهم إلى غيرهم لأسباب ليست المقدرة الأدبية أو العطاء الفكرى أو الشهرة فى زمانهم واحدة منها. وأن العقاد فى كتابيه عن الجائزة لم يتملق أو ينافق، أو حتى يملأ الدنيا ضجيجاً بمحاولات ترشيحه وقبول هذا الترشيح أو رفضه، وإنما قال رأياً لا يحسب له وإنما عليه، رأى يحجب عنه عشرات الجوائز وليست جائزة نوبل وحدها، وأن العقاد حين أراد أن يسجل رأيه لجائزة لم يكتف بما نشره عنها عام ١٩٥٢ فى كتابه" بين الكتب والناس" وإنما عاود النشر مرتين كانت آخرهما قبل وفاته بأيام كوثيقة تعلن اتساق موقفه منذ بدأ حتى آخر أيام حياته، وأن العقاد حين نشر كتابين عن جائزة نوبل الأدبية وما يتصل بها لم يترك فرصة لمستزيد، اللهم إلا ما خرج عن إرادته. وهو ما حدث بعد وفاته على مدى ربع قرن، أو ما خرج عن تخصصه وهو ما يتعلق بالجوائز غير الأدبية. لهذه الأسباب وغيرها أقول إن من حق العقاد أن يتكلم فى موضوع هو أعرف الناس به.

لكن ماذا يريد العقاد فى كتابيه على الإجمال؟ يريد العقاد أن يقول إن جائزة نوبل سقطت سقوطاً شائناً. فى وضعها أصلاً على سبيل التفكير، أو فى صياغة شروطها، أو فى منحها لمن لا يستحق ومنعها عمن يستحق.. وبالطبع يمهد لتفصيلات هذه القضايا بمدخل واحد فى الكتابين هو التأريخ لصاحب الجائزة وتوصيته بمنح الجائزة لأفضل الأعمال. بعد ذلك تتباعد الصفحات وتختلف فى تناولها وفى موضوعاتها لتلتقى عند هدف واحد هو أسلوب منح ومنع هذه الجوائز الأدبية متفرعاً إلى مناقشة الكثير من القضايا الخاصة بالجائزة.

مثلا عندما احتدم النـــزاع حول معانى مفردات الوصية استدعى ملك السويد ابن شقيق نوبل ووريثه طالبا منه أن يوضع للوصية نظامًا يلائم ضرورات السياسة، ومن هنا بدأ الاتفاق على وضع معان لبعض العبارات المطلقة فى الوصية فاتفقوا مثلا على أن كلمة الآداب تشمل الكتابة التاريخية والفلسفية ولا تقتصر على فنون الأدب المعروفة من شعر ونثر ونقد وكانت هذه هى السقطة الأولى. حيث لا تشير الأسماء الفائزة إلى أى دلالة على التطور. لأنها تقرن الشعر بالقصة، وتقرن هذين بالمسرحية، وتقرن هذه جميعاً بالتاريخ والفلسفة الأخلاقية وهكذا.

وسقوط آخر كبير للجائزة الأدبية يتجسد فى إشارة العقاد إلى التفاوت بين مستحقيها. فمن أصحاب الجوائز من يعد فى طليعة أقطاب الأدب العالميين ومنهم من لا يزيد وزنه عن الأتباع أو حتى المتفوقين فى باب من أبواب الأدب. وقد أجازت اللجنة فائزين لهم وجهتهم الواضحة إلى المثل العليا والإيمان بمصير الإنسان. ولكنها أجازت أناساً لا يزيد عملهم على المحاولة التى لا تصمد إلى غاية. وكثيراً ما تصرح اللجنة بتقديرها لسيرة الأديب وكرامته. ولكن كثيراً أيضاً ما تغفل هذا الجانب فتجيز أدباء لا يبالون بالعرف والحياء فى مسلكهم الاجتماعى.

ومما لا جدال فيه أن العالم لا يخلو تماماً فى أكثر السنوات من أديب أو أدباء أفضل من صاحب الجائزة فى تقدير اللجنة. التى تعتذر على ذلك عادة بأنها كانت تجهل هذا الأديب أو لغته.

ثم يقدم العقاد صوراً صارخة لهذا السقوط متمثلاً فى منح ومنع اللجنة للشخصيات الأدبية وتبريراتها لذلك فمثلاً تستدرك إهمالها لتولستوى بأن شروط الجائزة كانت توافق أعماله الأدبية ولكنها لا توافق أفكاره الاجتماعية، وتخفى حرجها من تخطى "إبسن" بحجة أنه واحد من أبناء الأمة الاسكندنافية التى تصدر الجائزة. ولكنها تمنح الجائزة بعد عام لفائز من الأمة نفسها هو "بجرتسون" ويتوالى بعده الفائزون من هذه الأمة، وتحجب الجائزة عن "توماس هاردى" بحجة أنه شديد التشاؤم ولكنها تختار فائزاً أكثر تشاؤما وهو أنا تول فرانس، وتمنع الجائزة عن الأديب الأسبانى "أبانيز" لأنه صرح يوماً بأن حكم أبناء الشمال الأوروبى ومنهم السويديون لوطنه أسبانيا خرب فى سنوات قليلة كل ما صنعه الحكم العربى فى قرون، وترفض اللجنة الأديب الفرنسى إميل زولا دون مناقشة لسبب بسيط هو أن زولا كان من أنصار المذهب الطبيعى الذى كان يبغضه نوبل صاحب الجائزة وترفض أيضا كلا من الفيلسوف الأسبانى "أونا مونوا" والآخر كروتشه لمواقفهما السياسة المناهضة للاستعمار والفاشية.. وأمثلة كثيرة غير هذه الأسماء تتضح فيها الأهواء.

إلا أن الموقف من أدباء الشرق يمثل قمة الغرابة والسقوط فى رأى العقاد. فلم ينل الجائزة من الشرقيين حتى عام ١٩٦٤ غير شاعر الهند طاغور. وحتى حين أجازته اللجنة قالت فى مزاياه: "إنه جعل أفكاره الشعرية كما عبر عنها بأسلوبه فى اللغة الإنجليزية.. جزءاً من الأدب الغربى "وهنا يتساءل العقاد: هل يفهم من هذا أن اللجنة لا تجيز أدباء غير أدباء الأدب الغربى، أو الأدب الشرقى الذى يصبح جزءاً من الأدب الغربى؟ وهل أكثر من ستين سنة لم تنجب الأمم الشرقية مئات الملايين من البشر مثل ما أنجبته السويد وحدها، التى ظفر أدبها بأربع جوائز؟ ثم أليس فى الشرق واحد مثل نكرات أجازتهم اللجنة منهم "لاكس أو "كوسيمدو"؟ ثم أليس اختيار طاغور لا يخلو من شبهة تقديره السياسى كهندى يحمل لقب "سير" من بريطانيا العظمى يغطى على مقدرته الأدبية؟

إن هذه الأهواء فى المنح والمنع قد دعت كاتباً كبيراً مثل برناردشو إلى رفض

الجائزة متحججاً بأنه وصل إلى بر الأمان، فلا حاجة به إلى عوامة النجاة. لأنها تخطته عدة سنوات واختارت من هم أقل منه.

ويشير العقاد إلى أن نسبة الذين نالوا الجائزة من اليهود ١٢٪ من الفائزين من كل بلاد العالم، مع أن تعداد اليهود حتى عام ١٩٦٤ لا يزيد على عشرين مليون نسمة فكيف؟

كذلك عندما تجيز اللجنة كاتبين من روسيا يكون أحدهما منفياً، ويعتبر من رعايا الحكومة الفرنسية وهو "بونين" والثاني مرفوض من اتحاد الأدباء فى روسيا وله موقف منه وهو "باسترناك" يصبح الأمر غريباً.

وهكذا سجل العقاد رأيه.. عن الجائزة الأدبية فى كتابين عنها.

الفنـــون

فــن الشعر

يذكر العقاد فى كتابه "خلاصة اليومية"، فى تعريف الشاعر ما نصه" إن الشاعر هو مَنْ يَشعرُ - بفتح الياء وضم العين - ويشعَر - بضم الياء وفتح العين-" ومعنى هذا أن الشعر الحقيقى لا يتأتى إلاَّ فى وجود هذين الشرطين.. أن يشعر الشاعر بما حوله شعوراً حقيقيا، حتى يمكن أن يشعر به ويستمتع المتلقى قارئا كان أو مستمعا ولهذا فقد عرّفَ العقاد الشعر فى مقدمة ديوانه "وهى الأربعين" بأنه "التعبير الجميل عن الشعور الصادق..".

ويتفق نقاد فن الشعر عند العقاد ومؤرخيه، وفى مقدمتهم الدكاترة طه حسين وزكى نجيب محمود، وعبد الحميد يونس وشوقى ضيف وعبد الحى دياب والأساتذة عزيز أباظة ومحمد طاهر الجبلاوى وصلاح عبد الصبور ومحمد أحمد العزب وعامر العقاد على رأى واحد مؤداه أن العقاد كان شاعراً فحلا من شعراء العربية الكبار الذين يمكن للباحث أن يميز الشاعر منهم عن سابقيه ومعاصريه ولاحقيه بشعره.. وأن يتأكد أن لشعره رؤيته الخاصة ولغته المتميزة وموضوعاته الفريدة.

لقد وصل الشعر العربى المعاصر - قبل مدرسة الديوان - إلى مرحلة يمكن أن تسلمه إلى طريق مسدود، فشعراؤه الكبار على الرغم من تحليقهم وإبداعهم فى مجالات كثيرة لم يستطيعوا أن يضيفوا إلى روح المسار الشعرى جديداً يذكر سوى براعات ذكية فى التناول الشعرى لموضوعات بليت من طول ما استعملت، فالشاعر راصد لحركة الكون وأحداث التاريخ ومواقف الأشخاص.. فى تعميم لا يتناول من الأشياء إلا سطحها الظاهر، ولكنه لا يخوض فى عباب النفس البشرية و لم يفطن

إلى إقامة هذا الحوار النفسى إلا قليلا.. وقليلا جدا بالنسبة لهذا الكم الضخم من القصائد..

ويبدو أن هذه السمة الغالبة على الشعر المعاصر. كانت نتيجة لما آلت إليه حال الشعر العربى فى العصور المتأخرة.

كتب العقاد تعليقا على قصيدة لحافظ إبراهيم فى صحيفة الدستور عام ١٩٠٩ مطلعها:

لقد نصل الدجى فمتى تنام   أهم ذاد نومك أم هيام

فقال ما خلاصته أن الشاعر على سبيل المحاكاة قد أخذ قطعة من الحرير، وقطعة من المخمل وقطعة من الكتان، وكل منها صالح لصنع كساء فاخر من نسجه ولونه ولكنها إذا جمعت على كساء واحد فتلك هى مرقعة الدراويش.

ولا شك أن شعراء ذلك العهد قد خدموا الشعر العربى وخدموا اللغة العربية بما حذقوه من إجادة الصياغة وتجويد الأساليب وسمو بلغة الشعر عن المستوى الضعيف الذى كانت قد تردت فيه.

ولكن هل وقفت عجلة الزمن عند هؤلاء الشعراء وانتهى أمر الشعر إلى هذه الغاية التى لا توصل إلى نتيجة، لقد كان العقاد على حق وزميله المازنى حين انبريا يهاجمان شعر المحاكاة وأدب المحاكاة. وظهرت فى سماء الأدب روح جديدة.. أو قل مدرسة جديدة قوامها وأعمدتها ثلاثة شعراءهم العقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى.. جمعت بين هؤلاء الثلاثة جامعة الأدب الجديد الذى كان لهم الفضل فى رفع صرحه والدعوة إليه.

وكان العقاد أقوى هؤلاء الثلاثة حجة وأشدهم إصرارا على توطيد أركان الدعوة التى أعلنتها مدرستهم الجديدة.

المازنى شارك العقاد فى كتاب الديوان ووقف عند هذا الحد. ورأى دوره فى الصحافة فانصرف إليها.

وكتب شكرى عدة مقالات فى محاربة القديم والدعوة إلى الجديد وتوقف خاصة بعد هجوم المازنى لشعره.

ولكن العقاد حمل الراية وتزعم الحركة وحده وسار بها شوطا بعد شوط ينافح ويكافح ويناضل ويضع اللبنة فوق اللبنة إلى آخر أيام حياته، وكان بما يخطه قلمه من قواعد الفن وأصوله خير داع لهذه المدرسة. وكان بما يقدمه من شعره خير نموذج لهذه الحركة التجديدية المباركة.

لكن ما هى موازين وسمات هذه المدرسة التى التف حولها عدد غير قليل من الشباب بعد ذلك؟

من بين الموازين التى أشاعتها تلك المدرسة إما منشئة أو ناقلة - عدم محاكاة الأقدمين، محاكاة نافية للشخصية. وبذلك يتسنى للشاعر أن يرى كل الكائنات رؤية شعرية تحمل خصائصه. فكل ما يهز الوجدان ويثير المشاعر يعد مادة صالحة للشعر.

الحفاظ على قواعد الشعر العربى الأصيل لكيلا يفقد موسيقاه ولئلا يفقد كيانه مع محاولة تطوير أسلوبه داخل نطاق الجزل الشريف من التعابير وتحرى كل ما يحقق فيها الصدق والأصالة.

النفاذ ببصيرة الشاعر إلى ما وراء المحسوسات من معان إنسانية واستلهام النفوس والقلوب بما يعتمل فيها من وجدانات ومشاعر.

التأمل فى ظواهر الطبيعة وإدراك ما بينها وبين النفوس من علاقات غير منظورة تتمثل فى كل ما ينتاب كلتيهما من شئون.

بل ويؤكد العقاد فى هذه المعانى ويضيف إليها عددا من المقاييس فى مقال كتبه بمجلة الكتاب عام ١٩٤٧ وكأنه يوضح مذهبه فى الشعر الذى طلعت به هذه المدرسة منذ ما يقرب من أربعين عاما فى ثلاثة مقاييس.

إن الشعر قيمة إنسانية وليس بقيمة لسانية. لأنه وجد عند كل قبيلة وبين الناطقين بكل لسان. فاذا جادت القصيدة من الشعر فهى جيدة فى كل لغة. وإذا ترجمت القصيدة المطبوعة لم تفقد مزية من مزاياها الشعرية إلا على فرض واحد وهو أن المترجم لا يساوى الناظم فى نفسه وموسيقاه ولكنه إذا ساواه فى هذه القدرة لم تفقد

القصيدة مزية من مزاياها المطبوعة أو المصنوعة كما نرى فى ترجمة "فتزجيرالد" لرباعيات الخيام أن القصيدة بنية حية وليست قطعا متناثرة يجمعها إطار واحد فليس من الشعر الرفيع شعر تغير أوضاع الأبيات فيه ولا تحس منه ثمة تغييرا فى قصد الشاعر ومعناه.

إن الشعر تعبير وأن الشاعر الذى لا يعبر عن نفسه صانع وليس بذى سليقة إنسانية. فإذا قرأت ديوان الشاعر و لم تعرف منه. و لم تتمثل لك شخصية صادقة فهو إلى التنسيق أقرب منه إلى التعبير.

فالشعر يراه العقاد عنوانا للنفس الصحيحة ثم لا يعنيك بعدها موضوعه ولا منفعته ولا تتهمه بالتهاون إذا لم يحدثك عن الاجتماعيات والحماسيات والحوادث التى تلهج بها الألسنة والصيحات التى تهتف بها الجماهير.

والشعر الجيد عند العقاد هو الذى يبرز الخصائص الفردية ولا يبعد بنا عن الواقع الذى نعيش فيه. فالعقاد كان واقعيا؟ وكانت حملاته على الشعراء المحافظين تنصب على أمرين. المحاكاة والبعد عن الواقع.

ويرى العقاد أن الشعر يعمق الحياة ويستوعبها ويجعل الساعة من العمر ساعات وأن لا حياة بغير شعر، وأن الشعر فى زمن الصواريخ ألزم منه فى أى زمن آخر، ويقول فى ذلك: "إن الشعر لازم للإنسان الناطق ما دام ينطق ويعقل ويترقى بالنطق فى معارض الكمال ومعارض الجمال.

إن الشعر ألزم ما يكون للإنسان فى عصر الصواريخ.. إن حفاوتنا به فى هذا العصر. كشهادة لعصر الصاروخ تشرفه وتعليه. لأنه لم يتخلف عن عصور تعلم فيها الإنسان، كيف يكون إنسانا بالمنطق الساحر، واللسان المبين، وفى الغرب الذى يدين بالصاروخ علامات كهذه العلامة وآيات كهذه الآية وتنويه بلزوم الشعر وعنوان على اللهج به والحرص عليه.

ويرى العقاد أن الشعر يتسع لكل ما فى الحياة، وأنه باق ما بقيت العواطف الإنسانية والمشاعر البشرية، قائم فى قلوب الشعراء ونفوسهم ما بقيت قلوب ونفوس،

والتجديد فى الشعر ليس معناه الانتقال من وصف الناقة إلى وصف الطائرة ومن وصف الصحراء إلى وصف المدينة.

فالشاعر الذى يعيش فى الصحراء ليس شاعرا إن لم يصف الصحراء، والشاعر الذى يركب الإبل وتجيش نفسه بالشعر عند ركوبها ورؤيتها ليس بشاعر إن لم يصفها خوفا من تهمة المحاكاة.

فالمقلد هو الذى ينسى شعوره مجاراة لأقوال النقاد.

ويرى العقاد أن كل ما يعبر عن المشاعر التعبير الصادق الجميل. فهو شعر ومن ثم، ليس للشعر حدود غير حدود الحياة نفسها.

كل شئ فى الحياة موضوع للشعر ما دام الشاعر يعبر فيه عن نفسه إزاء تجربته تعبيرا جميلا صادقا، وليس يطلب من الشاعرأن يحصر نفسه فى موضوعات معينة أو لون خاص، لأن الشعر الصحيح كما يقول العقاد: هو عنوان النفوس الصحيحة ونحن لا نطلب الصحة فى النفس ولا الصحة فى الجسم لما تمتاز به من الأثر فى النهضات الوطنية أو الإنسانية بل نطلبها لأنها قوام الحياة وملاك الفطرة التى فطرنا عليها.

لذلك فإن العقاد كان يأخذ على بعض النقاد والأدباء حصرهم الشعر فى موضوعات بعينها دون سواها وفرضهم على الشاعر أسلوبا فى الإحساس أو التعبير دون غيره. كما يأخذ على نقاد وأدباء آخرين إلزامهم الشاعر بالنظم فى موضوعات لا تثير وجدانه وتفكيره فهو يقول عن بعض هؤلاء النقاد المحدثين إنهم: ظنوا فى حيرتهم أن الشعر العصرى هو وصف المخترعات الحديثة من بخار وكهرباء وطيارات وأمثال ذلك من آلات ناطقة ومعجزات لهذا العصر الحديث، لم يتقدم بوصفها المتقدمون فقلنا لهم: لا. لو كان هذا هو الشعر لكان واصف الزهرة والكوكب فى السماء أقدم الشعراء مذهبا وأبعدهم عن العصرية والحداثة معا لأن الزهرة فى الأرض والكوكب فى السماء أقدم ما وقعت عليه نظرة إنسان منذ كان الناس بين الأرض والسماء. ويشبه العقاد الشاعر الذى لا يرى فى الحياة الا الرياض وحدها والبحار والكواكب ولا تستخرج قريحته غير هذه الموضوعات للشعر كصاحب الجسم الذى لا يستخرج

الغذاء إلا من الطعام المتخير المستحضر، أو كالمعدم الذى يظن أن المترفين لا يأكلون إلا العسل والرحيق حيث يقول: "كل ما نخلع عليه من إحساسنا ونفيض عليه من خيالنا ونتخلله بوعبنا ونبث فيه إحساسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر وموضوع للشعر لأنه حياة وموضوع للحياة.

والقارئ لشعر العقاد يجده خير مثال لهذه النزعة التى تجعل للشعر مكانا فى كل مجال وتراه صالحا لكافة الأغراض.

لقد عرف العقاد فى منبثق حياته الأدبية الطريق الصحيح إلى الشعر الصحيح. وصاغ شعره وفقا لمعايير ارتضاها لنفسه. فهو شاعر ناقد محلل يربط شعره بين العالم المرئى المحسوس والعالم المستكن فى خفايا نفسه وزوايا أعماقه ويفسر الوشائج التى تجمع بين العالمين فى عمق وتبصر حتى لا تكاد تفوته سانحة من سوانح الفكر أو تخطئه شاردة من شوارد الخيال: فطاقة العقاد تأبى أن تنحصر فى هذا المذهب أو ذاك ويستلهم نفسه ويستوحى الطبيعة من حوله ويوغل فى أغوار المعانى الإنسانية القريبة والبعيدة ويلبس لكل انفعالة من انفعالاته ما يناسبها من التعبير.

والعقاد فى شعره عنى بجوهر البناء لا بالطلاء البراق الخادع الذى يخفى وراءه بناء متداعيا.

وما أقرب شعر العقاد إلى فن العمارة والنحت. فالقصيدة الكبرى من قصائده أقرب إلى هرم الجيزة أو معبد الكرنك منها إلى الزهرة والعصفور وجدول الماء.. القصيدة الكبرى من قصائده أقرب إلى تمثال رمسيس منها إلى الإناء الخزفى الرقيق أو إلى غلالة شفافة من حرير.. القصيدة عند العقاد بناء من الصوان والقلم فى يده هو أزميل النحات.. إنه لا يصوغ قطعة من العجين اللين، ولا يقيم بناء من الطين الطرى المطواع فلا الفكرة عنده قريبة المنال ولا المادة سهلة التشكيل.. القصيدة عنده هى المسلة القديمة قدت من حجرالجرانيت لترسخ فى الأرض وترتفع إلى السماء. ومن أراد أن يقرأ الشعر - وهو ملقى على ظهره فى استرخاء العابث اللاهى - فليس شعر العقاد شعره. أما من يدخل ديوان الشعر دخوله معبدا رفيع العمدمتين الجدران كل شئ

فيه يدعو إلى التمهل والتأنى ويظل يخرج فيه من محراب ليدخل محرابا.. وينتقل فيه من تمثال هنا إل نقش هناك. حتى إذا ما فرغ من تأمل أجزائه جزءا جزءا أدرك فى النهاية أنه معبد واحد تتآزر تفصيلاته وتتعاون نحوته ونقوشه ورموزه، من أراد قراءة الشعر هكذا.. فديوان العقاد ديوانه.

نعم العقاد متميز بشعره عن غيره من الشعراء تستيطع أن تميزه من بين عشرات الشعراء لمذاقه الخاص ويبدو أن هذه السمة كانت منطبعة فى ذهنه فهو - العقاد - يرى أن الشاعر الذى لا يعرف بشعره لا يستحق أن يعرف.لأن كلام الشاعر هو الصلة الكبرى بيننا وبينه فإن لم يكن هذا الكلام معبرا عن نفسه واصفا لها ممثلا لشعور ما فليس هو بطائل وإن كان معبراً عن النفس مستجمعا لصفاها وأطوارها فهو حسبنا من معرفة بالشاعر وترجمة لحياته.

شعر العقاد مختلف عن غيره من الشعر. أو كما قال الدكتور طه حسين يوم مبايعته أميراً للشعراء خلفا لشوقى عام ١٩٣٤ تسألونى لماذا أومن بالعقاد فى الشعر الحديث وأومن به وحده.. وجوابى يسير جدا لماذا؟ لأننى أجد عند العقاد ما لا أجده عند غيره من الشعراء لأنى حين أسمع شعر العقاد وحين اخلو إلى شعر العقاد فإنما أسمع إلى نفسى وأخلو إلى نفسى وإنما أرى صورة قلبى وصورة قلب الجيل الذى نعيش فيه وحين أسمع لشعر العقاد إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة وأتبين المستقبل الرائع للأدب العربى الحديث إنما أرى شيئا لا أراه عند غيره من الشعراء.

"لماذا أكبر العقاد وأومن به وحده دون غيره من الشعراء فى هذا العصر. لأن العقاد يصور لى المثل الأعلى الذى أحببته وتمنيت وجاهدت فى أن يحبه الشباب هذا المثل الأعلى الذى يجمع بين جمال العربى القديم وبين أمل المصرى الحديث. هذا المثل الأعلى الذى ليس محافظا مسرفا فى المحافظة وليس مجدداً مسرفا فى التجديد إنما هو مقتصد منهما.. وهو حلقة اتصال.. هو صلة خصبة بين مجدنا القديم وما طمع فيه مجدنا الحديث.

ويشير عميد الأدب العربى طه حسين إلى حقيقة استقلال شعر العقاد وعدم مشابهته

لشاعر آخر: "العقاد ليس مقلدا، ولو حاول التقليد لفسدت شخصيته. وشخصية العقاد فوق الفساد. خذوا ما شئتم من دواوين الشعراء المعاصرين الذين أكبر منهم كثيرين وأحب منهم كثيرين. أنا واثق أنكم لن تمضوا فى قصيدة حتى تذكروا شاعرا من المتقدمين أو أن تذكروا شاعرا من الغربيين المحدثيين، ولكن انظروا فى العقاد خذوا بيتا أو قصيدة أو مقطوعة فلن تروا إلا العقاد.

لهذه الأشياء التى لا يمكن أن يكون فيها المراء أو يقطع فيها الخلاف لهذه الأشياء أحب العقاد وأكبره وأؤمن به فى هذا العصر.

لن تجدوا فى ديوان العقاد باب المدح أو باب الهجاء أو باب النسيب والغزل أوباب الفخر والحماسة لأن طبيعة العقاد، ولأن فهم العقاد للشعر، وميل العقاد إلى الجمال، ولأن المثل الأعلى له فى الأدب يرفعه عن هذه الأغراض، ويجعل شعره لا أقول واسعا ولا فسيحا ولا يقيد المدى، ولكنى أقول – كما يقول العقاد نفسه – يجعل شعره مطابقا للحياة ليس غير.

ويضيف الدكتور طه حسين مبررًا إعجابه بشعر العقاد ومؤكدا شاعريته وتميزها عن غيرها قائلا:

"ثم يعجبنى العقاد لأنه يلتمس موضوعاته حيث يلتمس الناس الموضوعات ثم يلتمس موضوعاته حيث لم يستطع شعراء العرب أن يلتمسوا موضوعاتهم. العقاد يلتمس موضوعاته معنا فى الأرض ومع الشعراء فى السماء، ويطير على جناح الكروان ويسابق الطير. ولكنه، يلتمس موضوعاته أيضا فى الجحيم لا أريد أن أرسل هذا الكلام إرسالا. فقد يغضب العقاد".

ولست أخفى أننى قرأت للعقاد قصيدة لن ينقضى إعجابى بها وقد أقرؤها عشرين مرة أو ثلاثين، والسبب فى ذلك أنى أجد فيها كلما قرأتها. معنى جديداً أو معانى جديدة، ثم هذه الطرافة المدهشة، وتستطيعون أن تبحثوا عن مثلها فى الشعر القديم فلن تجدوا لها شبيها – هى طويلة، ولكنها على طولها قصيرة تبلغ مائتين وعشرين.

فإذا كان هذا هو رأى واحد من جبل العقاد فى شعره وهو الدكتور طه حسين، فماذا عن رأى الجيل التالى؟ إن واحدا من هذا الجيل وهو الدكتور شوقى ضيف يقول فى كتابه "مع العقاد" فى صدد الحديث عن العقاد: إنه ظل عَلَمًا لامعا يخرج الديوان تلو الديوان، وظلت تتلاحق أمواج نقده ودراساته الأدبية صادعة حجب التقليد دافعة بشعرنا إلى المجرى الجديد الذى تدفقت فيه مياه الحركات التجديدية لأجيالنا الشعرية التالية.

فكان العقاد بهذه الشهادة والسابقة عليها لا يعتبر علامة مميزة بالنسبة لجيله فحسب، وإنما أيضا بالنسبة للأجيال التالية.

ولكن بعد هذه النظرة الشمولية لشعر العقاد ورأى الأجيال فيها ما لنا لا نستأنس بما كتبه العقاد فى دواوينه تلك التى عرضها نقاد الأدب وأساتذته، وفى مقدمتهم الدكتور شوقى ضيف!

ما لنا لا نقدم هذه الدواوين ولو من حيث الملامح العامة فحسب، فقد تكتمل الصورة.. صورة أعمال العقاد الشعرية!

ودواوين العقاد عددها أحد عشر.. الأربعة الأولى وهى "يقظة الصباح"، "ووهج الظهيرة"، و "أشباح الأصيل"، و "أشجان الليل" يضمها مجلد واحد ديوان العقاد وبقية الدواوين، وهى على التوالى "وحى الأربعين" و "هدية الكروان" و "عابر سبيل" و "بعد الأعاصير" و "أعاصير المغرب" و "ديوان من دواوين" و "مابعد البعد".. كل من هذه الدواوين خرج منفرداً.

وقد رأى مؤرخو أدب العقاد ونقاده أنه فى هذه الدواوين جميعها، طبّق الشروط التى نادى بها فى مستهل حياته الأدبية، تلك التى تعنى بالغوص وراء المعانى الخفية، وعدم الوقوف عند المظاهر الحسية للأشياء والطبائع، حيث إن الشعر فيما يرى العقاد يستمد معظم مؤثراته وانفعالاته من وراء الوعى، وهو ما يعرف بمرحلة الإلهام فى الشعر. وليس لهذا الوعى عمل إلاّ عند النظم، كأن يختار الشاعر مفرداته التى تعبر عن المعانى التى يريدها، أو يستبدل لفظا بآخر حتى ينشئ وزنا وقافية يطلبهما، حيث

يكون من مجموع المفردات والمعانى يتم الإيقاع الموسيقى المصوِّر للجو الشعرى الذى بعيشه الشاعر وأثناء عملية النظم.

ولهذا فقد كان نظم الشعر عند العقاد يعمق الحياة نفسها، بل ويحقق الاستمتاع بهذه الحياة، ومثل العقاد فى ذلك كمثل إنسان عاش مفتوح النفس لمؤثرات الكون، تمتزج طويته، بطوية هذا الكون الكبير. وتتحقق له أجمل ما فى هذا الكون من لحظات، على الأقل أثناء عملية النظم الشعرى.

وبهذا الاستعداد الفطرى، والتهيؤ الطبيعى، كتب العقاد عشرات، بل مئات القصائد ليقدم لنا فى النهاية فنّا شعريا متفرداً تستيطع أن تميزه من بين إبداعات عشرات الشعراء غيره. ومن مجموع هذه القصائد كانت دواوينه التى أشرنا إليها فى هذه الصفحات.

فن المسرح

لم تكن للعقاد أعمال مسرحية قائمة بذاتها مع أنه كان يستطيع ذلك بشكل يدعو إلى الإعجاب، فالقارئ، المتابع لنقده وتقديمه بعضًا من المسرحيات يلمس بشكل واضح كم كان العقاد يعرف تكتيك هذا الفن. الأمر الذى دعاه يتحدى فى حديث صحفى أحد كتّاب المسرح الكبار قائلا: إنه قادر على كتابة مسرحية كتلك المسرحيات فى فترة لا تزيد عن الفترة التى يستغرقها فى حديثه مع هذا الصحفى، وتحديه المسرح الشعرى لشوقى وإعلانه أنه يستطيع أن يكتب مسرحية شعرية فى دقائق مثل التى كان يكتبها شوقى. وموضوعها شوقى ذاته.

بل والأكثر من ذلك للعقاد تجربة عملية فى المسرح حيث كتب مسرحية على لسان همام بطل روايته "سارة" كانت سارة نفسها هى البطلة وهى المتفرجة وهى الحكم على المسرحية. وقد شهد بنضوجها كتجربة مسرحية متكاملة الدكتور على الراعى. وهذا الحكم النقدى من ناقد كبير مثل الدكتور الراعى لا يمكن أن يمر مرورا عابراً، وذلك لسببين، أولهما: تخصص الدكتور الراعى فى النقد المسرحى ورسالته العلمية كانت فى هذا المجال خاصة. وثانيهما: أن الدكتور الراعى كان من جماعة

التقدميين و لم يكن من تلاميذ العقاد أو مريديه، بل على العكس كان الدكتور الراعى وغيره من الشبان التقدميين – وقتئذ – من المخالفين تماما لوجهات نظر العقاد. وقد عانى الراعى وجماعته الكثير من المتاعب من جراء موقف العقاد الرافض لهم. ولهذا فإن هذا الحكم النقدى للجانب المسرحى لدى العقاد له أهميته، خاصة لو كان من واحد من التقدميين.

وعلى الرغم من هذا... رغم استعداد العقاد للكتابة المسرحية، وعلى الرغم من أنه قدم ألوانا من الفنون لا تقل أهمية عن فن المسرح إلا أنه لم يترك عملا مسرحيا قائما بذاته يمكن أن يطاول بقية أعماله الخالدة. بل وكنا نستطيع أن نفاخر به الأعمال المسرحية العالمية. فللقارئ، أن يتصور أن العقاد الذى قرأ العديد من الأعمال المسرحية العالمية، كما اطلع وشاهد أغلب المسرحيات العربية وأبدى رأيا فيها بالسلب أو بالإيجاب.. للقارئ، أن يتصور أن هذا العملاق حين يقوم بكتابة عمل مسرحى، لا شك أنه سيكون عملا جديراً بالاحترام والتقدير.

فن السينما

وليست السينما بأكثر حظا من المسرح بالنسبة للعقاد.. حتى يعتنى بها ويخصص بعضا من وقته لكتابة أحد الأعمال السينمائية. بل يكاد يكون المسرح أكثر حظا حيث كان العقاد يتابعه. وكما سبق أن قلنا حاول أن يكتب له داخل روايته سارة. أما السينما فلم يحدث أبدا أنه كتب خصيصا لها. كما يفعل الكتّاب الآن، وفى مقدمتهم: نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس ويوسف إدريس.

إلا أنه حين تذكر السينما كفن وعلاقته بالعقاد ككاتب ومفكر وفنان، فإننا لا نستطيع تجاهل هذه المحاولة المشكورة التى قام بها أحد مخرجيها وهو عاطف سالم.. حيث شاقته وأعجبته رواية "سارة"، فأراد أن يقدمها كعمل سينمائى ضخم فالتقى بصاحب الرواية وهو "العقاد" وطلب منه الموافقة على ذلك.. وقد تم فى هذه المقابلة الاتفاق على العديد من الأمور التى تخص هذا العمل الضخم، وكما أعلنت الصحف فى اليوم التالى، بل والأيام التالية، فقد ظلت الصحف والمجلات تعلق على

هذا الحدث شهرا.. تقدمت أكثر من ممثلة للقيام بدور بطلة الرواية سارة حتى إن إحدى الأجنبيات "إسبانية" تقدمت هى الأخرى للقيام بهذا الدور. و لم يبق سوى الاتفاق على الشخصية التى تقوم بتمثيل دور البطل فى الرواية "همام" ولما كان البطل فى الرواية هو العقاد نفسه كما عرفنا. فالأمر أصبح محل مناقشة واختيار وانتقاء.. فمن كان يستطيع أن يقوم بدور العقاد فى ذلك الوقت؟! والأكثر إذا وجد من يرضى بالقيام بهذا الدور العظيم، فكيف يستطيع أن يقنع العقاد؟! فبالإضافة إلى أن شخصية العقاد كانت وما تزال محاطة بالتقدير والإجلال إلا أن الشخصية فى الرواية من الشخصيات التى يصعب تمثيلها على الشاشة.. فميدانها النفس البشرية بكل ما تنطوى عليه من خير وشر. والانفعالات الداخلية بها كثيرة فأصبح الإشكال فى اختيار الممثل الذى يستطيع أن يقوم بهذا الدور.

وتوقف المشروع بعد أن تحمست له شركات الإنتاج السينمائى.. مقدمة إمكانياتها المادية لتمويله.

والمشروع إن كان قد توقف إلا أنه قابل للمناقشة وإبداء الرأى من جديد، خصوصاً بعد أن زالت بعض المعوقات التى كانت تقف فى طريق تنفيذه بالصورة التى كان يرضاها ويتمناها العقاد. وأولى هذه المعوقات أنه أصبح لدينا العديد من الإمكانيات البشرية الفنية. فهناك عدد من فنانينا قادر على القيام بمثل هذا الدور على الشاشة. فقد سبق له القيام بهذا الدور فى تلك الروايات التى تقوم على الحوار الداخلى والتى تهتم كثيرا بتطبيقات الدراسات النفسية، كما أن هناك عددا مماثلا إن لم يكن أكثر من الفنانات ممن يستطعن وبإجادة القيام بدور بطلة الرواية "سارة" بالطريقة التى وصفها بها العقاد. وفى أنها ليست امرأة فحسب، بل هى امرأة ونصف امرأة وأنها حزمة من النساء تسمى امرأة إلى آخر هذه الأوصاف والنعوت التى كتبها العقاد ليقدم لنا شخصية متكاملة تكاد تكون ماثلة أمام أعيننا.

وهناك إلى جانب الإمكانيات البشرية الأخرى من مخرجين ومصورين وكتّاب سيناريو، هناك إمكانيات مادية قادرة على التمويل بهدف أنها تقدم عملا فيه رسالة وليست تجارة بعد أن أصبح للسينما هيئة عامة تستطيع الإشراف والتنفيذ والقيام بهذا

العمل العظيم، وليست شركة يديرها فرد يؤثر الربح حتى ولو كان على حساب العمل الفنى نفسه، ولهذا فالباب مازال مفتوحا أمام السينما لكى تتقدم وتخرج فيلما للعقاد وعنه، أسوة بما تفعله الآن حين قدمت فيلما عن طه حسين، وتحشد له كل الإمكانيات الفنية والمادية.

الباب مازال مفتوحا أما السينما العربية بعد أن شاهدنا على الشاشة قصصا لكتّاب وصفيين وآخرين نفسيين مثل: دماء ورمال، والغاوية للكاتب الإسبانى لبلاسكو أبانيز، والانتقام لبول بورجيه، ودوريان جراى لاوسكار وإيلد.. لقد رأينا إضافات لا تخطر على بال، ولكنها فى صميم الموضوع الذى تعبر عنه هذه القصص.

وإذا أرادت السينما العربية أن تقدم العقاد الذى يمثله همام فى الرواية. فهذا باب واسع متشعب يحتمل شتى الصور والأحداث، فما ظن القائمين على هذه السينما بحياة كاتب كبير عاصر شتى الأحداث وامتحن بكثير من المشاق والآلام وجاهد، وكان فى مقدمة المجاهدين.

وما ظنهم "بحب" يأتى وسط هذه الزعازع والأعاصير، فيمضى فيه بطل القصة إلى نهاية الشوط ولم تهتز فى يده راية الجهاد، بل يؤيد الحب إيمانا بالدفاع عن الحق وصلابة فى التمسك بأهدابه.

هذه الظلال القوية جديرة باهتمام السينما العربية، فضلا عن أحداث القصة التى تُشوّق كل قارئ، وتخطف انتباهه.

والجدير بالذكر فى حديثنا عن الفن السينمائى عند العقاد، أنه منذ رحيل العقاد، حتى كتابة هذه الصفحات، والأنباء تطالعنا بين آونة وأخرى بخبرٍ أصبح تكراره ممجوجا، وهو أن هناك اتجاه لتحويل رواية سارة للعقاد إلى فيلم سينمائى، وينتهى الأمر عند هذا الحد، دون أى اهتمام يذكر من مصدر هذا الخبر أو حتى ناشره الذى ينبغى أن يتابع تحققه ومصداقيته.

هذا الأمر يدعو إلى الدهشة والعجب، حيث إن رواية سارة للعقاد لا تقل عن

هذه الأعمال الأدبية الهابطة التي تختارها السينما لتحويلها إلى أفلام كانت هي السبب المباشر في نكسة السينما المصرية بجدارة، ويتفرد ملقطع النظير.

فنون تشكيلية:

في بيت العقاد لوحة غريبة.. هي عبارة عن تورتة يعف عليها صرصور إلى جوار برطمان به عسل النحل وعدد كبير جدا من الذباب يطير ويتساقط على التورته والعسل.. والناظر إلى هذه اللوحة الشاذة يدرك كم كانت اهتمامات العقاد بالفنون التشكيلية كمؤثر قوي في النفس الإنسانية.

فهذه اللوحة الغريبة والشاذة أصر العقاد على أن تطارده في غرفة نومه وحجرة طعامه فيراها ساعات كثيرة من كل يوم.. ليزداد كرها وعزوفا إن لم يكن قرفا.. لما ترمز إليه هذه اللوحة.. وكان يرمز بها إلى المرأة اللعوب التي يشتهيها الرجل.. ويجد من مكونات هذه اللوحة سندا ماديا يقوي عزوفه واحتقاره لهذا النوع من النساء، واحتقاره لنفسه إذا هو فكر ولو لحظة واحدة في أن يكون شريكا لصرصور أو ذبابة في حبها.

هذه السطور تؤكد اهتمام العقاد بالفنون التشكيلية، وكيف أنها شغلت حيزا كبيرا من اهتمامه فلم تصرفه قضايا الأدب والسياسة عن متابعة تطوراتها في مصر أو في العالم كله، وظل موقفه محددا من هذه الفنون بشكل يمثل خطا متصلا في فكره وسمة من سماته.

والقارئ، لبعض كتب العقاد الخاصة بالفنون والآداب يلحظ اهتمام العقاد بالفنون التشكيلية عامة وبتحديد معنى الجمال في الفن والحياة والربط بينهما.. فالفن عنده دائما صنو الحياة، وفكرة الجمال في الحياة هي بعينها فكرة الجمال في الفنون كلاهما مناطه الحرية، لهذا كان مناط الجمال عند العقاد هو تغلب الحرية على الضرورة. وهذه الفكرة هي الجمال في الحياة وفي الفنون كلها.. ولكن الحرية ليست بالفوضى التي لا يمازجها نظام، ولا يحيط بها قانون. فلا عجب أن يمثل الفن قيود الجمال وأنظمته، كما يمثل حريته وانطلاقه. وأن نرى الفن

حافلا بالأذواق والأوضاع كما نراه حافلا بالتطلع والرجاء. فحرية الفن تستلزم الاختيار والمشيئة. وهى وسيلة تتمثل فى التغلب على العوائق الفنية واستلزامها بتلك القيود.

ومطلب الحرية فى الفن باعتبارة مناط الجمال.. يستدعى مطلبا آخر يلح العقاد فى توافره ليكون العمل فنا حقيقيا كاملا.. ذلك هو مطلب الصدق باعتباره جوهر الجمال وقوام الذوق.

والصدق فى مفهوم العقاد هو الصدق الفنى الذى يلتزم الجوهر، ويمثل الحقيقة السامية فى أى شكل محسوس، وهذا الصدق يتطلب الأداء الجميل المحكم.

وإصرار العقاد على مطلب الصدق يدعوه إلى أن يهاجم البهرج باعتباره زيفا يحجب صدق الإيحاء فى العمل الفنى. فهو كلف بالمعانى النفسية وبالالتفاتة الخاصة يتطلبها فى الشعر كما يتحراها فى الفنون التشكيلية.

ومن خلال نظريته هذه فى الفنون لا يرى أنها مطالبة بأن تعرض نفسها على الناظرين ليلتفتوا إليها حين يشاءون بلا جهد ولا استعداد.. وإنما هى تحتاج إلى التأمل والانتباه والجمال إن كان سهلا معجبا وليسس معنى السهولة فى جمال الفنون أن تكون رخيصة مباحة لكل من يرمقها بجانب عينه. ولكن معناها أنها سهلة لمن يستعد استعدادها ويبذل فيها ثمنها، وبديهى أن لا تتوقف إسهامات العقاد فى الفنون عند الحدود النظرية والتأكيد على ضرورتها فى حياتنا وبأنها ليست من الكماليات وإنما يتجاوز هذه الحدود إلى مجالات النقد والتقييم. فينشأ لديه وجهات نظر لكل ما تصافحه عيناه من فنون.. فنلمح من بين آثاره وأعماله آراء نقدية وتقييمية لكل ما تقدمه الأذواق الفنية فى مصر أو فى خارجها.

فها هو يحدثنا مثلا عن "روبنس" بمناسبة مرور ٣٥٠ سنة على ميلاده فيقول: "إنك لا تجد فى مئات الصور التى تنسب إليه أثرا بارزا للخيال الرفيع أو للعطف السوى، أو للتذوق اللطيف، وإنما يستوحى الرجل رأسه لا قلبه، وحقائق العيان لا نوازع الخيال، ولا يستثنى من هذه الخلة إلا قليل من الصور التى رسمها لبنيه أو

لزوجته أو لأقربائه، فإنك واجد فى هذه عطفا حيا لا تجده فى غيره، وإحساسا رقيقا لا يطالعك فى رسومه الكبيرة أو الصغيرة من وجوه الناس ولا من محاسن الطبيعة".

وعن المرأة فى فن روبنس يحدثنا العقاد فيقول: المرأة عنده امرأة ولادة ومتعة. والنظرة التى ينظر إليها نظرة شهوانية، ولكنها بريئة فى المرض والحس المخبول. وحياته كلها حياة عمل وحصافة سواء أكان عمله هذا فى معارض السياسة أم على لوحة التصوير.

ويحدثنا عن جورج رومنى فيقول: أما فن رومنى فجملة ما يقال فيه، إنه كان أقدر مصور فى زمانه على اختطاف اللمحة البارقة على الوجوه وتقييدها بالريشة والظلال، أو أنه كان قديرا على إخفاء قدرته العظيمة وراء الملاحة المحببة التى يسبغها على وجوهه وشخوصه، ولكن تلوينه لا يجارى تلك القدرة فى البراعة والإتقان. ولا ينم على الذوق اللطيف الذى تنم عليه دقته فى أداء الملامح وتسجيل خفقات الشعور على صفحات الوجوه.

وحين يحدثنا العقاد عن صورة لقبها عند صديقه المصور "شعبان زكى" بالمطرية بين ودائع كثيرة للفنان محمد حسن الذى كان يتم دراسة التصوير فى المعاهد الإيطالية، والصورة التى استحوذت على إعجاب العقاد تمثل أرملة على قبر زوجها أعجبه منها براعة اختيار الفنان للموقف ودلالة المحتوى النفسى للوحة.

يقول العقاد: "انظر كيف اهتدى مصورها البارع إلى الوجه الوحيد الذى هو أجمع لمعانيها وأليق بموضوعها وأشبه بحظها من الوقار والجمال".. الفتاة الحزينة لم يبدها فى صورة التفجع والقنوط كما يلاحظ العقاد" إن الفنان كان وشيكا أن يضع المنديل فى حيث يكون البكاء، ولو أنه فعل ذلك لما لامه أحد من الذين يطالبونه بحرف التصوير ولفظه، ويغفلون عن غرضه ومعناه، لكونه كان يحجب عنا وجها حزينا لبرينا قطعة من القماش المبلول، وكان برينا البكاء عملا ماديا قوامه الجفون والأهداب وقطرات الدموع، ولا يرينا إياه حالة فى النفس يستحضرها الخيال بما يقارنها من الأشجان والحسرات والإجهاش والانفطار.

كذلك يشير العقاد إلى اختيار الفنان لوقفة الفتاة على الضريح، وأنه لم يجعلها مستندة إليه أو جالسة إلى جواره. ولكن وقفتها فى حذار وشجن إلى قبلة خطواتها المنعلة ومطمح طرفها الكليل، والتى هى بحركات النفوس المعنوية أشبه عنها بحركات الأقدام والأجسام وعلى البعد السحيق الميئوس منه أدل منها على القرب المائل الميسور، بل هو كان يطمس معالم تلك الخطوة المتروكة التى هى على قربها تمثل لك بعد الهاوية المستحيلة بين الحياة والموت، وبين الحزين القائم على الثرى والفقيد المغيب تحت التراب.

ويمضى العقاد على هذا النحو مركزا على الحركة النفسية والمدلول الأدبى للوحة. فى حين نراه فى نقده للشعر أكثر استقصاء للصورة التشكيلية يرى أمامه عناصرها التى تتم بها من جميع نواحيها – عنصر المنظر كله وعنصر اللون وعنصر اللمس وعنصر الوقت الذى تراها فيه وعنصر الموقع وعنصر الحركة، وما إبرازه للصورة فى وصف ابن الرومى لحقول الكتان وتركيزه على عناصر تشكيلية كاللون الأخضر والملمس الناعم واستعانته على استجلاء كمال الحسن فى شعر المتنبى بأدوات التصوير إلا أمثلة لمطلب الصورة فى الشعر عنده، وهو فى نظره للوحة يغلب عليه أحيانا حس الأديب، وفى تأمله للصورة الشعرية فى القصيدة يغلب عليه حس الفنان.

على أن العقاد حين يتناول فلسفة فن معين فى شمولها يكون أكثر نفاذا. كان يتناول فلسفة الفن المصرى القديم وفضائله أو مميزات الفن الإفريقى فى صدقه ووصف الطبيعة وصدق الشعور بها.

على أن من مواقف العقاد النقدية الثابتة موقف الرفض الدائم للفنون الحديثة وهو موقف ليس بجديد عليه، بل إنه يتضح منذ سنة ١٩٢٨ حين يقام المعرض الفرنسى فى القاهرة، فيكتب مقاله "فن التصوير بين القديم والحديث"، ويقول فى هذا المقال:

فى المعرض الفرنسى الذى يقام الآن فى القاهرة حجة للقائلين، بأن تقدم الفن غير تقدم العلم، وأن سنة الارتقاء لا تسرى على التصوير خاصة سريانها على الصناعة والاختراع. ففى الصور التى رسمها عباقرة التصوير قبل مائة سنة ما هو أجمل وأفخم

وأدل على القدرة والأستاذية من أحدث الصور التى ابتدعتها قرائح المعاصرين، ولو جاز لنا أن نوافق أو نخالف أحدا من الناقدين. لقلنا إن "الأمير شترم" الذى لهج به المصورون فى هذا العصر يهبط بالفن كلما تمادى إلى حيث يكثر فيه الادعاء ويضعف المرجع المطلع عليه ويصبح الشذوذ هو القاعدة، والقاعدة هى الشذوذ.

ثم يستطرد فيقول: "فالمصور الحديث الذى يجرى على أسلوب الإحساسيين المزعوم يريد أن يتخذ له لونا وسحنة بارزة فى جميع مصنوعاته كل البروز، فيوشك أن تقارب حدود الكاريكاتور وتلح على الأذواق إلى ما يخالطها بالضجر والنفور. وقلما نرى فيهم من يحرّف الأشكال والألوان ليكون التحريف أدل على المعنى وأبعث على توجيه الفكر إلى ناحيته المقصودة، وإنما هم يحرفون الأشكال والألوان لتدل عليهم وتؤخذ عند النظر إليها مأخذ العلامة الشخصية التى يتفردون بها، والإحساسية فى هذه الحالة هى مجرد المخالفة للآخرين على نمط يستطيع به كل من يبغى الخلاف والشذوذ".

ويسوق العقاد أمثلة يؤيد بها نظرته فيشير إلى لوحة "لكوربيه" مع الكلب الأسود كانت من معروضات المعرض ويتأمل فيها من الدلائل الشخصية ومن التميز دون الافتعال ما يؤيد تميز الشخصية دون حاجة إلى البدع الفنية ويقول: "إن فى أسلوب النظر واختيار الموضوع وتنوع الأداء وانتشار المعانى متسعا لإظهار الإحساسية والشخصية ما يغنينا عن التعمد فى التلوين أو التعسف فى تخصيص الملامح، أو المبالغة فى الاتكاء على ناحية من النواحى، فإننا إذا تمادينا فى اختراع الألوان والمواقف على هذه النماذج الحديثة فنحن خارجون لا مناص على البهرج أو "الفانتزية" مضيعون جمال الإنسان بتلك التجزئة التى تذكر الناظر بعوائد التشريح، فليكن الفن كاملا حتى ينحصر فى أداء لمحة خاصة أو دلالة مقصودة. أما أن نأخذ لنا جانبا تتعلق عليه بقية الجوانب كما يتعلق الجسم المشلول على أعضائه الساعية فذلك اقتصاب لا يشبع حاسة الكمال والإتقان التى هى جماع روح الفنون، وأما أن توكل الحواس بالغرائب والتهاويل فذلك مضيع لنزاهة البساطة التى هى لب لباب الجمال".

وفى مجالات نقده للفنون لا يستخدم الإحساسية بمفهوم واحد يقابل التأثرية، ولكنه يستخدم العبارة وفق مدلولها كتعبير عن الشعور والإحساس، ويرى بين أهل الفن إحساسيين يشعرون داخل الشئ وجوهره ويعبرون عنه وهذا هو الفن، وإحساسيين يأخذون من الشئ عوارضه ويقطعونه أشلاء ويخرجون عن انضباط القواعد، وهذا هو ما لا يناصره.

وهنا الذى يراه العقاد فى الفن التشكيلى مقابل لرأيه فى الشعر. فالشاعر العظيم عنده كما جاء فى (الديوان) هو "من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها وألوانها. ومزية الشاعر ليست فى أن يقول لك عن الشئ ماذا يشبه، وإنما مزيته أن يقول ما هو؟ ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به".

ويناقش العقاد بعد ذلك بعض مذاهب الفن العصرية ويضع لها أسماءها المستقبلية والتقسيمية والتعبيرية والوحشية، ولكنه يراها جميعا شذوذا عن سنن المدرسيين فى الأصول العامة، وهو يندد بما قاله "مارينيتى" حين زعم أن الفن يجب أن يرسم الأشياء فى الزمان لا فى المكان وحده. وما أدى به زعمه إلى أن يرسم أذرعا خمسة أو ستة للرجل الذى يحك رأسه لأنه يؤديه بذلك أداء صادقا فى أزمانه المتتابعة.

وهذا الذى ردده العقاد من هجوم على الفن الحديث فى العشرينيات ظل أمينا له فى كتاباته، فهو فيما بعد يصف هذه الفنون بأنها ألغاز وأحاج. كتلك التى تنشر فى صحف التسلية من الحروف المتقطعة والأرقام المثلثة أو عن العيون التى ليس لها آناف، والآناف التى ليس لها عيون بل هو يرى للألغاز والآحاجى تفسيرا يتفق عليه كل من يفهمها بلا استثناء، فى حين لا يرى فى البقع والخطوط والأصباغ الحديثة اتفاقا على فهم بين طائفة من الناس، وبذلك تحولت الفنون من لغة إنسانية عامة إلى خرافة سرية فى ذهن رجل واحد.

كذلك هو يهاجم ما يزعمه أهل الفن تصويرا للوعى الباطن أو السيريالية. وفى مقالاته الأخيرة يقول: "إن السيريالية وما إليها من تلك التقليعات هى "موضات" من قبيل عمائم الأمريكيات فى العصر الحاضر.. السيريالية اليوم هى على الأقل عاشرة

الموضوعات التى ظهرت من قبلها بعد الحرب العالمية الأولى. فلا فرق بين التكعيبية الهوجاء أو الوحشية أو النقطية أو العرضية أو التعبيرية أو اللاتعبيرية أو التأثرية الجديدة أو اللاتأثرية أو أية كلمة تتبعها الباء والتاء من صيغ "المذهبية".

وهو يؤكد فى هذه المقالات فارقا هاما بين التطور، والموضة. فالتطور عمل مستمر تتوالى حالاته على التتابع نتيجة حيوية لما تقدمها. ولكن الموضة على خلاف التطور عمل متقطع متقلب يغلب فيه تعمد الغرابة والمخالفة وكل ما يلفت النظر إلى حين.

وموقف العقاد من هذه المذاهب فى التصوير الحديث يقابله موقفه من الشعر. فهو وإن نادى بوجوب عدول الشعر عن حماقة الوصف المحسوس إلا أنه ينعى على الشعراء الرمزيين غلوهم فى رموز الباطن وأحاجيه.

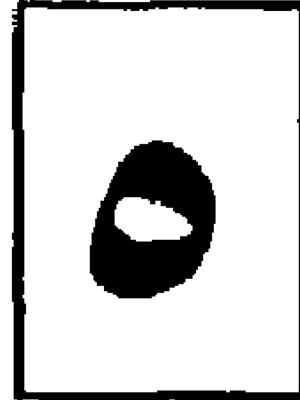
فهذا الضرب من السيريالية ينكره فى الشعر كما أنكره فى التصوير والرمزية التى مارسها شاعراً.. هى الرمزية التى تقف عند حد الاعتراف بالخفايا والأسرار، وترجمة لغة الفكر إلى لغة الحواس وميزان الصدق فيها أن يكون الرمز ضرورة لا اختيار فيها.. هذه الرمزية مارسها العقاد فى أشعار "ترجمة شيطان"، وإن عدل عنها فى "أعاصير مغرب" "وبعد الأعاصير".

ويرى بدر الدين أبو غازى فى حديثه عن العقاد والفنون التشكيلية – أن موقف العقاد من الفن الحديث أيا كان الرأى فيه. موقف متماسك صادر عن منهجه، ومطلبه من الفن مطلب الصدق وما يقتضيه من وضوح الفهم واستقامة البناء واستواء القواعد والمقاييس وهذا يجعله يقف موقف الرفض من كل عمل فنى لا يقوم على قاعدة أو يغلب الغموض على وضوح الفهم أو يضطرب فيه إدراك المعانى. فالأشكال فى نظره لا تعجبنا وتؤثر فى نفوسنا إلا لمعنى تحركه أو لمعنى توحى إليه.

على أن العقاد لم يعالج الفن قضية ومذهبا ونقدا فقط. وإنما كان للفنون التشكيلية مكانها الحميم فى حياته، فمحيط أصدقائه كان يجمع بعض أهل الفن الذين يؤثرهم بمحبته ووده.. وكان الفنان أحمد صبرى مقرر مجموعة من أصدقاء العقاد تتلاقى فى حديقة الحيوان كل أسبوع أطلق عليها اسم مجموعة الحديقة، وترك لأحمد صبرى

اختيار اسم حيوان لكل فرد منها. وكان من أفراد هذه المجموعة صلاح طاهر، كما كان له صداقات بحامد سعيد وشعبان زكى إلى طائفة أخرى من أصحاب الفنون كالشجاعى الموسيقى وأحمد علام ومجموعة من الشعراء والأدباء.

وقد حفظ العقاد فى بيته إلى جانب مكتبته الضخمة ومجموعته الموسيقية العظيمة مجموعة من اللوحات التى يؤثرها بحبه وتدل على ذوقه.. لوحته الشخصية من عمل أحمد صبرى وكان يرى فى أعماله البقية الصالحة من فن التصوير المصرى.. ولوحة "أنس الوجود" للفنان هدايت، وكان يعجبه منه دلائل القدرة على الرسم والافتتان بالأنوار والظلال.. ولوحات من عمل المصور شعبان زكى الذى كان يرى فيه فنانا ينظر ويحلم ويسبغ من أحلامه كثيرا على المناظر الطبيعية أو الحوادث التاريخية التى يسجلها. ولوحة للفنان لبيب تادرس من طلائع فنانى الجبل الأول وصورة زيارة القبر للفنان محمد حسن التى خصها بمقالة فى ساعات بين الكتب.. وصورته الشخصية بريشة صلاح طاهر، وللعقاد إزاء هذه الصورة لمحة ذكية، فهو يرى الفنان فيها قد مثل القابليات قبل تمثيل الملامح والمحسوسات، فليس فى الصورة حالة محسوسة عنى بها دون غيرها، ولكن ما من حالة تدل على النفس إلا نظر إلى الصورة فرآها قابلة لها موافقة للتعبير عنها. وهذه عنده هى ملكة الإيحاء التى تشترط فى جميع الفنون.



خامسا : العقاد موقف لا يتغير

- فارس المعارك الفكرية والسياسية
- مع الحرية ضد الرصاص
- مع الإسلام ضد التطرف
- الليلة التى لا تشبه البارحة

فى البدء كانت الكلمة...

هذه الكملة حين تكون صادقة وشريفة، هى وثيقة آدميتنا، هى فرقان بين نبى وبغى، هى فاصل بين العدل والظلم، هى حد بين الحق والباطل.

وبهذه الكلمة الصادقة الشريفة، يستطيع صاحبها أن يتبوأ مكانه بين العليين والشهداء والصديقين فى أمته.

والتاريخ حافل بالعديد من الأدباء والعلماء والمفكرين، ممن كانت أداهم ووسيلتهم الكلمة، وكان من نصيبهم السجن والنفى، وربما الموت، بسبب إيماهم يصدق كلماتهم التى كانت كثيرا ما تواجه قوى مرئية، وأخرى غير مرئية، حتى أصبح صاحب الكلمة أول ضحية لما يؤمن به ويعتقد.

وبهذه الكلمة الصادقة الشريفة خاض الراحل عباس محمود العقاد بقلمه معارك فى السياسة والأدب والفكر، كما يخوض الفارس بسيفه معارك الحرب بكل ما تعنى من دلالات ومعان، إلى درجة أن العصر الذى وجد فيه العقاد إن ألقى بسؤال عن فارس معاركه. لكان العقاد هو فارسها بلا منازع.

هذه المعارك السياسية والأدبية والفكرية، التى خاضها العقاد كانت من الكثرة بحيث يصبح تتبعها ورصدها، تكليفا للنفس بما لا تطيق، هى أشبه ما تكون بعالم لا أول له، ولا آخر. وذلك لتعددها وتغرعها وتداخلها وترامى أطرافها فى كل جوانب الحياة" حتى أصبح لزاما على مَنْ يرصدها أن يتجاوز منطقة الإلمام الخاطف السريع إلى منطقة الرصد العلمى الدقيق.

إن أسلوب الباحث فى تسجيله لمعارك العقاد، يتحول من مجرد التذكر والنظرة السريعة، إلى التأمل والحكم النقدى الذى يعطى العقاد ما يستحقه، خاصة وأن مَنْ

يقلل من قيمة العقاد نفسه، ويذهب فى ذلك مذاهب شتى، جميعها تتنكر لفضل هذا الرائد، إن بقصد أو بغير قصد، والعجيب أن يكون من بين هذا البعض مَنْ يريد تصفية حسابات قديمة، ولا معدل ولا مناص والأمر كذلك. من أن لا يتجرد من نظرته الحزبية أو الأخرى المذهبية، منتهزًا غيبة الرجل، ورحيل أغلب شهود العيان من معاصريه، ممن تكون لديهم صلاحية الحكم أو حتى التصحيح.. هذا إلى جانب خلو الساحة الثقافية بوجه عام من القادرين على التقصى والبحث، وإن وجد نفر قليل منهم، فقد تفرقهم شواغل الحياة وظروفها، عما يقتضيه واجب البحث عن التتبع لهذه المعارك فى مظانها، وأماكن وقوعها.

يضاف إلى ذلك ازدياد أعداد الذين يطلبون الشهرة على حساب صاحب هذه المعارك/، فيستهدفونه بهجمات طائشة أحيانا، شخصية فى أحيان أخرى، غير واعية فى أغلب الأحيان.. مما يؤول ما كان يقصده العقاد أو يهدف إليه فى معاركة إلى مقاصد وأهداف بعيدة كل البعد عن سياق هذه المعارك أو حتى المناخ الذى احتواها فى النصف الأول، وسنوات من النصف الثانى للقرن العشرين.

لقد كانت هذه المعارك فى مواجهة قوى واتجاهات، مذاهب وأحزاب، سياسات وأفكار، تمتد من أقصى اليمين حيث السلفيين والإخوان المسلمين، إلى أقصى اليسار حيث الاشتراكيين والماركسيين، ويكفى أن نذكر بعض رموز هذه المعارك، فمن مثلوا الطرف الآخر فى مواجهة العقاد لتبين عنف وحدة وضرارة هذه المعارك.

ولذلك فإن دراسة معارك العقاد الأدبية والسياسية والفكرية، فى صفحات أو حتى فى فصول، إن لم تكن فى كلمات أو سطور كما قلت تكليف للنفس بما لا تطيق، وذلك حين تتجاوز هذه الدراسة منطقة الإلمام العابر، إلى حدود الرصد العلمى..

فهذه المعارك الأدبية والفكرية والسياسية، التى وقعت فى النصف الأول من القرن العشرين، والتى كان طرفها وفارسها العقاد.. فى مواجهة أطراف أخرى. من المؤكد أن لها وزنها وتقديرها فى تاريخنا الأدبى والفكرى والسياسى الحديث.. نذكر من هذه الأطراف، فى الجانب الأدبى والفكرى: مصطفى لطفى المنفلوطى، ومصطفى صادق

الرافعى، وطه حسين، وسلامة موسى، وجميل صدقى الزهاوى، والشيخ على يوسف، وأمين الرافعى، وزكى مبارك، وزكى أبو شادى، وتوفيق دياب، وتوفيق الحكيم، ومحمد كامل حسين، وأمين الخولى، ومحمد مندور، وبنت الشاطئ، وعبد العظيم أنيس، ومحمود أمين العالم، وإبراهيم مدكور، ورشاد رشدى، وصلاح عبد الصبور، ورجاء النقاش، وأحمد عبد المعطى حجازى وغيرهم..

وفى الجانب السياسى نذكر من هذه الشخصيات التى كانت طرفا فى معارك العقاد: الخديو عباس حلمى، والملك فؤاد، والملك فاروق، والزعماء: مصطفى كامل، وسعد زغلول، ومصطفى النحاس والسياسيون الباشوات: محمد محمود، ومكرم عبيد، وعدلى يكن، ومحمد حلمى عيسى، وعبد العزيز فهمى، وأحمد ماهر، وحسن نشأت، وأحمد زيوار، وأحمد نجيب الهلالى، وأحمد عبود، والمعتمد البريطانى فى مصر وغيرهم.

ولعلنا نخرج من هذه المعارك الفكرية والسياسية بحقيقة مؤداها أن العقاد ونفرا قليلا من أبناء جيله أرسو شرعة جديدة للنقد، والأكثر أنهم أثرو الحياة الثقافية والسياسية بالكثير من المبادئ، التى كانت سبيلا إلى نهضتنا الثقافية ووعينا السياسى فى النصف الأول من هذا القرن. وأنها حركت حياتنا الثقافية من الركود إلى الحركة، وحياتنا السياسية من الغفلة إلى اليقظة.

ومن عجيب الأمور أن يكون العقاد وحده طرفا فى كل هذه المعارك فى مواجهة كل هذه الشخصيات.. حتى إنه ما يكاد ينتهى من معركة إلا ليبدأ معركة أخرى، ولهذا لم تعرف حياته سكونا ولا هدوءا. وكيف تسكن أو تهدأ حياة نذر صاحبها نفسه لهدف جليل هو الانتقال من عصر التخلف والجهل، إلى عصر التقدم والعلم، أو من عصر السطحية والسذاجة، إلى عصر يسوده العلم بدقته وموضوعيته.. لقد كانت الرسالة عند العقاد ونفر قليل من أبناء جيله، ليست فى أن يزيدوا المعرفة بمعرفة من جنسها، بل الرسالة كانت عندهم هى فى أن يغيروا من نوع المعرفة وينقلوها إلى أسلوب جديد، أو بمعنى آخر كانت رسالتهم

تتلخص فى نقل الفكرة أدبا كانت أو سياسة من طرازها القديم المتهالك إلى طراز جديد نابض بالحركة والحياة.

ولهذا لم يبالغ العقاد أو يسرف فى القول حين سئل عن الفرق بينه وبين برنارد شو، وأيهما الأفضل حين أجاب: "برناردشو واقف على أكتاف خمسة أو ستة أجيال من الثقافة الأوروبية على العموم، والثقافة الإنجليزية على الخصوص. وأنا قائم على قدمى لأن ثقافتنا الحديثة لا ترجع إلا لأكثر من جيلين..".

ولم يكن مبالغا أو مسرفا فى وصفه لنفسه قائلا: لم أتأثر بأحد لأننى أردت أن أكون أنا نفسى"!

ولم يكن غيره مبالغا أيضا فى تقديره. حين قال عنه زعيم الأمة سعد زغلول: "أديب فحل، له قلم جبار ووطنية صافية واطلاع واسع"، أو حين قال عنه عميد الأدب العربى طه حسين مخاطبا إياه: تألق نورك بين مواطنيك منذ شبابك الأول حتى تجاوز وطنك وأشرق على العالم العربى".

وإذا كان لكل كاتب حقيقى هدف. فقد كان هدف العقاد إيجاد صيغة أو نغمة جديدة لثقافتنا وتفكيرنا السياسى. وهذا الهدف شغله طوال حياته، وخاض من أجله العديد من المعارك الطاحنة ولاقى فى الوصول إليه الكثير من مصائب الدهر التى تنوء بحملها كوكبة من الرجال، وتعرض بسببه لألوان من محن الحياة ونكباتها.

والحق أقول: إن العصر كان فى حاجة إلى رجال من طراز العقاد وطه حسين وجيلهما ممن أخذوا على عاتقهم مهمة التنوير العقلى والوجدانى. إن زمانهم كان فى حاجة إليهم كرجال يعيشون الحاضر بعقل الماضى، ولا يترجمون الحقيقة والواقع بلغة الوهم والخرافة، ولا ينظرون إلى الأمور من ثقب مصالحهم الخاصة بقدر ما ينظرون إليها من باب المصلحة العامة.. رجال يقال عن الواحد منهم عند وفاته: "لقد شيعنا عصرًا بأكمله.. ممثلا فى هذا الذى ودعناه بالأمس".

ففى العصر الذى ظهر فيه العقاد، والذى امتد من الربع الأخير من القرن التاسع عشر إلى بداية الستينات، كانت مصر تموج بالأحداث التى جعلت الكثيرين يتحولون

من مجرد أدباء وشعراء إلى كتاب سياسيين ومفكرين.. فأفرزت العقاد وطه حسين وهيكل وغيرهم. ومن الطبيعى أن تدور أكبر المعارك الأدبية والسياسية نتيجة لهذه الأحوال التى تمر بها البلاد، فلم تكن هزيمة التيار الوطنى - ممثلا فى اخفاق الثورة العرابية - وبداية الاحتلال الانجليزى تجعل الأدباء والكتاب الوطنيين يحيدون عن المعنى العام الذى بدأ يغزوا عقولهم ونفوسهم وضمائرهم، و لم يكن هؤلاء الذين وهبوا أنفسهم لمهنة التعبير بعاجزين عن أن يجعلوا جهودهم مليئة بالأحلام العريضة فى غد أفضل. لم يكن تفكيرهم الذى اتجه إلى التحرر من القيود المفروضة عليهم فى حاجة إلى أن ينسب إليهم قصورا جديداً هو عدم تطعيم العقل المصرى بكل ما هو نافع ومفيد من الثقافات الأجنبية، ولمن يكن العقاد الذى فتح عينيه على هذه الأحداث الجسام بمعزل عن المعركة. وقد امتلك أدواتها وأولها القدرة على التفكير والتغيير. و لم يحدث أن يكون له موقف سلبى مما يحدث حوله سواء فى الثقافة السياسية. لم يكن هذا الكاتب الذى اتسم بشخصية المقاتل الصنديدى أن يتخلف عن المشاركة بقلبه فى الأحداث التى يضطرم بها وطنه. و لم يسعه وقد شب هكذا مبارزاً - فى حلبات المعارك - مستمدا شجاعته من نخوته وبائه.. إلا أن يتقدم الصفوف معلنا رأيه دون لف أو دوران.. فى مواجهة أى إنسان حتى ولو كان مليك البلاد وسلطانها.

ومن العيجب أن يختار العقاد لنفسه هذه المهمة وهو لا يحمل لقبا علميا يحميه، أو جاها عريضا يعزه، أو ثروة طائلة يستند إليها.. والأعجب أنه وهو على هذا النحو لا ينافق سلطة، ولا يتمسح بمذهب، ولا ينتسب إلى جماعة تحت الأرض أو فوقها.. فهو يحارب الشيوعية كما يحارب الرأسمالية، ويحارب الاستعمار كما يحارب التبشير، ويحارب الإلحاد كما يحارب أدعياء الدين، ويحارب الصهيونية كما يحارب النازية، ويستوعب الآداب العالمية ويهضمها، ثم يتخذ منها موقفا انتقاديا، حيث يرفض أغلبها، ويتفق مع أقلها، يكون لنفسه رأيه الخاص. ويرجع إلى أجداده من العرب الأقدمين يتعاطف معهم لكن دون تعصب أو انحياز.. ويرى موقفه فى كل ذلك أرضا صلبة يعيش عليها حيا أو ميتا.

والآن هل نحن فى حاجة إلى الإشارة إلى هذه المعارك فى جانبيها الفكرى والسياسى؟

ربما.. مثلا تعتبر معركته مع أديب العربية الرافعى من أعنف المعارك الفكرية التى خاضها العقاد. هذه المعركة بدأت من حيث أعلن العقاد عن اضطراب القياس عند الرافعى وطبيعى أن يرد الرافعى فى عدة مقالات تحت عنوان "على السفود" ليرد العقاد بعنف قائلا: "إيه يا خفافيش الأدب، أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكن الضئيلة.. لا هوادة بعد اليوم.. السوط فى اليد وجلودكم لمثل هذه السوط خلقت، وسنفرغ لكم أيها الثقلان".

أما معركته مع أمير الشعراء أحمد شوقى فقد أفادت الأدب، حيث استحدثت شرعة جديدة للنقد ابتدعتها مدرسة الديوان. ورغم عنف هذه المعركة وتصدى الكثيرين للعقاد متعاطفين مع شوقى، غير أن العقاد لم يكترث، حيث أعلن أن شعر شوقى معين ليس بدل على مزية نفسية أو صفات شخصية.. وأن المتصفح لهذا الشعر فى مدح الأمير عباس الثانى لا يعرف من هو الأمير من تلك المدائح الكثيرة، ولا يستطيع أن يفهم نفس الممدوح.

وأما معركته مع الأستاذ أمين الخولى فقد اتخذت شكلا جديدا.. حيث بدأت بهجوم الأستاذ أمين لكتاب" عبقرية الإمام على" للعقاد. وسرعان ما انضم إلى صفه أفراد جماعة الأمناء ضد العقاد، فكان العقاد واحدا يواجه جماعة ولكنه لم يتردد، ومن جملة مقالاته الساخنة منها مقالات بعناوين: "عبث لا يسكت عليه "والمتهافت بأنفاسه" و "سكت دهرا ونطق قهرا". ويقصد فيه الأستاذ أمين حيث قال: "قضى الشيخ أمين نحو عشرين سنة يكتب ويشطب ثم يشطب ويكتب.. فيما يسميه تحليلا موضوعيا إلى أن يقول: "إننا قرأنا كتب النقد والتحليل أكثر مما يحفظ الشيخ أمين من أبيات الفية ابن مالك منع التواضع الكثير".

وفى المعارك السياسة كانت أعنفها حين أعلن تحت قبة البرلمان كلمته المشهورة ضد الملك فؤاد: "إن الأمة على استعداد أن تسحق أكبر رأس فى البلاد يحاول أن يعبث بالدستور". وبالطبع كان يقصد الملك فؤاد وقد حالت الحصانة البرلمانية دون محاكمته، لكن لم يكن الأمن يخلو من التفكير فى اغتياله لولا الخشية من

غضبة الشعب، وحتى إذا انتهت فترة الحصانة حوكم العقاد وسجن بتهمة السب فى الذات الملكية.

وكانت معركته مع محمد محمود باشا رئيس الوزراء من أعنف المعارك السياسية، حيث استفز العقاد بإعلانه غداة تعيينه رئيسا للوزراء بأنه سيضرب بيد من حديد إقرارًا لما يريد.. وبالفعل بدأ سياسته بأن منع الاجتماعات، وكبل الحريات، وراقب ذوى الرأى. وكان العقاد وقتئذ كاتب الوفد الأول، فنشر عدة مقالات لعل أبرزها ما كتبه تحت عنوان: "مجنون فى يده سيف" يقصد محمد محمود، ومقال "يد من حديد فى ذراع من جريد". فيهما هاجم محمد محمود أعنف هجوم أما معركته مع توفيق نسيم غداة تعيينه رئيسا للوزراء باتفاق مع الوفد الذى ينتمى إليه العقاد.. حيث انتهج نسيم باشا سياسة مطابقة لسياسة وزارة إسماعيل صدقى السابقة فى تعطيلها للحياة النيابية ودستور ١٩٢٣.. واشتد العقاد فى هجومه على الوزراة النسيمية قبل أن ينتهى هذا القلم مشيرا إلى قلم رصاص كان يكتب به.

وإذا كان لكل شئ سبب، فلمعارك العقاد السياسية والأدبية والفكرية أكثر من سبب لعل أهمها إيمانه بالحرية، إيمانا شمل كل أقطار نفسه، فقد كانت الكلمة عنده بغير حرية، مثل الجسد بلا روح، وأن إيمانه بهذه الحرية جعل بعض مؤرخيه ونقاده يعتبرونه رمزا لهذه الحريه، وعلى سبيل المثال لا الحصر وصفه الكاتب العالمى نجيب محفوظ ذات يوم بأنه أى العقاد: "الحرية بكل ما تعنى من أبعاد، فهو الحرية إذا التمسنا لشخصيته فكرة يرمز إليها".

وكما رأى الكاتب العالمى نجيب محفوظ بالفعل الحرية عند العقاد هى الجمال فى فلسفته، وهى الديمقراطية فى تفكيره السياسى، وهى الفردية فى رأيه الاجتماعى.

وهذه وغيرها، هى نفس القيم التى دافع عنها العقاد، وسجن فى سبيلها، واضطهد من أجلها وعاش عيشة الكفاف من جرائها، معتبرًا الوظيفة، التى من الممكن أن تحد من حريته، فى القرن العشرين.

ولا عجب على ذلك.. فهذه الحرية التى كان يطلبها العقاد. كانت تعانى من

أزمات كثيرة، انعكست بدورها على إبداعه كأديب، ووجهة نظره كمفكر، ورؤيته كسياسي.. حيث يريد فى هذه الجوانب جميعها أن يستمتع بحقه فى الحرية، ووسيلته فى ذلك هى الكلمة المكتوبة التى تفصل بين الشرعية والاستبداد.

ومن هنا من منطقة الإرادة وكبتها، حدث الخلاف، بل والتصادم معه، ليخوض هذه المعارك السياسية والأدبية والفكرية، وليكون أبرز أبناء زمانه فى هذا المجال.

وفى ختام هذه الإشارة إلى معارك العقاد السياسية والأدبية والفكرية أقول: إن الحديث عن العقاد ومعاركه.. سيبقى، ما بقى فكره وأدبه ومواقفه، وسيبقى ما بقى احترامنا للكلمة وَقُدْسِيَّتِهَا قائما، سيبقى أيضا، ما بقى تقديرنا للثقافة العربية الجادة والأصيلة مستمرا.

وإذا كان لكل شئ سبب، فلأزمة الحرية أكثر من سبب، إلا أن سببها الأول والمباشر هو أن بعض النظم غالبا ما تنظر إلى الحرية بوصفها أداة عليها أن تخدم أغراضها لا بوصفها حقا مكتسبا لكل إنسان. وتتناسى هذه النظم أن الحرية هى القيمة العليا. التى تدور فى فلكها قوانين النظام وشرائعه، أفكاره ونظرياته، تياراته واتجاهاته. وطبيعى والأمر كذلك أن تصبح الحرية فى أزمة، وعشاقها فى محنة، ولأن العقاد كان واحدا من عشاق الحرية فلابد أن تمثل أزمة الحرية محنة حياته خصوصاً إذا كانت وسيلته فى الحياة هى الكلمة المحملة بالرأى وهذه الكلمة لا تزدهر إلا فى مناخ الحرية.. ومن هنا.. من منطقة الإرادة وكبت هذه الإرادة. تنشأ فى نفسه مرارة. وتطل فى سماء حياته محنة الصدام المرتقب مع الذين يريدون سلب حريته. وينتهى أمره إلى السجن.

وحكاية السجن تبدأ حين تلوح فى الأفق السياسى محاولات الملك فؤاد الاستبدادية لتوسيع حقوقه على حساب حقوق الأمة، وتظهر هذه المحاولات سافرة حيث يضع الملك العقبات أمام وزارة النحاس. عندما تقدم مشروع قانون يقضى بمحاكمة الذين يحاولون تعديل حكم من أحكام الدستور بغير الطريقة التى أقرها الدستور. وهنا يبدو موقف العقاد من الملك فيما كتب من مقالات عنيفة، أو فيما كتب عنه من دراسات جادة منها: "تطور الحركة الوطنية المصرية" للدكتور عبد العظيم رمضان، و "العقاد بين اليمين واليسار" للأستاذ رجاء النقاش، و"العقاد رجل الصحافة رجل السياسة" للدكتور راسم محمد الجمال إلى جانب نص المحاكمة.

لقد بدت مقدمات موقف العقاد حيث كتب مقالا فى يوم ١٩٣٠/٦/١٧ مستقطبا الرأى العام نحو الوفد فى موقفه المتأزم، مؤكدا أن القانون الذى توضع فى طريقه

العقبات هو ضمان لمصلحة الأمة وحريتها القومية، وفى اليوم نفسه أعلن تحت قبة البرلمان كنائب وفدى: "لقد كان فى مصر وزارة طاغية (وزارة محمد محمود) طلبت إلى صاحب الأمر إيقاف الحياة النيابية وتعطيل الدستور فأجيبت إلى طلبها. واليوم فى البلاد حكومة دستورية (حكومة النحاس) تطلب صيانة الدستور فتوضع فى طريقها العراقيل والعقبات..". إلى أن يقول كلمته المشهورة: "ألا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلاد فى سبيل صيانة الدستوى وحمايته".. وكما تصف الصحف أن هذا التهديد قوبل من جانب النواب الوفديين بعاصفة من التصفيق الأمر الذى جعل رئيس المجلس الدكتور أحمد ماهر يدرك خطورة الموقف الذى يتعرض له العقاد بل والحزب الوفدى فيعترض قائلا: "ما هذا يا أستاذ عباس أنا لا أسمح بمثل هذا الكلام"! ولكن العقاد يضيف قائلا: "أنا أقول ومازلت أقول وأكرر أننا جميعا مستعدون للتضحية فى سبيل المحافظة على الدستور ومقاومة كل من يعبث به..". ويطلب رئيس المجلس الدكتور أحمد ماهر حذف عبارة التهديد من مضبطة الجلسة وتحذف هذه العبارة بالفعل. ولا تنشرها الصحف الوفدية أو صحيفة كوكب الشرق التى يكتب فيها العقاد. إلا أن بعض الصحف التى لها مواقف مسبقة من العقاد تستغلها فتنشرها صحيفة "السياسة" لسان حال حزب الأحرار الدستوريين رغم حذفها من مضبطة المجلس. وتؤكد جريدة المقطم - ذات الميول الاستعمارية - نص التهديد بنشره فى اليوم التالى.

وطبيعى أن يستفز هذا التهديد السراى وأعوانها، فيدبرون للعقاد أمرا لا يستطيعون تنفيذه فى حينه، لأنه متمتع بالحصانة البرلمانية ويؤجل التنفيذ إلى وقت آخر.

ولم يكن ما يحاك للعقاد من الملك وأعوانه مفاجأة له وهو الكاتب المحنك.. ولم تكن هذه الأمور بخافية على حزبة وهو حزب الوفد الذى قدم استقالة حكومته، ليتولى من بعده إسماعيل صدقى تشكيل الحكومة الجديدة.. عندئذ كان على العقاد أن يعدل من موقفه وهو أمر مشروع فى التكتيك السياسى الغرض منه استمرار عمله من أجل القضية التى يؤمن بها، خصوصًا وأن البعض صور موقف العقاد على أنه دعوة

سافرة للبلاد على الثورة، وهنا كتب فى ١٩٣٠/٦/١٩ مقالاً فى كوكب الشرق بعنوان: "البلاد مستعدة لأن تسحق كل رأس يخون الدستور" أشار إلى قيمة هذا المقال بالنسبة لتعديل هذا الموقف الأستاذ رجاء النقاش. ومن جملة ما قاله العقاد فيه: "إن البلاد مستعدة لأن تسحق كل رأس يخون الدستور. هكذا نقول اليوم وهكذا نقول غدا وهكذا يقول القانون والدستور. فإن مصر دولة ملكية دستورية. تعد خيانة الدستور جريمة لا تغتفر. وتعد حماية الدستور فريضة لا تنسى. "وواضح من هذه العبارة تعديل الموقف من التهديد لأكبر رأس وهو الملك، إلى التهديد لكل رأس وهو أى مصرى يوضع فى موقع المسئولية. وقد اهم العقاد المقطم على تأكيدها بنشر نص التهديد بأنها تتعمد الوشاية به لمواقف معروفة بينهما.

ويواصل العقاد تكتيكه السياسى ووسيلته فى ذلك قلمه. حتى لا يعطى فرصة للمتربصين به الذين يعملون جميعا نحو هدف واحد يعرف جيدا وهو سجنه بتهمة العيب فى الذات الملكية والدعوة إلى الثورة.. فكتب مقالا نشرته صحيفة "كوكب الشرق" بتاريخ ١٩٣٠/٦/٢٥ قال فيه: إن حماية الدستور ضمان لا يكرهه فى الحقيقة إلا الخوارج من أعداء الحياة النيابية وأعداء العرش والنظام"، ورغم كل ذلك فقد بدا للجميع أن حكومة إسماعيل صدقى تبيت أمرين أولهما: يخص العقاد وهو سجنه، وقد بدأ ذلك بحبس أخيه الأصغر وثانيهما: يخص الشعب كله، وهو التأكيد على سلطات الملك الاستبدادية، والقضاء على كافة الحريات الشعبية، وفرض دستور جديد غير دستور ١٩٢٣.

وطبيعى والأمر كذلك أن يهاجم العقاد وزارة إسماعيل صدقى ويحرج الملك بسؤاله كيف يسند الوزارة لصدقى فى ظروف اقتصادية قاسية. ومن قبل رفض تعيينه رئيسا لديوان المحاسبة؟ هل رئاسة الوزارة أقل شأنا من رئاسة ديوان المحاسبة؟

بل ويعترض على أهلية إسماعيل صدقى لتولى رئاسة الوزارة وهو المتهم بعلاقات غير مشروعة مع عدد من الشركات. واتهامات أخرى يوجهها العقاد ليهيج الرأى العام ضد صدقى أبرزها اتهامه بالتواطؤ فى محاولة اغتيال النحاس بالمنصورة

فى ١٩٣٠/٧/٨. ويوقف إسماعيل صدقى صحيفة كوكب الشرق التى تنشر هذه المقالات فى ١٩٣٠/٧/١٥ بدعوى أنها تنشر أمورا رأت الوزارة أنها تعرض النظام للخطر الشديد.

وينتقل نشاط العقاد إلى صحيفة "المؤيد الجديد" حيث ينشر عددا من المقالات العنيفة ضد إسماعيل صدقى إلى جانب أنها تلمح بالهجوم على الملك وأعوانه. حيث تؤكد أن الملك هو المسئول عما يقوم به إسماعيل صدقى من أخطاء دستورية. وتكون بداية هذه المقالات فى ١٩٣٠/٩/٩بمقال عنوانه: "الوزارة البريطانية والأزمة المصرية الحاضرة" من بعده تتوالى سلسلة من المقالات تنتهى فى ١٩٣٠/٩/٢٩، وكان من المتوقع أن يستدعى العقاد للتحقيق معه أثناء نشر هذه المقالات أو حتى بعدها فقد بدا للكثيرين ما يدبر له وهو ما حذره منه صديقه الوفدى سينوت حنا بقوله: "إن مقالاتك تراجع مراجعة خاصة انتظارا ليوم تقدم فيه للمحاكمة".

وربما كان هذا التحذير - كما يرى الدكتور راسم الجمال - هو الذى دفع العقاد إلى التوقف عن كتابة هذه المقالات العنيفة. لكن رغم توقفه فى ١٩٣٠/٩/٢٩ يستدعى للتحقيق فى ١٩٣٠/١٠/١٤ قبل حل البرلمان بأسبوع وسقوط حصانتة البرلمانية وتقرر النيابة اعتقاله بتهمة العيب فى الذات الملكية ليمضى فى معتقله حتى ١٩٣٠/١٠/٣٠، بعدها يقرر القاضى إحالته إلى محكمة الجنايات لدور ديسمبر مع استمرار اعتقاله. لتبدأ النيابة فى مرافعتها فى ١٩٣٠/١٢/٢٥، ولتبدأ بعد ذلك مرافعة الدفاع - مع استمرار الحبس - ويتولى ذلك الوطنى الكبير مكرم عبيد الذى يقرر بأن قضية العقاد مأساة أمة تمثلت فى مأساة فرد. ويكون الحكم على العقاد بالحبس ٩ أشهر فى ١٩٣٠/١٢/٣١.

وهكذا تكون محاكمة العقاد أول محاكمة لصاحب قلم بتهمة العيب فى الذات الملكية، كما يسجل ذلك بكتابه "حياة قلم"، ويسجل الليلة الأولى فى سجن مصر العمومى بكتابه "أنا" حيث يخطو الخطوة الأولى إلى عالم القيود والسدود مقررا أن الدخول أصبح يقينا لا شك فيه.. وأما الشك فهو فى أمر الخروج متى يكون؟ وإلى أين يكون؟ هل إلى رجعة منه وإليه؟ هل إلى عالم الحياة مرة أخرى؟ أم إلى عالم الممات؟

لم يكن كاتب العرب الأديب العالمى نجيب محفوظ هو أول أديب أو مفكر استهدف لمحاولة الاغتيال فى عام ١٩٩٤، فقد سبقته محاولات أخرى مع أدباء ومفكرين رواد، استهدفوا أيضا للاغتيال وأبرز هذه المحاولات كانت مع عملاق الفكر العربى عباس محمود العقاد.

محاولة اغتيال نجيب محفوظ ومحاولة اغتيال العقاد متشابهتان فى كثير من جوانبهما حتى لا تكاد تختلف محاولة اغتيال نجيب محفوظ، التى تمت فى عام ١٩٩٤، فى تفصيلها وجزئياتها والسيناريو الذى تمت به عن محاولة اغتيال العقاد فى نهاية الأربعينيات من هذا القرن.

فبدلًا من أن يكون حوار الأديب أو المفكر قوامه مقارعة الفكرة بالفكرة، والرأى بالرأى، والحجة بالحجة. حتى نصل إلى كلمة سواء.. دخلت أدوات القتل طرفا فى هذا الحوار.. كمحاولة لإرهاب أصحاب الرأى أيا كانوا.. حتى لو كان أحدهم يمثل مفخرة أمته مثل نجيب محفوظ، أو أن يكون الآخر رائدا من رواد نهضتنا الثقافية المعاصرة مثل العقاد!

مع أن المفترض أن يكون الحوار مع مثل هؤلاء أول ما يعتمد عليه هو العقل والمنطق كأساس، والتفاهم والمودة كوسيلة.

والمرء يعجب أن ينتسب الطرف الذى يستخدم أدوات القتل - فى الحالتين - إلى الإسلام. هذا الدين الذى يحث المتحاورين فى ظلاله على الالتزام بعفة اللسان والحرص على صون الكرامة وتقديم حسن الظن بالنية والقصد.

هكذا يدعو الإسلام، وهكذا يؤكد شيوخه ومفكروه وفقهاؤه مرتكنين إلى أن هذا الدين يرفض جارح اللفظ ولا يقبل سَيِّء العبارة.. فما بالنا إن وصل الأمر إلى

حدود الاغتيال والقتل بالرصاص أو السكاكين؟ وكأن مقترفى هذه الجرائم لم يقرأوا قول الله عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(١) أو لم يستوقفهم منهج القرآن الكريم الذى عظم الكلمة وقدرها حين أقسم بها فى قوله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾(٢) أو الذى حماها بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾(٣) أو لم يمسهم أدب القرآن حتى فى مجادلة المشركين بقوله تعالى:﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٤).

وإذا كان هذا هو ديننا الإسلامى فكيف يمكن أن نفسر ما حدث لنجيب محفوظ ومن قبل للعقاد بغير التفكير الواحد، الذى يفرض الإرادة عن طريق الإرهاب والقتل والاتهام الجاهز بالكفر والإلحاد. وهو بعينه التفكير الفاسد لفئة ضالة تحكم بالموت على كل من يختلف معها حتى ولو كان أديبا فنانا. وهو عين ما حدث لنجيب محفوظ هذه الأيام مع أنه من أوائل الذين نادوا باقتران العلم والإيمان فيما كتب أو قال. أو ما حدث للعقاد منذ ما يزيد على النصف قرن مع أنه صاحب أكبر موسوعة إسلامية تزيد على الثلاثين كتابا فى العقيدة والدين. الهدف واحد وإن اختلفت الوسائل والأشخاص، فيما حدث لنجيب محفوظ هذه الأيام.

أما ما حدث من قبل للعقاد فنترك التاريخ يحدثنا عنه.

التاريخ يحدثنا بأنه حين كانت أهداف جماعة الإخوان المسلمين دينية لم يختلف معها العقاد و لم يتعرض لها بسوء، إلا أن الذى أثاره وجعله يتخذ منها موقفا هو استخدامها القتل والاغتيال كوسيلة للوصول إلى أهداف سياسية معينة، والذى كانت نتيجته اغتيال الوطنى الكبير محمود فهمى النقراشى عام ١٩٤٨رئيس وزراء مصر ورئيس مصر ورئيس حزب السعديين بعد اغتييال رئيسه السابق أحمد ماهر، والاثنان

---

(١) النحل /١٢٥.
(٢) القلم / ٠١
(٣) البقرة / ٢٨٢.
(٤) سبأ / ٢٥.

من الوطنيين المشهود لهم بالمواقف الوطنية الجليلة. هذا إلى جانب أن العقاد كان يكن مودة خاصة للنقراشى نظرا لمواقفه فى ثورة ١٩١٩ من ناحية ومن ناحية أخرى أن العقاد كصاحب رأى حر كان يبغض أسلوب الإراهاب الفكرى.. ومن هنا كان موقفه من الإخوان.

يقول مثلا فى جريدة الأساس فى ١٧ يناير ١٩٤٩: أجمع المصريون على استنكار تلك الجرائم الوحشية التى يقدم على ارتكابها أفراد جمعية "الإخوان المسلمين"، ولكن فريقا من الذين بحثوا فى أسرار تلك الجرائم يتوهمون أن جناتها الأشرار يساقون إليها بدافع من الإيمان المضلل، ويحسبون أن إدخال هذا الإيمان إلى عقولهم الملتوية يحتاج إلى قدرة نفسية أو قوة من قبيل القوة المغناطيسية. إذ استطاعوا أن يشحنوا عقول الأحرار بذلك الضلال، وأن يدفعوا بهم إلى ذلك الإجرام.. وهذا هو الوهم الذى يفرض للمجرمين شرفا لا يرتفعون إليه وهو شرف الإيمان، ولو كان إيمانا مضللا منحرفا كل الانحراف عن مقاصد الأديان، وبخاصة مقاصد الدين الإسلامى. فكل ما يحتاج إليه أولئك المجرمون ليندفعوا إلى الأجرام. هو تحريك ما فى نفوسهم من طبيعة الشر والغرور والطمع، ولا حاجة بهم بعد ذلك إلى إيمان يتعب فى تضليله المضللون، أو يدل على قدرة أولئك المضللين".

ثم ينتقل العقاد إلى رفض اغتيال النقراشى كوطنى.. ويربط بين جماعتهم وعصابة الخط بالصعيد فى تحريك طبيعة الشر والطمع والغرور. وهنا يكون الخلاف مع الإخوان حيث يقول: "إن فقيد الوطن – النقراشى – رحمه الله قد أراح هذه البلاد من عصابات كثيرة قبل هذه العصابة الإجرامية، ومنها عصابة "الخط" المشهورة التى كانت تعبث بالفتك والسلب والنهب فى أوساط الصعيد، والخُط لم يدع لنفسه أنه إمام من أئمة الدين و لم يدع له أحد شيئا من العلم أو القدرة على التدجيل باسم العلم والدين. ومع هذا فقد استطاع ذلك المخلوق أن يجمع حوله أربعين أو خمسين رجلا يجازفون بالحياة فى سبيل طاعته. ويجازفون بالخروج على القانون والشريعة تنفيذا لأمره، فهل كانوا محتاجين إلى إيمان مضلل يسوقهم إلى المجازفة بالحياة وعصيان الدولة وإعلان الحرب على المجتمع كله بغير نظر إلى عواقب الأمور؟

كلا لم تكن بهم حاجة إلى إيمان قويم ولا إيمان منحرف، و لم تكن بهم حاجة إلى إيمان قوى ولا إيمان ضعيف، وكل ما احتاجوا إليه هو تحريك طبيعة الشر والطمع والغرور. الشر الذى يستخف بالحياة البشرية، والطمع الذى يتطلع إلى ما فى أيدى الناس، والغرور الذى يخيل إليهم أنهم أبطال لأنهم يقتلون ويسلبون. ولقد استطاع الخط أن يستغل هذه الغرائز المنكوسة ويدفع بها إلى المخاطر.. دون أن يستعين على ذلك بعقيدة دينية، بل استطاع أن يستغلهم مع علم أصحابها أنهم يعصون الله كما يعصون ولاة الأمور.

ثم يعقد مقارنة بين الاثنين من بعدها يقول: "ولقد يفهم موضع الشر والغرور فى جرائم الإخوان، إلا أن موضع الطمع منها أخفى من موضع الشر والغرور. والواقع أنه الباعث الأول فى نفوسهم على سفك الدماء وإشاعة الفوضى فى جوانب هذه البلاد.. والعجيب أن يقال لهم إن إرهاب القضاء كفيل بنجاتهم من حكم الموت، وأنهم لا يلبثون أن يخرجوا من السجن أبطالا متوجين بأكاليل الفخار، متربعين على مناصب الحكم متصرفين فى الأنفس والأموال، فإن خانهم الحظ العاثر ونفذ فيهم حكم الموت، فهنا يأتى الطمع الأكبر فى جنات عرضها السموات والأرض".

وطبيعى أن يكون لهذا الموقف من العقاد ضد الإخوان ومرشدهم الشيخ حسن البنا رد فعل من الإخوان حتى أنهم أنذروه وهددوه أكثر من مرة، ولكنه لم يأبه بتهديدهم و لم يهتم بإنذاراتهم حتى إنهم كانوا يرسلون إليه خطابات متتالية يقولون فيها "قذفت القاذفة" يريدون قول: "أزفت الآزفة" مهددين إياه بالقتل إن لم يكن عن مهاجمة أساليبهم، ولكن العقاد لم يكف و لم يصمت لأنه يرى أن ما يقوله ويدافع عنه هو الحق. ووضعوا المتفجرات عند بيته حتى يرتدع ولكنه لم يرتدع، وأخيرا حكموا عليه بالموت وكانت خطتهم فى ذلك أن يتصلوا به فى الليل وكان التليفون بجوار النافذة، وعندما رد العقاد أطلقوا عليه الرصاص لإصابته فى مقتل، ولكن نجاه الله من هذه المكيدة، وظل اسمه فى قائمتهم السوداء انتظارا لإعدامه وقتله بين لحظة وأخرى لا لشئ إلا لأنه اختلف معهم فى الرأى فلم يرعوا أن العقاد واحد من روادنا الكبار فى تاريخنا الثقافى الحديث، و لم يهتموا بأنه واحد من المفكرين الإسلاميين الذين دافعوا

ونافحوا عن الإسلام بكتاباتهم و لم تشفع لهديهم مواقفه الوطنية الجليلة التى أدخلته السجن، والأهم لم يأبهوا بحقيقة أنه مواطن من حقه أن يعيش، وأن يختلف معهم فى الرأى اختلافا مهما كان عنيفا متشددا لا يكون الرد عليه بالمتفجرات والرصاص، وإنما بالحوار.. الحجة بالحجة والرأى بالرأى.

ما أشبه الليلة بالبارحة فعندما اختلفت الجماعات الإسلامية مع بعض ما كتبه نجيب محفوظ كأديب لم يحاوروه أو يناقشوه وإنما هددوه وتوعدوه لينتهى تهديدهم ووعيدهم إلى محاولة اغتياله، وهكذا كانت النتيجة واحدة حتى وإن اختلفت البواعث والظروف التفكير واحد هو فرض ما يريدون بالإرهاب والقتل. والاتهام جاهز هو الكفر والإلحاد لكل من يخالفهم فى الرأى.

كلما قارن المرء بين موقف عضو البرلمان عام ١٩٣٠ مع صاحب القلم وتقديره لدوره وموقف نظيره عام ١٩٩٦، واتهامه لحملة الأقلام بصفات ونعوت منها تجارة المخدرات.. فإن دهشتي لا تنقضى، إذ كيف ينتهى بنا الحال إلى هذا المستوى الهابط بعد أكثر من ستين عاما، وكأننا نتخلف ولا نتقدم، وكأن الليلة لا تشبه بأى حال من الاحوال البارحة.

وعلى الرغم من أن الصورتين تتمان تحت قبة البرلمان لأعضاء يمثلون جموع الشعب المصرى، لكن شتان بين موقف يحترم الكلمة وصنّاعها، وآخر يستهين بها، حيث يتهجم على أصحابها وكأنه عدو لدود يريد تصفية حسابات قديمة!!

الصورة الأولى مسجلة فى كتب التاريخ والأدب والسياسة التى تناولت محاكمة عباس محمود العقاد عام ١٩٣٠ لرأى أبداه. حين لاحت فى الأفق السياسى وقتئذ محاولات الملك فؤاد الاستبدادية لتوسيع حقوقه على حساب حقوق الأمة. وتبدو هذه المحاولات سافرة حيث وضع الملك العقبات أمام وزارة النحاس باشا عام ١٩٣٠، عندما تقدمت بمشروع قانون يقضى بمحاكمة الذين يحاولون تعديل حكم من أحكام الدستور.

هنا يبدو دور العقاد كصاحب قلم يوجه الجماهير. فكتب مقالات بتاريخ ١٩٣٠/٦/١٧ مؤكدا فيه أن مشروع هذا القانون الذى توضع أمامه العقبات.. هو ضمان لمصلحة الأمة وحريتها القومية وفى اليوم نفسه، قال تحت قبة البرلمان كنائب وفدى: لقد أن فى مصر وزارة طاغية (وزارة محمد محمود) طلب إلى صاحب الأمر (الملك فؤاد) إيقاف الحياة النيابية، وتعطيل الدستور. فأجيبت إلى طلبها، واليوم فى البلاد حكومة دستورية (حكومة النحاس) تطلب صيانة الدستور من العبث. فتوضع

فى طريقها العقبات.. إلى أن يقول عبارته الشهيرة: "ألا فليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس فى البلاد فى سبيل صيانة الدستور وحمياته!!"

وكما تصف الصحف - وقتئذ - أن هذه الكلمة قوبلت بالتأييد من أغلب الأعضاء عامة، التأييد المطلق مع التصفيق الحاد من الوفديين خاصة.. هذا الأمر جعل رئيس المجلس الدكتور أحمد ماهر باشا يدرك خطورة الموقف الذى يتعرض له العقاد، فيستوعبه بذكاء نادر، ووطنية صادقة، وإيمان بالكلمة وأصحابها، حيث تساءل متظاهرا بالاعتراض: "ما هذا يا استاذ عباس.. أنا لا أسمح بمثل هذا الكلام"، ولكن العقاد استطرد قائلا: "أنا أقول ومازلت أكرر أننا جميعا مستعدون للتضحية فى سبيل المحافظة على الدستور، ومقاومة كل ما يعبث به".

وببعد نظر السياسى المحنك، وحسن وعى الوطنى المخلص يسيطر الدكتورأحمد ماهر على الموقف المتأزم.. طالبًا حذف عبارة العقاد من المضبطة.. وكأنه يستشرف بحس وطنى مجرب. ما سوف يحيق بالعقاد كصاحب رأى من متاعب. وبالفعل تحذف هذه العبارة من المضبطة. ولا تنشرها أى من الصحف يكون؟

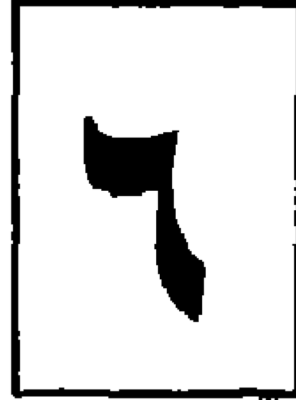
وتنتهى هذه التجربة المريرة.. ولا يبقى منها للتاريخ سوى الموقف المشرف لرئيس المجلس الدكتور أحمد ماهر وأعضائه الذين وقفوا وراء العقاد.. وحجتهم فى ذلك أنه صاحب رأى.. احتراما للكلمة ورجالها.

أما الصورة الثانية فقد سجلتها أجهزة الإعلام مقروءة ومسموعة ومرئية. فتبدو ملامحها فيما قرأناه وسمعناه وشاهدناه من أن بعض أعضاء مجلس الشورى هاجموا أصحاب القلم، أثناء مناقشتهم لقانون تنظيم الصحافة. ومصدر الاختلاف بين الصورتين.. أن صورة اليوم تدعو إلى الدهشة والعجب، الرثاء والأسى فى حين صورة الأمس تدعو إلى التقدير والإعجاب.. والاحترام والإجلال.

يضاعف من الإحساس بالدهشة والعجب الذى يصل إلى حد المرارة والحزن.. أن يحدث هذا فى وقت تنعم فيه مصر بديمقراطية لم يحدث لها مثيل فى تاريخها. وهو ما لا ينكره إلا جاحد أثيم. وأن أحوال مصر عام ١٩٩٦ بالتأكيد أفضل من أحوالها

عام ١٩٣٠. فليس هناك قيادة سياسية تطمع فى توسيع حقوقها على حساب حقوق الأمة. وليس هناك رئيس للحكومة يهدف إلى كبت الحريات ويعمل فى الخفاء لكسر الأقلام، وليس هناك محتل أجنبى يعمل على تنمية روح الصراع بين فئات الشعب. والأهم من كل ذلك ليس هناك أى صدام بين أصحاب الأقلام من صحفيين وكتّاب ومفكرين، والسلطة منذ أن تولى حسنى مبارك تقاليد مصر، بل على العكس إن الجميع يلتقون حول هذه السلطة بحيث يجمعهم هدف واحد هو مواجهة التحديات.. لكن على الرغم من هذه الحقائق الساطعة ينبرى نفر من أعضاء الشورى ليهاجموا أصحاب الأقلام دون ما سبب أو تبرير، اللهم إلا تصفية حسابات قديمة حتى يصل الأمر بأحدهم إلى وصف حملة الأقلام بأنهم كتجار المخدرات؟ يحدث هذا ولا نسمع إجراء بحذف هذا الاتهام الخطير من المضبطة، أو حتى الاعتراض الشكلى عليه ذرا للرماد فى العيون؟ وهكذا يصبح اصحاب الأقلام فى نظر نواب الشورى، متهمين حتى تثبت براءتهم. خلافا للقاعدة القانونية التى تقول المتهم برئ حتى تثبت إدانته!؟ وماذا نقول بعد ذلك؟ هل نترحم على أيام كانت فيها مهنة القلم تحظى بكل إجلال وتقدير؟ هل نقول رحم الله نائبا وطنيا مثل مكرم عبيد قال كلمته المشهورة: "إن محاكمة العقاد كصاحب قلم مأساة أمة تتمثل فى مأساة فرد" متحديا الملك وحكومته وبطانته؟! هل نتشكك – معاذ الله – فى الشورى كأول صرح نيابى فى تاريخنا الحديث، فنقول كان صرحا من خيال فهوى؟!

أم أترانا نمسك عن أى قول مكتفين بكلمة: لا حول ولا قوة إلا بالله!



سادسا : العقاد وهؤلاء

- الزعيم عبد الناصر
- فرسان الأدب الثلاثة
- شخصيات عرفها وعايشها

فى كلمته أمام الزعيم الراحل عبد الناصر. بمناسبة الفوز بجائزة الدولة التقديرية قال العقاد: "إن أسعد عيد من أعياد صاحب القلم أن يكتب بقلم تحمله معه بنان القارئ، وأن يخط على قرطاس تبسطه أمامه عين المتصفح، وأن يكون تقديره من قبل أمته اشتراكا معه فى الفهم والإفهام، ومعاونة له على الفيض والإلهام، وأن يسمع فيه صوت الاختصاص ملبيا لصوت العام والخاص، وتأتى فيه موازين الفنون رجحانا لموازين الأذواق. قدرا من الأمة وإليها، وفضلا محسوبا لها ومحسوبا عليها.. وتلك هى جمهورية الفكر خير قرين لجمهورية الحكم".

وهكذا يأتى الحديث عن العقاد وكلمته مواكبا للحديث عن الجائزة التقديرية فى الأدب، فيأتى سريعا متصلا بتوجهاتها للعقاد وجيله. فهذه الجائزة إن كانت قد توجهت إلى طه حسين والعقاد والحكيم فى سنوات متتالية، فإنها تتوجه بعد ذلك إلى أساتذة أجلاء أعطوا الكثير، وواصلوا طريقا بدأه الثلاثة الكبار. حتى وإن اختلفوا عنهم، إلا أنهم لم يتنكروا لعطائهم.. وهل ينبت الزرع دون جذور؟! وهل يستطيع الخلف الصالح تجاهل ريادة السلف العظيم؟! وهل تستطيع أمة متحضرة أن تلغى من حياتها حقيقة تواصل الأجيال؟!

وأما الحديث عن ترشيح وفوز العقاد بالجائزة التقديرية لعام ١٩٦٠ ولقائه وجها لوجه مع عبد الناصر. فقد تسبقه الإشارة إلى موقف العقاد من الثورة وزعيمها. هذه الثورة التى حصل فى ظلها على هذه الجائزة.

لقد وضح موقف العقاد المؤيد للثورة بعد شهرين من قيامها فى مقال طويل قال فيه: "وضح منذ سنوات أن دوام فاروق على العرش أمر مشكوك فيه... حتى إذا كانت الأسابيع الأخيرة من عهده المشئوم. جرى ذلك الكوارث التى تتعاقب على

الأمة فى مجلس يضم أكثر من عشرين مصريا. فقال قائل: وما العمل؟ قلت: إنها الثورة لا محيص لنا منها وليكن مايكون. والحمد لله جاءت الثورة و لم يمض شهران.. جاءت سليمة لم يسفك فيها دم و لم يضطرب فيها حبل الأمور".

وعندما أراد البعض ممن يجيدون الصيد فى المياه العكرة.. الدس بينه وبين الثورة عام ١٩٥٤، فوجهوا إليه تهمة الاستظلال بجاه فاروق. هنا تصدى العقاد متحديا، وكتب مقالا عنيفا قال فيه: "أما فاروق فقد لعنا أباه حرفيا، فهل سمع أحد أننا زحفنا على بطوننا إلى عرشه يوم كان له عرش وتزحف إليه البطون ممن تعلمون ولا تعلمون. إنه على هيامه بذكرى أبيه قد تقرب إلينا و لم نتقرب إليه. وسئلنا أن نستقبله فى بعض المناسبات يوم كان الناس جميعا يمدحونه و لم يكن أحد يعيبه سرا ولا علانية، فقدمنا له النصح فى قالب المدح ووصفناه بما ينبغى أن يتصف به فى تفدية الرعية، وصيانة الاستقلال والحرية و لم نطلب قطًا أن نلقاه، إلا وقد كان هو قبل ذلك طالب اللقاء. وهذه سجلات القصر يرجع إليها من شاء".

هذا عن موقف العقاد من الثورة، وأما عن موقف الثورة من العقاد، فلنقرأ هذه القصة التى سجلها الكاتب الراحل يوسف السباعى بالمصور فى ١٩٧٠/١١/١٣. يقول السباعى: "انعقد فى القاهرة أول مؤتمر للأدباء العرب فى ١٩٥٨. وبعد انتهاء المؤتمر طلب الأدباء لقاء عبد الناصر". ويقول السباعى: "ووقفت مع عبد الناصر قبل أن يدخل الأدباء وسألنى: هل العقاد موجود؟ قلت: نعم.. فابتسم عبد الناصر وقال: هذه أول مرة أراه فيها. ثم استطرد عبد الناصر قائلا: خلال الحرب العالمية الثانية كان العقاد يكتب مؤيدا الحلفاء. واتهمه البعض بأنه عميل.. ولكنى لا أعتقد أن العقاد يمكن أن يكون عميلا لأحد مهما كان".

هذا الموقف المؤيد للثورة من العقاد، وذلك التقدير من قائد الثورة للعقاد، يجعل المرء يندهش من هذه الكتابات العجيبة التى تصف العقاد بأنه كان موتورًا من الثورة بسبب قرارات التأميم، وإلغاء الأحزاب، وتحديد الملكية الزراعية. إلى درجة أنه انصرف تبعًا لذلك إلى الكتابات الإسلامية والأدبية والردود على الرسائل.. وهذا

غير صحيح لسبب بسيط هو أن العقاد بدأ إسلامياته قبل قيام الثورة بأكثر من عشر سنوات. وأنه بدأ الكتابة الأدبية فى السنوات الأولى من هذا القرن، وأن ردوده على الرسائل أمر طبيعى فعله قبل الثورة وبعدها وهو نفس ما يفعله كبار الكتّاب دون اتهام لهم بالسلبية.

لقد كان الأكرم لهذه الكتابات أن تنصف العقاد ميتا فتبحث فى أن هذه الثورة حققت دعوة العقاد الصريحة إلى الثورة فى بداية الثلاثينيات، وبسبب هذه الدعوة سجن، وأنه استكان لزوال عهد وصفه بأنه الفساد الذى يفسد على نفسه وعلى الآخرين.

وفى مقابل ذلك حرصت الثورة على تقدير العقاد وغيره من الرواد، واتخذ هذا التقدير صورا عدة: منها توجيه جائزة الدولة التقديرية فحصل عليها فى أعوام متتالية طه حسين ثم العقاد ثم الحكيم.

ولعل توجيهها للعقاد على وجه التحديد يؤكد هذا التقدير. فحين تخطت ترشيحه الهيئات الأدبية والثقافية والعلمية فى عام ١٩٥٩ واقتصرت فى ترشيحها على كل من لطفى السيد وطه حسين. كتب العقاد رسالة إلى لجنة الجوائز التقديرية بالمجلس الأعلى للفنون والآداب معاتبا هذه الهيئات التى تخطته و لم تحسب حسابا إلا لغير الحاصلين على الشهادات الجامعية متخطية بذلك العبقريات والكفاءات الإنسانية. وبعد نشر خبر هذه الرسائل علقت الصحف بقولها: إن العقاد يحتج على لجنة الجوائز بالمجلس الأعلى حيث وجهت الجائزة لطه حسين و لم ترشحه لأنها لم تقدر كفاءته. وعلى الرغم من التجاوز الواضح فى صياغة الخبر، فقد كان أمرا استفز له العقاد فنشر نص الرسالة فى اليوم التالى.. إلا أن المشاعر تعاطفت مع العقاد. فقامت أكثر من عشرين هيئة علمية وثقافية وأدبية بترشيحه. فى مقدمتها جامعة عين شمس، ولجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، ومجمع اللغة العربية وجمعية الدراسات التاريخية.. وسرعان ما استقر الرأى على أن العقاد خير من تتوجه إليه الجائزة التقديرية لعام ١٩٦٠.. وبالفعل حصل عليها. فرحبت به جميع الأوساط التى قالت وقتئذ بأن الجائزة فازت بالعقاد

لا العقاد الذى فاز بالجائزة. لأن تكريمه تكريم لكل من هو عظيم فى حياتنا. وجاء فى تقدير الفحص بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ما يؤكد تقدير الدولة للعقاد، ومن جملته:"وقف الأستاذ العقاد حياته كلها على خدمة الفكر والأدب، وقد توفر على ذلك منذ سنوات شبابه الأولى فقضى خمسين عاما فى المطالعة والتأليف حتى اشتهر بخصب التفكير وكثرة الإنتاج.. إلى أن قال التقرير: وإذا استطاع الأستاذ العقاد أن يثبت أفكاره الحديثة وآفاق موضوعاته الرحيبة، فى أذهان النشء. فقد استطاع هذا كله بفضل أصالة بيانه، وشدة غيرته على روح اللغة وتمسكه بعبقريتها حتى أصبح إماما يأتم به كثير من شباب هذا العصر فى أدبهم وتفكيرهم. ولا شك أن هذه الأمور التى امتاز بها تنفع الوطن والإنسانية وتجعله أهلا للتقدير والإكبار".

واحتفلت الدولة بمنح العقاد مع غيره الجوائز التقديرية، وحضر الاحتفال الزعيم الراحل عبد الناصر. ليتم اللقاء بينه وبين العقاد. الذى أعجب به وقدره وكان عظيما فى تقديره للعظماء من أمثال العقاد.. يومها وقف العقاد ليلقى كلمته. فكان كما هو لا ينافق، ولا يتملق، ولا يداهن. ولا ينظر إلى الأشياء من ثقب مصلحته الخاصة.. كلمته كانت موجهة إلى الفكر الذى ارتفع به إلى هامات البشر، وإلى القارئ الذى عاصره وكرمه فى رحلة القلم، وها هو يقول: "الحمد لله على ما ألهم هذه الأمة من وعى يقوّم القيم فى موازين الأدب، ومن رأي عام يجتهد بالرأي دائبا فيسمع له فيما بعد اجتهد ودأب، وحسبنا من شرف يحسبنا علامة من علاماته، وعنوانا من عناوينه، وأن يختارنا – كرما منه – سببا من أسبابه لتسجيل حكمه، وإعلان فضله. وإنه لفى يد الله – جل وعلا – أن يؤهلنا لهذا الحق، وأن يجعلنا كفؤا له فيما نصنع وفيما صنعنا".

والحق أن عبد الناصر كان تواقا للقاء العقاد في هذه الفترة بالذات، حيث نشط البعض في الدس بين العقاد كرافض لبعض إنجازات الثورة، ومنها الشروع فى الاتجاه إلى الاتحاد السوفيتى وما يتبع ذلك من المد الاشتراكى.

وهكذا أذاب هذا اللقاء الكثير من الجمود، كما أزال هذه الجفوة المفتعلة بين الثورة وعباس محمود العقاد.

وطبيعى أن يكون للعقاد صلات زمالة مع أدباء عصره، وما أكثرهم. إلا أن هناك صلة خاصة – بالسلب أو الإيجاب – بثلاثة من فرسان الأدب والنقد فى زمانه وهم: طه حسين، وإبراهيم عبد القادر المازنى، ومصطفى صادق الرافعى. حيث تكون لهذه الصلة نوعية خاصة فإذا كانت صلته بعميد الأدب العربى طه حسين هى صلة المنافسة حتى لقبه كعملاق للفكر العربى. فإن هذه الصلة تختلف مع صديق حياته إبراهيم عبد القادر المازنى. فقد كانت صداقتهما خاصة فى بداية حياتهما الأدبية مضرب الأمثال بين الأدباء، والصلتان تختلفان ولا شك عن صلته بالأستاذ مصطفى صادق الرافعى التى اقتربت من العداوة.. وهذه إشارة لصلة العقاد بالثلاثة.

د. طه حسين عميد الأدب العربى

من المعروف أن كلا من العقاد والدكتور طه حسين يمثلان مدرستين مختلفتين تمام الاختلاف فلكل واحدة من هاتين المدرستين أنصارها ومؤيدوها ولكل واحدة أساليبها فى النقد والأدب والتوجيه فى الحياة الفكرية، وعلى الرغم من هذا يلحظ القارئ أن المعارك بين العملاقين لم تحتدم بالصورة التى كان يتوقعها بل إن هذه المعارك لم تكن بينهما بالصورة الحادة التى تبدو عليها حين يختلف أحدهما مع واحد من الأدباء أو الكتّاب الآخرين.

ولعل ذلك يرجع إلى عوامل عدة فى مقدمتها:

إيمان كل منهما برسالة مؤداها.. أنه بالمعرفة وبالمعرفة وحدها يستطيع أن يبث فى حياتنا الفكرية والأدبية معانى الحرية التى تصبو إليها نفسه كهدف.. وبأقوى ما

تدل، ويبعث فينا نزعة التجديد التى يهدف إليها بأكرم ما تشير إليه وأنه إن كانت هذه المناقشات والمساجلات والمعارك التى تدور بينهما مهمة فهنالك ما هو أهم.. وهو المضى خطوات إلى الهدف الذى رسمه كل منهما لتحقيق هذه الرسالة التى يعمل من أجلها..

إن كلاً منهما يتجنب الاصطدام بالآخر، ويحسب له ألف حساب فلا شك أنهما كانا يدركان أن لكل كفاءته ومقدرته وطاقته.. التى من الصعب قهرها وأنه من العبث أن تتبدد طاقتهما هذه فى مناقشات ومساجلات ومعارك قد يكون ما يقومان به من دراسات وأبحاث وإنتاج فكرى بوجه عام.. أولى وأحق بهذا الوقت الذى ينفق فى مثل هذه المناقشات والمساجلات والمعارك.. وما أشبه الاثنين فى موقفهما هذا – مع الفارق – بموقف كل من القوتين العظميين سابقا، أمريكا والاتحاد السوفيتى تتجنب كل منهما الاصطدام بالأخرى، ويكون البحث عن سبل الوفاق أفضل بكثير من التفكير فى الاصطدام.

يضاف إلى هذين العاملين عامل ثالث هو المناخ السياسى الذى وجد فيه كل من العملاقين العظيمين، فهو مناخ غير مستقر تحركه نزعات الأحزاب وأهواؤها فالمناقشة العلمية الجادة تنقلب فى هذا المناخ إلى جدل لا طائل وراءه والمساجلات الأدبية تتحول بفضل هذه الأهواء إلى مزايدات حزبية والمعارك الفكرية تصير بفضل هذه النزعات خادمة لأغراض السياسيين فى هذا الوقت.

وطه حسين فى رأى العقاد: "هو على الترتيب كاتب قصة ومؤرخ للقصة الأدبية وناقد للآداب والفنون. أما أسلوبه الفنى فهو أسلوبه المطبوع الذى يلائم الإفضاء بأفكاره وأحاسيسه لأنه أسلوب الإملاء الموقع الذى يجعل السكوت والابتداء فواصل ونغمات، و لم تخل حياته قط من الترتيل منذ تعلم القرآن إلى أن أدمن الإصغاء إلى الموسيقى الأوروبية، فهو يفكر ليملى ويملى ليزاوج بين فواصل كما يزاوج بين الفترات الموسيقية.

وليست هذه هى النقيصة الوحيدة فى هذا الأسلوب، فهناك النقيصة الظاهرة بين

الحزم والتشكيك وإن أحصيت ألفاظ الشك فى كلامه من أمثال: أزعم، وقد أزعم، ولعله يكون، ولعله لا يكون، وربما ضحكت وربما بكيت، وربما ضحكت وبكيت فى وقت واحد، فقد تحسبه من الشك لا يستقر على شيء، ولكنك حين تقرؤه ترى له عبارات من التوكيد واليقين قلما تراها فى عبارات الشاكين المترددين.

ونقيصة ثالثة- عند الدكتور طه حسين فى رأى العقاد - هى أنه حين يكتب المقالات، فإنه يقتصد فى العنوان حتى لا يجاوز كلمة واحدة، وأنه يسهب فى المقال حتى يفيض بالأنهار.

ولعل أكبر صدام بين الأديبين الكبيرين كان على أثر ما كتبه أنطون الجميل حول شعر أحمد شوقى. فقام العقاد بنقد ما كتبه الجميل فتعرض للمدرسة اللاتينية الفرنسية وأشار إلى أن أسلوبها فى النقد يتسم بالمجاملة، وأن المدرسة السكسونية الإنجليزية أكثر جدية منها حيث تهتم بالرجل من حيث هو رجل، وكان من الممكن أن تنتهى هذه المسألة عند هذا الحد لولا تدخل طه حسين وتفنيده لما قاله العقاد، وبأن الأخير يريد أن يجامل أنطون الجميل، ولا يريد أن ينقد شعر شوقى بعد وفاته، فلم يجد مخرجا إلا أن يهاجم المدرسة اللاتينية الفرنسية بأتباعها وعناصرها. ويذكر طه حسين فى رده على العقاد بأنه متأثر بالمدرسة اللاتينية وليس بالمدرسة السكسونية الجادة. وهنا يؤكد العقاد بأن طه حسين يدين للمدرسة السكسونية الإنجليزية فى بعض كتبه أكثر مما يدين للمدرسة اللاتينية الفرنسية التى يدافع عنها، ويحدد العقاد هذا التأثر فى كتابى "فى الصيف" و"الأيام"، ويضمن رأيه هذا سؤالا للدكتور طه حسين قائلا: هل ترى الدكتور طه حسين على استعداد لأن يرد إلى السكسون ما أخذه منهم ويكتفى بما أخذه من اللاتينيين؟ إنه ليخسر ولا يربح فى هذه الصفقة بلا مراء!

عندما أصدر الأستاذ العقاد كتابه "رجعة أبى العلاء" كتب الدكتور طه حسين مقالا فى مجلة الثقافة نذكر منه.. "جرى على لسان التلميذ على لسان الشيخ كلام أهمل فيه النحو بعض الإهمال، وما أظن أن أبا العلاء كان ينصب أو يجر حيث يجب

الرفع، وما أظن أنه كان يقبل من تلميذه أن يضع من مكان ما مما أشك أن هذا من خطأ المطبعة، ولكنه خليق أن ينتبه إليه.. وفى الكتاب ذكر لحيرة المنبت الذى لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى، وما أعرف أن المنبت حائر، وإنما المنبت مسرف فى الإسراع يعرض قلبه للعطب فلا يغنى عنه إسرافه فى السرعة شيئا فلا حيرة هناك ولا حائر".

ويرد العقاد فى نفس المجلة بقوله: "رجعنا إلى الصفحة الـ ١٨٩ التى أشار إليها الدكتور فلم نجد فيها منصوبا يجب رفعه، وإنما وجدنا المعرى يسأل: والمساكين والمستضعفين؟.. دون أن يسبق الكلمتين عامل مذكور، والقاعدة النحوية فى هذه الحالة أن يرجع إلى التقدير كقول الشاعر فى البيت المشهور الذى يعرفه النحاة:

أخاك أخاك إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح

فالشاعر هنا لم يقل (أخوك أخوك)، لأن الكلمة واقعة فى الابتداء، ولكنه قال أخاك، لأن التقدير (أذكر أخاك) أو استعن أخاك أو ما شأن هذه التقديرات.

وكذلك كلمتا (المساكين والمستضعفين) تجران، لأن التقدير (ما شأن المستضعفين) أو (ما بال المستضعفين) أو (إننى أسأل عن المستضعفين)، وليس هناك ما يوجب الرفع على الإطلاق. أما (من) فى موضع (ما) فقد رجعنا إلى الصفحة ٢٢٣ التى أشار إليها الدكتور فإذا هو يشير إلى قولنا (لو أن الأستاذ قد شهد أسراب الطير وهى تعبر المحيط كل عام فيغرق منها من يغرق ويسلم من يسلم.. وأبو العلاء لا ريب يقبل من تلميذه أن يضع من فى هذا الوضع لأن:

أسرب القطاهل من يعير جناحه ... لعلى إلى من قد هويت أطير

من تستعمل للعاقل وغير العاقل فى أفصح الكلام، ومنه فى شعر امرئ القيس.

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى ... وهل يعمن (من) كان فى العصر الخالى

وهل يعمن (من) كان أقرب عهده ... ثلاثين شهرا فى ثلاثـــة أحـــوال

ومنه فى القرآن الكريم أيضا: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾[1].

أما المنبت فلماذا لا يحار وقد أتلف دابته وانقطع عن صحبه و لم يصل إلى غايته؟ ومن الذى يحار إن كان مثل هذا لا يحار. ما أظن أن الحيرة مشروطة فى كتب اللغة أو كتب الأمثال بأسباب لا تعدوها، وما أظن أحدا ينفرد ويعدم المركب ولا يبلغ نهاية الطريق إلا وهو حائر فيما يصنع وإن لم يسمح له الدكتور طه حسين بالحيرة، فإذا حرم عليه الدكتور الحيرة فهو وحده الذى يحرمها عليه. لا علم اللغة، ولا علم النفس، ولا قوانين العرف، ولا قوانين التشريع.

ويتناول الدكتور طه حسين كتاب "أبو نواس" للأستاذ العقاد بالنقد، فيقول فى نقده. إن علماء التحليل النفسى لهم مذاهبهم فى البحث يخطئون فيها ويصيبون، وهم يعتمدون فى بحثهم على التجارب فتستقيم لهم حينا، وتخطئهم حينا.

أما الأدباء فيذهبون فى ذلك مذهب التقليد والمحاكاة لا مذهب الاستكشاف والاجتهاد، والعلم لا يجوز فيه التقليد.

ويرد الاستاذ العقاد بقوله: إن دراسة الأديب لعلم النفس ودراسته للأدباء والشعراء على ضوء هذا العلم أمر ضرورى لأنه عندئذ سيتمكن من تفهم ما يصدرون عنه، مثال ذلك أن أبا نواس وحكيم المعرة والمتنبى وبشارا لا يخلو أمرهم من الاعتداد بالنفس، ولكن علم النفس يمكن من التمييز لأنه يذكر لك أن هناك اعتدادا بالنفس يدخل فى جنون العظمة، واعتدادا بالنفس يدخل فى جنون الأثرة، واعتدادا بالنفس يدخل فى الانحصار الذاتى، واعتدادا بالنفس يدخل فى جنون النقص والتحدى، واعتدادا مبعثه العناد، ثم اعتدادا بالنفس يدخل فى جنون الاشتهاء الذاتى، وهو النرجسية التى وصفنا بها أبا نواس".

ولكننا برغم كل شئ نجد بين العملاقين علاقة ود وصفاء ووقاء مما نحسه من سطور وداع الدكتور طه حسين لصديقه الأستاذ العقاد عندما توفى فى عام ١٩٦٤، حيث قال فى جريدة الجمهورية الصادرة فى ١٩٦٤/٣/١٣: ما أشد

ما كان بينك وبيني من خصام في السياسة أحيانا وفي الأدب أحيانا، وما أحلى ما كان بينك وبيني من مودة وإخاء.. أنت أيها الأخ الكريم، والصديق الحميم، والزميل العزيز.. ملأت الدنيا وشغلت الناس حقا وستشغلهم بعد وفاتك أكثر مما شغلتهم في حياتك.

إبراهيم عبد القادر المازني ساخر أدبنا الحديث

العلاقة الأدبية والفكرية بين العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني علاقة خاصة لعل مؤرخي الأدب ونقاده قد أفردوا لها صفحات طوال في كتاباتهم، ومن هؤلاء الكتاب نقرأ صورة قلمية للأديب الكبير محمود تيمور عن العقاد والمازني حيث يقول: "لقد ألف الناس أن يتمثلوهما - أي العقاد والمازني معا، حتى إنهم إذا رأوا أحدهما وحده، أعدوا أنفسهم لاستقبال صاحبه دون قصد.. وذلك ما كان من أمري معهما. حين أزمعت أن أجري القلم في الحديث عن واحد منهما فقد وثبت إلي ذهني على الفور صورة الآخر لا تريمه، ولم تكن لي منجاة عن جمعهما في مقال.."

ويدلل الأستاذ محمود تيمور على هذه الصلة بين الاثنين حيث يراهما يؤلفان صورة تامة تعبر عن جانب كبير من حياة العصر الذي يعيشان فيه.

فقد تزاملا في الشباب.. حتى أدى بهما المطاف إلى أوج الرجولة، وبلغا عصر المشيب فلبث كل منهما على حاله لا يلحقه تغيير. العقاد في شبابه شيخ نشيط، وفي كهولته شاب وقور. أما المازني فهو في شبابه وكهولته معا ساخر يستخدم النكات والمشاكسات حتى من نفسه في غير مبالاة أو تردُّدٍ أو خجل.

على أن في حياتهما أوجه شبه كثيرة تدعو إلى الدهشة والعجب، ولكنها ربما تكون هي السبب في تقاربهما كل هذا التقارب. فقد بدأ الاثنان الحياة العملية يزاولان التدريس، وأصبحا قارئان لمصادر واحدة سواء في الأدب العربي أو الأدب الإنجليزي وعندما نضجا تقاربت أعمالهما الإبداعية والنقدية كشاعران يخطان للشعر نهجا جديداً غير مألوف، وناقدان يثوران على القديم، ويدعوان إلى التجديد، وكاتبان

يشرعان أو ضاع المقالة العصرية فى تفكيرنا الحديث، وصحفيان يناضلان بالقلم عن مذاهب السياسة والحياة الحزبية فى مصر.

ورأس هذه المشابهة وذاك التقارب كانت فى نزعة التجديد، فالاثنان كانا من أبرز دعاة العصر الماضى وأعنى به عصر نهضة أدبنا الحديث. فقد كانا أبرز الدعاة إلى بعث الروح الأدبى على نحو يساير النهضات الأدبية فى الأمم المتحضرة. ولهذا يقرر أغلب المؤرخين والدارسين للأدب أنه إليهما يرجع أكبر الفضل فى أداء رسالة فكر هذه الأمم المتحضرة إلى أدبنا العربى، وذلك بما قدمه كل منهما من عرض لنظريات النقد الحديث – وقتئذ – وأساليب الكتابة الإبداعية. وقد خاضاً فى سبيل ذلك العديد من المعارك، لعل كتاب الديوان يسجل لها أفضل تسجيل.

لذلك يذهب مؤرخو الأدب ونقاده إلى أن العقاد ومعه المازنى كلاهما بليغ الأثر فى توجيه الثقافة العربية فى أنشط وأنضج أوقاتها، وتجديد الأدب فى أوج نضجه وكماله، وإمداد العمل الصحفى بمختلف الأفكار والمقترحات. وتوج هذا التقارب بين العقاد والمازنى فى زمالتهما بمجمع الخالدين، حيث تم التكامل فى الرأى بين شخصيتين لكل منهما منحى خاصا، وأسلوبًا فريدًا. وليس عجيباً أن يكتب العقاد عن صديقه المازنى صفحات فى مذكراته حياة قلم" ويصفه فيها بالعبقرية النادرة خاصة فى الترجمه فيقول: "المازنى كان يستطيع أن يفتح المرجع التاريخى الضخم فى اللغة الإنجليزية، وأن يلخصه وهو يقرؤه، وأن يترجمه وهو يلخصه، وأن يكتبه على ورق الآلة الناسخة فى وقت واحد.. وهى أربعة جهود يجمعها ذكاء المعلم النابغة فى لحظة واحدة: جهد القراءة، وجهد التلخيص، وجهد الترجمة، وجهد التحضير. إلا أن السرعة فى التفهم والترجمة الصحيحة أهون هذه الملكة النادرة.. أقول النادرة، وينبغى أن أقول الوحيدة فى تاريخ الآداب العالمية. فإننى لا أعرف فيهما نظيرا للمازنى فى هذه الملكة التى أسميها بعبقرية الترجمة..".

ويشير العقاد فى كتابته عن المازنى إلى أن هذا الرجل لم يعرف أحد حقيقة فضله، ولذلك أسباب يشير إليها العقاد قائلا: "صديقى المازنى أحوج الأدباء إلى التعريف بحقيقة فضله، لأنى ما رأيت أحدا من المعجبين به إلا وهو يجهل بعض مزاياه. وليس

ذلك لخمول فى الذكر، فقد بلغ المازنى من الشهرة غاية ما يبلغه الأديب فى البلاد العربية، وليس ذلك لغموض فى النفس يباعد ما بين ظواهرها وبواطنها، فما عرفه أحد إلا وعرف أنه من أصفى الناس سريرة.. ولكنه لم يعرف بحقيقة المازنى لسبب غير الخمول أو الغموض، وهو قلة الاكتراث والاكتفاء بأيسر ما ينال، وبعضهم يسميها ملكة السخرية".

وهكذا كان رأى العقاد فى صديقه المازنى.

مصطفى صادق الرافعى جاحظ القرن العشرين

يتفق نقاد العقاد ودارسوه على أن معركته مع مصطفى صادق الرافعى كانت من أعنف المعارك التى خاضها العقاد فى حياته، بل تعتبر أعنف معركة فى ميدان الأدب بوجه عام.. ذلك لأن الرافعى كانت له شهرته المدوية وتاريخه المعروف فى الدفاع عن اللغة العربية، وله فى مجال الشعر قصائد ودواوين ومواقف وآراء.

ويذهب البعض إلى أن معارك الرافعى والعقاد كانت لها خلفية تاريخية تمتد إلى سنة ١٩١١ حينما كان العقاد يكتب فى مجلة عبد الرحمن البرقوقى (البيان)، وكان الرافعى محررها الأول وصاحب الرأى فى نشر واختصار وحذف ما يشاء من الموضوعات، ومن بين هذه الموضوعات ما كان يكتبه العقاد ومن هنا بدأ بينه وبين العقاد خلاف.. امتد إلى مفاهيم فى الشعر والنثر.

وبدأ هذا الخلاف على صفحات المؤيد الصادر فى ١٦ مايو عام ١٩١٤، حيث نجد للعقاد موضوعا عنوانه: "فائدة من أفكوهة" يدور حول اضطراب القياس عند الرافعى.. حينما كتب عن جهاز النطق لدى الإنسان والحيوان. وأخذ العقاد على الرافعى تناقصه بين قوله بصدور اللغة فى الحيوان عن الإحساس وبين كونه يتعلم حرفا أو أحرفا من لغة الناس.. فيستدرك الرافعى فيكتب فى هامشه.. أما الحيوان المروض المأخوذ بالعناية والتعليم والتلقين.

فقد يقتبس جملة من حروف اللغة التى يعلم بها. وبذلك تأتى لبعض الألمانيين أن ينطق كلب بألفاظ خالصة من اللغة الألمانية، ولكنها فى الجملة من حاجات الكلب الطبيعية كالأكل والشرب فلا تخرج عن معنى الإحساس أيضا.

ويعلق العقاد فى مقالته بقوله: "إن مثل هذا المقياس أفكوهة فلم يكن من سبيل أمام الرافعى إلا أن يطنب، فيذكر لغة الحيوان الطبيعية الخالدة ولغة الهمج وموقف الحروف التى ينطقونها والتى لا ينطقونها..

وينهى العقاد مقالته بأن الرافعى منشئ، مكين يحس اضطراب القياس لديه ويعمل القلم ولا يعمل الرأى، لأنه لا يستطيع أن يصنع غير ذلك وإن كتاب الرافعى "تاريخ آداب العرب" فى نظره كتاب أدب لا تاريخ أدب لأن البحث فى هذا الفن يتطلب من المنطق ما يتطلبه الرافعى نفسه ولا يجده فى استعداده.

وينقد العقاد أدب الرافعى فى كتاب الديوان ويقول فى الهجوم عليه: "مصطفى أفندى الرافعى رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه رأسه مراكب يتريث دونها الحصفاء، إذ يدعى الدعاوى العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجوز دعواه.. وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الرأس بمصطفى الرافعى، فحق علينا أن نفهمه خطر مركبه، وأن قدميه أسلس مقادا من رأسه لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة".

وتزداد الخصومة أكثر وأكثر حين يعلن العقاد بأن هذه الكلمة التى يتشدق بها الرافعى ويفتخر لم تصدر عن سعد زغلول، وإنما هو خالقها ومزورها.. ليصدر بها كتابه حتى يروج عند الشعب. وهنا يرد الرافعى عليه بسلسلة مقالات فى مجلة "العصور" تحت عنوان: "على السفود" كانت غاية فى العنف.. كان الهدف منها على حد قول الرافعى نفسه: "نحن نريد أن نضع أنف هذا الجبار فى الأرض مقدار ساعتين على الأقل.. لأنه لم يتجرأ عليه أحد إلى لأن والذين كتبوا عنه لم ينالوا منه نيلا".

وهدأت الخصومة بين الطرفين فترة لتبدأ من جديد بعد صدور ديوان "وحى الأربعين" للعقاد وهجوم الرافعى وهنا عاود العقاد هجومه على الرافعى قائلا: "مصطفى صادق الرافعى رجل عامى من فرعه إلى قدمه أو من قدمه إلى فرعه..

يظن كما يظن كل عامى أن المناقشة هى أن يغلب، وأن علامة الغلب أن يظل يتكلم ويتكلم"... إلى أن يقول مخاطبا إياه: لا يا هذا.. عندى ما يشغلنى عن ضغينة نفسك الصغيرة فاذهب إلى عالم الأشباح الذى ألقيت بك فيه منذ سنوات.

ثم يصفه العقاد بأنه من أدباء الجيل الماضى ويهاجمه قائلا: هذا رجل لا يستحى أن يسمى نفسه على غلاف رسالته بنابغة كتاب العربية وزهرة شعرائها إلى أن يقول مهاجما الرافعى: "إيه ياخفافيش الأدب: أغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة لا هوادة بعد اليوم، السوط فى اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت، وسنفرغ لكم أيها الثقلان..".

وتشتد الخصومة بين العقاد والرافعى بسبب الصراع على صداقة الزعيم سعد زغلول، فالأول هو كاتب الأمة الذى أحبه سعد واحترمه. والثانى له تقديره عند سعد أيضا.. هذا الأمر جعله يقول عن كتابه "إعجاز القرآن" مقرظا بعبارة: "كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس نور الذكر الحكيم".

وحديث العقاد هذه المرة عن هذه الشخصيات كانت بقلمه، وليست بقلم دارس أو باحث يقوم برصد معرفة العقاد بهذه الشخصيات. لقد قام العقاد بهذه المهمة فى كتاب أصدره بعنوان: "رجال عرفتهم".

ولعل معرفته بهذه الشخصيات غطت بضعه صفحات فى مجلة أو صحيفة، حيث لم تتسع كى تكون ترجمة متكامله على النمو الذى نعرفه فى ترجماته.. وهكذا جاءت..

كتاب يتناول فيه العقاد بالدراسة والبحث عددا من الشخصيات المعاصرة له، أو الذين عرفهم من بدايات هذا القرن وحتى نهاية الربع الأول منه، وفى مقدمتهم "الشيخ علي يوسف" و "مصطفى كامل" و "محمد فريد وجدى" و "المنفلوطى" و "المويلحى" و "الزهاوى" و "الشيخ محمد رشيد رضا" و "الشيخ عبد العزيز جاويش" و "الهلباوى" و "جرجي زيدان" و "أحمد لطفى السيد" و "فرح انطون" و "ميرزا محمد مهدى خان" و "أحمد فؤاد" صاحب صحيفة الصاعقة وغيرهم رجال عرفهم حول الأديبة ميّ زيادة.

والعقاد فى هذا الكتاب يعطينا لونا جديدا من الكتابة عن الشخصيات، فما كتبه منها عبارة عن تعليقات متفرقة على سيرة هؤلاء الأعلام الذين كانوا يلقبون بالشيوخ والأقطاب حين بدأ حياته الصحفية قبل الحرب العالمية الأولى بسنوات، ومنهم أيضا من لم يكن من الشيوخ والأقطاب فى تلك الفترة، ولكنهم لحقوا بهم فى الطريق وعرفهم كما عرف الأولين، ووصف معرفته بهم، كما وصف معرفته بأولئك الشيوخ والأقطاب من زاوية خاصة تتيح له أن يقول عنهم ما ليس فى التاريخ العام الذى يقال فى كل تعليق أو تقدير.

والعقاد يقول فى تقدمته لهؤلاء الرجال الذين عرفهم مؤكدا وجهة النظر هذه: وأكثر هؤلاء الأعلام من الصحفيين أو الذين كانت لهم مشاركة موجهة فى الكتابة الصحفية، ونسمى كتابتنا عنهم بالتعليقات ولا نسميها بالسير أو التراجم أو التحليلات لأننا لم نكتبها لنستقصى الحوادث أو نحلل الشخصيات من وجهتها العامة، ولكننا كتبناها لنبدى لهم رسوما قريبة من الزاوية التى اتفقت لنا معرفتهم فيها وتوخينا فى هذه الرسوم أن تكون كصور السياحة التى يلتقطها صاحب الصورة الشمسية لبعض المناظر أو بعض الشخوص حيثما مرت به فى رحلاته فليست هى أطلسا جغرافيا للمواقع والبلدان، وليست هى شرحا تاريخيا للشخوص والأعلام، ولكنها بمثابة المذكرات المدونة فى الطريق لتسجيل المعالم الخاصة من زاويتها العارضة، وإن لم تخرج بهذا التخصيص عن مجال التعميم.

هكذا يذكر العقاد فى تناوله لهذه الشخصيات المختارة التى اتفق التفاؤها فى مجموعة واحدة، كما يتفق التقاء الصور المتفرقة فى جعبة واحدة من هذه الرحلة أو تلك بغير مفاضلة مقصودة بين الذين ذكرهم، والذين لم يذكرهم ممن يعرفهم كمعرفته بهؤلاء الأقطاب والأعلام.

والعقاد يتحفظ فى منهجه الذى جعله يختار هذه الشخصيات بالذات، ولماذا هو اختارها؟ فيقول: "وربما جمعت المناسبة بين طائفة أخرى كهذه الطائفة فى مكانتها وحق الكتابة عنها، فلا تحسبها مسألة تقديم وتأخير، ولا مسألة موازنة وتوضيح. وإنما هى رحلة أخرى من رحلات الحياة الصحفية أو الأدبية أو السياسية. ولا مفاضلة فيما يعرض لها من أسباب التقديم والتأخير".

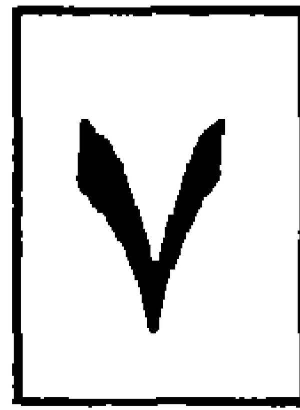
إن كل ما يبغيه العقاد فى عرضه لهذه الشخصيات التى عرفها فى حياته أن تكون هذه المجموعة حفلة استقبال اجتماعية، فيها يعرّف القراء بأقطاب وأعلام هذه الفترة من تاريخنا كما عرفهم هو على سنة التحية فى مجالس الأصدقاء.

يبقى أن نشير فى تقدمتنا لهذا الكتاب إلى أن العقاد كتب إلى جانب تناوله لهذه الشخصيات التى ذكرت فصلا عنوانه: "وراء التراجم والسير"، فيه يذكر أنواع هذه

التراجم وتلك السير، ويدلنا على كيفية كتابتها أو الفرق بينها وبين أنواع الكتابة الأخرى.

ولعله بذلك كان يريد أن يسبغ على هذه الإشارات إلى هذه الشخصيات أو على حد تعبيره" هذه التعليقات" نوعا من العمق العقادى. حيث قدم كتابه بهذه العبارة الدالة على أن ما يحويه هذا الكتاب من حديث عن هذه الشخصيات هو فى الأصل تعليقات حيث يقول: "فى الصفحات التالية تعليقات متفرقة على سير طائفة من الأعلام الذين كنا نسميهم بالشيوخ أو الأقطاب، حين بدأت حياتى الصحيفة قبل الحرب العالمية الأولى بسنوات، ومنهم مَنْ لم يكن من الشيوخ والأقطاب فى تلك الفترة، ولكنهم لحقوا بهم فى الطريق وعرفناهم كما عرفنا الأولين..".

ومع ذلك فالمادة التى كتبها العقاد عن كل شخصيته واعتبرها تعليقا أو هامشا.. تعد مرجعا للباحثين عن هذه الشخصيات التى عرفها.



سابعا: العقاد وهذه الإنجازات

- أول حديث صحفى مع وزير مصرى
- تطورات البحث العلمى وأولية الحديث الصحفى
- المترجمات
- المراجعة والتقديم
- أدب الرسائل الشخصية
- تراث العقاد هل يضيع؟!

إن نظرة إلى مراحل نشاط العقاد العقلى تكشف بأن أول اهتماماته الفكرية كانت فى العمل الصحفى، حتى دخل ميدان الصحافة من باب الثقافة، فى وقت كانت فيه النغمة السائدة فى بعض جوانب الصحافة، هى الارتزاق كهدف، والتشهير كوسيلة، والسطحية كمنهج، أو باختصار الفهلوة بكل ما تعنى. فالمادة المطلوبة للتحصيل الصحفى وقتئذ يضيف العقاد نفسه قائلا: حملة على مشهور، أو فضيحة من أسرة تخاف التشهير، أو تهديد مقدور على "حسب المناسبات ومصالح الضحايا، أو ضجة سياسية، أو اجتماعية تشتبك فيها المطامع والدعايات، وتتعدد فيها الفرص للمنتهزين من هنا أو من هناك". ومن السهل اكتشاف ذلك حين تراجع أسماء صحف منها: "الكرباج" و "البعبع" و "الجاسوس" "واللجام" و "الصاعقة"، أو "المرصاد" و" العفريت" و"الخلاعة" و "الغندرة" و "المرستان" و "الصبوة"، فلا يبقى ما يستر خفاياها.

ولا عجب والأمر كذلك أن يكون العقاد نشازا بين صحفى ذلك الزمان، وأن يكون موضعا لسخرية أحدهم وهو "جورج طنوس" مندوب صحيفة الوطن فيما يسجله العقاد عن هذا الصحفى الذى يقول عنه بطريقته الشامية: "يحرق..." ها البريس - يقصد الصحافة - ما عاد غيرها هالزعران يسود صفحاتها: فالعقاد فى رأى طنوس ومن على شاكلته "زعرانا يسود الورق" ما دامت نظرته للعمل الصحفى تختلف عنه. فهو يرى الصحافة ثقافة وليست فهلوة، أو على حد تعبير العقاد: "وقد بدأت عملى فى الصحافة راغبا فيه مقبلا عليه. ووجدت من اللحظة الأولى أننى أريد أن أفرغ فيه جعبة المعرفة التى حصلتها من مطالعتى فى الكتب والحياة".

ولا يعنى ذلك أن الساحة الصحفية كانت تخلو من أساتذة يستحقون كل احترام فى مقدمتهم: على يوسف مدير المؤيد، ومصطفى كامل مدير اللواء ولطفى السيد

مدير الجريدة، وفريد وجدى، مدير الدستور وأمين الرافعى مدير الأخبار، وأصحاب الأهرام. وطبيعى أن يشارك فى تحرير هذه الصحف بالمراسلة كما حدث مع المؤيد، أو بالكتابة كما حدث مع الجريدة، أو بالعمل كما حدث فى الدستور والأهرام. وطبيعى أيضا أن تجتذبه صحيفة الدستور لما لصاحبها فريد وجدى من سمعة ثقافية جليلة، للعمل بها منذ عددها الأول إلى العدد الأخير مفضلا إياها على صحيفة اللواء ومديرها مصطفى كامل. وأن يكون عمله بالدستور مناصفة بينه وبين صاحبها، أو كما يقول العقاد: "كنت نصف هيئة تحرير برمتها، إذ لم يكن فى قلم التحرير غير كاتبين أنا وصاحب الصحيفة الذى كان قليلا ما يبرح داره، فكنت أنوب عنه فى أعمال الصحيفة الخارجية، ومنها الحصول على الأخبار والأحاديث، وبينها أول حديث للوزاراء المصريين..".

كان العقاد أول من أجرى حديثا صحفيا مع وزير مصرى هو وزير المعارف وقتئذ سعد زغلول، وفى ذلك يقول: "على أننى أحمد الله، لأن المتقدمين علىّ فى الصحافة لم يغلقوا علىّ جميع الأبواب، فبقى لى فى الصحافة المصرية باب واحد أستطيع أن أقول إنى كنت أول السابقين إليه. وذلك هو باب الأحاديث مع الوزراء والساسة. فلا أعلم أن أحدا من الصحفيين المصريين سبقنى إلى إجراء حديث عام مع وزير مصرى أو رئيس شرقى". ويعلل العقاد ذلك النقص الواضح قائلا: "إن حديثا يجرى مع وزير لا يملك من أعمال وزارته غير التوقيع. لهو اللغو بعينه. فلا حرج على الصحفيين أن تجتنبوه.. حتى خطر لى أن أقتحم هذا الباب لأول مرة. فكان اقتحامى إياه فى الحق عنوانا لصفحة فى تاريخ الوطنية المصرية وليس مجرد سبق صحفى متكرر.

والعقاد هنا يقصد بأسبقية أو أولية هذا الحديث بالذات بالنسبة للمسئولين والوزراء المصريين على وجه التحديد. وهو بذلك لم يتجاوز الحقيقة كما يرى الصديق الدكتور حمدى السكوت. إذ أن الحديث الذى يسبقه بأيام كان للعقاد أيضا مع الغازى أحمد مختار قوميسير الدولة العثمانية وقتئذ، وهو ليس من الوزراء المصريين.

إلا أن الغريب أن ينشر هذا الحديث فى صحيفة الدستور لسان حال الحزب الوطنى بعد صحيفة اللواء، وبخاصة بعد إشراف الشيخ عبد العزيز جاويش على تحرير اللواء. إلا أن العقاد كان يؤيد سعد زغلول وإن كان كاتبا فى الدستور، فكان يدافع عن سعد على صفحاتها دون أن يحذف فريد وجدى كلمة واحدة إيمانا منه بحرية الكاتب حتى لو كان دفاعا عن معارض مادامت للمصلحة العامة.

تبقى بعد ذلك الإشارة إلى هذا الحديث بعد قراءته، حيث نشر فى ١٩٠٨/٥/٢٢ وكان موضوعه قضايا التعليم، ويبدو أن التعليم يشغلنا فى كل زمان. وإلا فما معنى أن يستهل العقاد حديثا مضى عليه ما يقرب من القرن بقوله: "مسألة التعليم الآن هى المسألة التى شغلت الأذهان وأفاضت الجرائد فحصها وتقليبها من جميع وجوهها.." ويبدأ بطرح القضايا الخاصة بالتعليم التى تهم كل الناس، فتكون أسئلته متضمنة لاهتمامات الناس حتى يجيب عنها ناظر المعارف سعد زغلول. ويشمل الحديث أيضا كل نشاطات وسياسات التعليم. فيسأل عن عرض لوائحه على مجلس الشورى أم لا؟ وعن تدبير ميزانية تسمح بتوسيع قاعدته إلى أن يسأل عن الخطة التعليمية لنظارة المعارف – ويتفرع الحديث إلى مراحل التعليم فيبدأ بالمرحلة الابتدائية وكيف أن سهولة ويسر امتحانات اللغة العربية ربما تعنى إهمالا متعمدا للغة البلاد. وينتقل إلى التعليم الثانوى، وهل تتحقق فيه عدالة التوزيع على مديريات الأقاليم إلى التعليم الجامعى، وكيف تقتصر فى تدريسه على اللغتين الفرنسية والإنجليزية واستقلالية الجامعة ماليا وإداريا عن الحكومة. ويجيب سعد زغلول مؤيدا أو معارضا على النحو الذى يكون عليه الحديث الصحفى مع المسئول، والذى يجتهد المحرر الذى يجريه أن يستفد كل ما يمكن الحصول عليه من المسئول ليقدمه فى النهاية إلى القراء.

فى سيرته الذاتية "حياة قلم" قال عملاق الفكر عباس محمود العقاد إنه "أول صحفى مصرى حصل على حديث من وزير مصرى عامل فى الوزارة، أو من رئيس شرقى كبير يسمع له رأى فى السياسة، كما رأينا فى الصفحات السابقة.

وفى هذه العبارة وغيرها من المذكرات يسجل الأستاذ العقاد صراحة بأنه أول من أجرى حديثًا فى الصحافة المصرية مع الزعيم سعد زغلول الذى كان وقتئذ ناظرا للمعارف العمومية، وأما الرئيس الشرقى الكبير فهو "الغازى أحمد مختار" قوميسير الدولة العثمانية. وقد أجرى الأستاذ العقاد هذا الحديث مع سعد زغلول بصحيفة الدستور فى ٢٢ مايو عام ١٩٠٨ بعد أن تولى الزعيم سعد نظارة المعارف عام ١٩٠٧.

وقد جاءت كل الكتابات والرسالات الجامعية التى تدور حول الجانب الصحفى عند العقاد مرددة ما سجله العقاد بمذكراته وكأنها حقيقة لا تقبل الجدل! ومن هذه الرسالات الجامعية والكتابات رسالة الدكتور عبد الحى دياب عام ١٩٦٤، التى أشرف عليها الدكاترة محمد غنيمى هلال، ومحمد مندور، وشوقى ضيف، فسجل صاحب الرسالة: "أجرى العقاد الحديث الأول مع سعد زغلول فى نظارة المعارف وغيره من الشخصيات المصرية والأجنبية على حد سواء، وتعتبر هذه الأحاديث التى أجراها العقاد غير مسبوقة. وهى أوليته التى خرج بها من أول عمل فى صحيفة يومية"، وقد أقرت لجنة المناقشة هذه المعلومة و لم تعترض عليها.

وأورد الدكتور شوقى ضيف هذه الواقعة فى عام ١٩٦٤ بكتابه "مع العقاد" فقال: "وقد سجل العقاد بالحديث مع سعد زغلول أولية فى تاريخ الصحافة المصرية، إذ أجرى أول حديث صحفى مع وزير مصرى.

وفى رسالة جامعية تقدم بها إلى قسم صحافة القاهرة الدكتور راسم محمد الجمال، وتحولت إلى كتاب عنوانه: "عباس العقاد رجل الصحافة. رجل السياسة" راجعه وأشرف عليه الدكاترة: عبد الملك عودة، وخليل صابات، ومختار التهامى. للدكتور الجمال رأيا حيث قال: "يذكر العقاد أن حديثيه – مع الغازى أحمد مختار وسعد زغلول – هما أول حديثين صحفيين يجريهما صحفى مصرى مع شخصيات مصرية أو شرقية كبيرة إلا أنه. من الصعب إثبات ذلك أو نفيه، لأنه يحتاج إلى مسح تام لكل ما نشر فى الصحف المصرية قبل ذلك الوقت". والحق أننى كنت أنتظر من هذا الباحث المتخصص أو من الأساتذة المشرفين على رسالته العلمية والتى عنوانها: "العقاد فى تاريخ الصحافة المصرية من عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩٦٤" رأيا قاطعا حول أسبقية الأستاذ العقاد فى إجراء الحديث الصحفى، إما الإثبات أو النفى.

لكن مع ذلك فإن عبارة هذا الباحث المتخصص وصمت هؤلاء العلماء الأجلاء قد أوجدت لدى نوعا من الشك العلمى فيما قاله الأستاذ العقاد عن نفسه، حتى وإن كنت قد تأثرت به كغيرى فما كتب عنه قبل الصديق الجمال أو بعده مسجلاً أسبقيته فى هذا المجال. لكن ما العمل والبحث العلمى يقتضى أن يعلن المرء ما وصل إليه حتى وإن كان مخالفا لما كان يظن أو يعتقد. حتى يكون تحت أيدى الدارسين، فقد يكون منهم من هو أنفذ بصيرة وأشد عدلا وأكثر علما، فيأتى بجديد به يتقدم هذا البحث ويتطور.

لقد أثبت تطور البحث – بالنسبة لى – أن الأستاذ العقاد لم يكن هو أول كاتب حديث بالصحافة المصرية. والسبب أن هناك من سبقه فى هذا المجال حيث أجرى صاحب الأهرام الأستاذ بشارة تقلا حديثا صحفيا مع المفكر والسياسى

هانوتو وزير خارجية فرنسا حول "الإسلام والمسلمون"، وهى مناظرة تمت بين هانوتو والشيخ الإمام محمد عبده. وقد نشر هذا الحديث بالأهرام فى ١٦ يوليو ١٩٠٠ بعد أن نشر هانوتو مقالتين جاءت فيها بعض الجوانب السلبية التى رد عليها الشيخ الإمام فى مقالتين متتاليتين أتبعهما بثالثة خصصها للرد على ما جاء فى حديث هانوتو مع الأستاذ تقلا. الذى قدم حديثه قائلا: "رايت وأنا فى باريس أن أقابل المسيو هانوتو، وأقف منه على حقيقة الأحوال بوجه عام وعلى الغاية التى قصدها من كتاباته الأخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص، ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب بعيد الصيت، والسياسى الواقف على أحوال أوروبا والشرق. وكنا نعتقد كما قالت الأهرام مرارا وتكرارا أن تقدم الشرق يكون بتقدم الأمة الإسلامية، توخيت أن أنشر أقواله وآراءه فاستأذنته بذلك فأذن لى.. "ثم يطرح أسئلة يجيب عليها هانوتو لتكون بعد ذلك حديثا مطولا يرد عليه الشيخ الإمام محمد عبده، فيقدم الأستاذ تقلا خدمة صحفية هى فى حد ذاتها من أولى الأمور التى يهدف إليها أى حديث صحفى ممتاز.

ومعنى هذا أن الأستاذ تقلا فى حديثه مع هانوتو كان أسبق من الأستاذ العقاد فى حديثه مع سعد زغلول، لأنه بحسبة بسيطة إذا كنا نعرف أن الشيخ الإمام محمد عبده قد توفى فى عام ١٩٠٥، وأن الزعيم سعد تولى نظارة المعارف العمومية عام ١٩٠٧ يثبت لنا أسبقية الأستاذ تقلا على الأستاذ العقاد فى كتابة الحديث الصحفى.

والعجيب الذى يتصل بهذا الأمر والذى لا يخلو من دلالة أن الأستاذ العقاد فى كتابه عن الشيخ محمد عبده "عبقرى الإصلاح والتعليم" لم يذكر شيئا عن هذه المناظرة التى تمت ين الشيخ الإمام والمفكر السياسى الفرنسى. مع أن المفترض غير ذلك لكون العقاد كاتبا ومفكرا إسلاميا لا تخفى عليه هذه الجوانب.

وليس الهدف هنا تصيد خطأ ربما لا يكون مقصودا من أحد روادنا الكبار أو

كتّابنا ودارسينا الأجلاء، ولكن الهدف هو إثبات أنه بتطور البحث العلمى تظهر نتائج جديدة.

ولهذا أقول إن العقاد حين أشار إلى أوليته فى إجراء الأحادث الصحفية، ربما كان يقصد أنه كان أول صحفى يجرى حديثا صحفيا مع مسئول مصرى هو وزير المعارف العمومية سعد زغلول، وهو غير ما صنعه صاحب الأهرام تقلا من إجراء حديثه مع مسئول أجنبى هو "هانوتو" وزير خارجية فرنسا والمفكر المشهور.

ليس هناك خلاف فى أن الأمم مهما بلغ مستواها فى حاجة ماسة دائما إلى الوقوف على الآراء العلمية والأدبية والفنية ومختلف النواحى الثقافية فى غيرها من الأمم، وتعرف وجهات نظرها واتجاهات تفكيرها سواء فى السياسة والاقتصاد أو نظم المجتمع إن الاكتفاء الذاتى فى مسائل الفكر والثقافة بوجه خاص من دواعى التخلف والقصور وبواعث التأخر والجمود. والأمم التى تكتفى بتجاربها الخاصة ولا تحاول الاستفادة من تجارب الإنسانية عامة تضيع الكثير من جهودها عبثا. والرجل المثقف فى العصر الحاضر لا يكتفى بالتزود من ثقافة الأمة التى ينتسب إليها وينشأ بين أحضانها مهما كانت مكانة ثقافتها من الرفعة والسمو والطرافة والأصالة. وذلك لأن الثقافة الحقة تقتضى الاطلاع على أحسن الآثار الفكرية والأدبية. وهذه الآثار ليست مقصورة على أمة من الأمم دون غيرها. فهناك عدالة فى توزيع المواهب والملكات وتهيئة أسباب النبوغ والعبقرية ولكل أمة من الأمم مجال للسبق والفخار.

ولكن إذا كان معنى سعة الاطلاع وتعميق الثقافة أن يقرأ الإنسان خير المؤلفات وأحسن ما أخرج للناس بلغته الأصلية التى كتب بها، فإن هذا معناه استحالة وجود من سمت ثقافته واتسع اطلاعه، وذلك لأن الذى يطلب الثقافة فى هذه الحالة يكون حتما عليه أن يقضى وقتا طويلا قد لا تتسع له الأعمار فى تعلم مختلف اللغات، وإجادتها ليتمكن من قراءة آداب الأمم التى تعبر بها عن نفسها. ولا نزاع فى أن بعض هذه اللغات طرأت عليها تغيرات جوهرية فى خلال العصور المتوالية، ولا مفر له حينئذ من معرفة هذه التغيرات ليفهم ما يقرأ أو يستوعبه، وعليه فى الوقت نفسه أن يجمع مع الدراسة القائمة على بذل الجهد الشاق دراسة أخرى قائمة على إنماء حسن التذوق وجودة الاختيار والقدرة على التمييز.

والرجل الحسن الاطلاع على حد قول الأستاذ على أدهم ليس هو الرجل الذى التهم الكتب التهاما وجمع المعلومات الضخمة والمعارف الواسعة، وإنما هو الرجل الذى استطاع أن يقدر ما يقرأ ويزنه ويتذوقه. وواضح أن هذه المحاولة.. محاولة معجزة ينوء بها الجهد البشرى.. فالكثير من الكتب القيمة كتبت بلغات غير متيسرة كالهندية والصينية واليونانية واللاتينية وليس فى طاقة كل إنسان أن يقراها فى لغاتها الأصلية، فماذا يصنع مثل هذا الرجل؟ ماذا يصنع طالب الثقافة الحقة وسعة الاطلاع فى مثل فى هذا الموقف؟!

لا مفر له أو لأمثاله أو للدولة كلها من الاطلاع على المترجمات. ومن هنا تبرز الحاجة إلى الترجمة.

وقد تنبهت مصر إلى قيمة هذه الترجمة فى عصورمختلفة، ولكن هذه الترجمة نشطت حركتها بصورة ملحوظة فى بدايات هذا القرن، ولعل هذا كان نتيجة من نتائج عودة المبعوثين من الخارج ومراجعتهم لبعض الترجمات الموجودة، فماذا وجدوا؟..

وجدوا أن الكثرة العظمى من المترجمين لا يكشفون عن ثقافة أدبية ناضجة ولا يقدرون قيمة الإنتاج الذى يقدمونه، ولا يفهمون معنى الترجمة، وإنما كانوا أشبه بتجار يلبون حاجة السوق ويقدمون إليه بضاعة فجة أحيانا ومسروقة أحيانا. ومشوهة فى أغلب الأحيان، وإذا كانت الحاجة إلى إشباع ميل القراء قد اثر فى اختيارهم الكتابات وقيمتها من الناحية الفنية، فإنه أثر أيضا فى مدى تحمل المترجمين لمسؤليتهم إزاء الأعمال التى يقومون بها. وهنا تعرضت الأعمال المترجمة لعدم الإحساس الكامل بالمسؤلية مما كان يعرضها لكن ضروب التشويه والاستهتار. ومن مظاهر هذا الاستهتار مثلا أن كثيرا من المترجمين لم يحترموا حق المؤلف على النص الذى يقومون بترجمته ولا حق اللغة التى يترجمون عنها. حين لا يذكرون اسم هذا العمل فى لغته الأصلية.

وأما لغة الترجمة فى ذلك الوقت فقد كانت تتأثر بثقافة المترجم نفسه. وإحساسه باللغة العربية، وكانت نتيجة لذلك تتراوح بين العامية التى تكشف عن

ضعف المترجم، والعربية المثقلة بالبديع.. ولهذا كان لابد أن يقترن مع الحاجة إلى الترجمة فى بدايات هذا القرن ظهور أسلوب جديد.. يعتمد على السرد البسيط إذا كانت روايات مثلا. أسلوب يميل إلى السهولة ويتخلص من هذا الضعف وتلك الضحالة.

وبالطبع الحاجة إلى الترجمة تتساوى فيها الترجمات العلمية والترجمات الأدبية، وإن كانت الترجمات العلمية تكون أسبق من الأخرى. فحاجة الناس فى عصر معين إلى مادة علمية تكون أول دافع يدفعهم إلى نقل ماهم بحاجة إليه، حتى إذا ما أشبعت حاجتهم هذه، فقد يلجأون عند ذلك إلى الترجمة للذة والتذوق.

لكن ترجمة الأدب أصعب بكثير من ترجمة سائر المعارف والعلوم لأنها لا تحتاج إلى فقة اللغتين.. المنقول منها والمنقول إليها فحسب، بل تحتاج كذلك إلى فطرة أدبية تتيح لصاحبها أن يستوعب وأن ينقل الخلجات والنبضات والنبرات والرموز والظلال.

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى كتّاب وأدباء هذه وظيفتهم قبل أن يكونوا مترجمين، ومن هنا أيضا كان دور العقاد ورفاقه الكرام فى تقديم هذا اللون من الترجمة المطلوبة.. لأن العقاد أديب يحسن لغته العربية واللغة الأجنبية التى يترجم عنها، وفوق هذا وذاك يحسن تسجيل هذه الخلجات التى تكون بين ثنايا السطور، ثم هم أيضا كأديب عملاق استطاع أن يبث روح الكاتب الاصلى فى الصورة التى نقل إليها كلامه، حتى لكأنه هو الذى كتب ما كتبه بلسانين مختلفين. كذلك استطاع أن يطوع اللغة المترجم إليها لتقبل المعانى التى نقلت إليها من لغة أخرى. وكل هذه أمور ميسورة بالنسبة للعقاد وأبناء جيله. يضاف إلى هذا جميعه سبب مهم كثيرا ما كان ينبه إليه العقاد فى أحاديثه وتوجيهاته حين يكون فى موقع الإشراف على ترجمة. هو احترام النص والاحتراس فى استخدام كلماته. فالمترجم رجل يتعامل مع الكلمات مستخدما - فى إخلاصه - ميزانا حساسا. وهو إذن مطالب بأن يعمل حسابا لكل كلمة وألا ينساق إلى التوسع الذى لا مبرر من ورائه. فهو حين يرتاد أرض الغير يجب ألا يخون

الغير. والعقاد كان ينبه دائما إلى أن النص فى الترجمة أشبه ما يكون بالنص فى القانون. لكل كلمة فيه وزن وحساب..

وهل يستطيع أحد أن يُسِيءَ تفسير نص القانون؟ بالقطع لا. ولهذا أيضا لا تنبغى إساءة تفسير النص فى الترجمة. المترجم الدقيق والأمين فى نفس الوقت لا يقع فريسة البلاغة أو العبارات الرنانة أو الجمل الفضفاضة التى هى أوسع وأضخم من المعنى الذى خلقت له. لكن أى نوع من أنواع الترجمة كان يفضله العقاد؟

بالطبع كانت الآثار الأدبية هى الترجمة المفضلة عنده.. وذلك هو ما يوافق طبيعته وفكره. فى رأيه أن الآثار الأدبية تتبوأ أعلى مكان فى الحياة الثقافية والتراث الثقافى لكل أمة. فالنص الأدبى ثابت لا يتغير على مضى الزمن، والمترجم لابد أن يلتزم بالأصل ويحتفظ بالمعانى كما هى فلا يبدل منها ولا يغير.

لقد اهتم العقاد وجيله من الأدباء بنقل عيون الأدب العالمى إلى العربية وقد تسلحوا أولا بلغتهم الأصلية وثانيا بهذه اللغات الأجنبية التى يترجمون عنها. ولذلك جاءت ترجماتهم للآثار الأدبية آثارًا أدبية فى اللغة العربية المترجم إليها. وقد احترموا هذا المبدأ احتراما عظيما.. أمرا جعل الشاعر حافظ إبراهيم وهو من جيل العقاد يقول فى وصف أثر أدبى وترجمته: فجاء الأصل والترجمة كالحسناء وخيالها فى المرآة.

وقال محمد فريد أبو حديد وهو من نفس الجيل أيضا فى تقدمته لترجمة. "ما كبث" تاليف شكسبير: "إنى أرى أن ترجمة الآثار الأدبية الكبرى إلى اللغة العربية ينبغى أن تضيف إلى التراث الأدبى العربى إضافة جديدة جديرة بأن تبقى لذاتها وبأن تقرأ لذاتها كإنتاج أدبى عربى.. فإذا لم تحقق الترجمة هذه الإضافة فهى لا تزيد على أن تكون تعريفا بالأثر الأدبى الأجنبى. أو تسجيلا له بوصفه أدبا أجنبيا. والفرق عظيم بين أن تكون الترجمة قطعة من الأدب العربى، وبين كونها تعريفا بالأثر الأدبى مع بقائه أجنبيا".

ثم يقول: "إنا لا نقنع – أو بعبار أدق – إن اللغة العربية لا تقنع، بأن يسجل فيها موضوع شكسبير، بل هى تطالب من يتعرض لهذه الترجمة إذا أراد خدمتها حقا – أن

ينقل فيها صورة صحيحة ينعكس فيها الأثر الفنى الذى أبدعه شكسبير، فى إنتاج جدير بأن يعد إضافة للأدب العربى. هذه هى الفكرة الأساسية للترجمة الأدبية، كما ينبغى لها أن تكون. وإذا سلمنا بصحة هذه الفكرة التى قدمها لنا العقاد وجيله من الأدباء الكبار فكيف السبيل إلى تحقيقها؟

إن أول شرط يخطر إلى أذهاننا أن المترجم الذى سيكون إنتاجه أثرا أدبيا يحاكى الأثر المترجم يجب أن يكون هو نفسه أديبا راسخ القدم فى التأليف الأدبى. لا يكفى أن يكون ملما أحسن إلمام باللغتين، فالأدب روح واستعداد وسليقة وهذه اشياء تستند إلى طبع فى النفس، ولا تكتسب بالدراسة والحفظ فقط.

وإذا كنا نتطلب ممن يترجم كتابا فى الطب أن يكون هو طبيبا، فليس بمستغرب والحالة هذه أن نطلب من مترجم الأدب أن يكون أديبا أو من يترجم الشعر أن يكون شاعرا.

وقد نبه الدكتور محمد عوض وهو واحد من جيل العقاد إلى هذا الخطر المحدث باللغة العربية وآدابها حين يتصدى لترجمة الآثار الأدبية من ليس لديهم موهبة الأدب أو حتى الاستعداد لأن يكونوا أدباء فقال فى كتابه فن الترجمة: "والذى أخشاه أن هناك فكرة تساور عقول بعض الناس. أن ترجمة كتاب أدبى أمْرٌ يستيطع أن يتمرس به أى إنسان له إلمام باللغتين. وأن الأدب ليس من موضوعات التخصص، ولذلك يصلح لترجمته جميع الناس. هذه فكرة شائعة، ولعلها ترجع إلى أن كتب الأدب هى مما يقرؤه ويستمتع به جميع الناس أيا كانت ثقافتهم ووجهتهم فى الحياة. وهذا بلا شك صحيح. فنحن جميعا نستمتع بالادب ونتذوقه ولا نستطيع كلنا أن نتذوق كتب اللغة مثلا أو الهندسة. لكن التذوق شئ والإنتاج شئ آخر.. فإنك إن تذوقت طعاما فليس معنى ذلك أنك تستطيع إنتاجه. ولعلك إذا حاولت إنتاجه أن تعافه نفسك. كذلك الترجمة الأدبية التى يحاولها من ليس له حظ من الأدب، فإنها مما تعافه النفس ولا تستسيغه.

وإلى جانب كون المترجم من الأدباء يجب أن يكون ملما بالأصول السليمة

للقيام بعمل الترجمة. من الجائز بالطبع أن يكون للإنسان ذوق يهديه سواء السبيل ولا نحتاج عند ذلك لأن نرشده أون ندله على سبيل يتبعها أو أمور يراعيها. ولا شك أنه ليس من السهل أن نتحدث عن وسائل ومسائل المدار الأول فيها هو على حسن الذوق.

والعقاد نبيه إلى الأمانة فى التجرمة عامة وترجمة الآثار الأدبية بخاصة. لكى تؤدى هذه الآثار تأدية دقيقة دون أن ينقص منها شئ. فعلى الرغم من المثل الإيطالى الذى يقول إن الترجمة فيها الخيانة دائما. وأن الأمانة لا يمكن أن تؤدى بأكملها. إلا أنه مطلوب من كل ترجمة أكبر قسط من الأمانة، وليس معنى الأمانة فى الترجمة المحافظة على اللفظ الأصلى. فكل كلمة جاءت فى شعر المؤلف أو نثره فى القطعة المراد ترجمتها، كل كلمه بغير استثناء هى أمانة يجب أن تؤدى... هذه هى الترجمة التى توصف بأنها ترجمة حرفية. ولا بأس بهذه الأمانة التى تتميز بهذا الحرص الشديد على كل لفظ. أجل لا بأس بها. ولكن على شرط ألا تخل بالمعنى وعلى شرط ألا تضطر المترجم إلى إضافة الحواشى والهوامش لكى يشرح للقارئ ما الذى يعنيه الأديب أو الشاعر. فإن الكلمة رمز على المعنى. وقد تكون رمزا على معى آخر، ولابد من مراعاة المعنى المقصود فى كل حالة.

ولكى تكون الترجمة صورة للأصل، يجب أن تكون واضحة فإذا أدركنا هذا الوضوح مع المحافظة على اللفظ فى الأصل، فلا بأس بالترجمة الحرفية.. أما إذا ظهر لنا أن الحرص على اللفظ سيؤدى إلى خيانة المعنى، فلا بد لنا من أن نؤثر الحرص على المعنى. بل ونقدمه على كل اعتبار آخر. هكذا يرى العقاد متفقا مع جيله من الأدباء الذين ابتدعوا أسلوبا جديدا فى الترجمة الأدبية، ذلك أن الأمانة فى الترجمة هى الأمانة على المعنى أكثر مما هى أمانة على اللفظ، وليس معنى هذا أن نطنب إذا كان المؤلف قد أوجز أو أن نترجم الكلمات الخمس بسبع أو عشر: ولكن لا ضير علينا أن نفعل ذلك إذا كان فى التزام الكلمات الخمس إخلال بالمعنى، وبديهى أن ذوق المترجم وإحساسه المرهف خير دليل يرشده إلى ما يثبت وما يحذف، وإلى ما يتطلب زيادة أو نقصا.

والمترجم الأديب يراعى أمورا أخرى حتى يؤدى الأمانة على الوجه الأكمل. مثلا إن المؤلف الأديب كثيرا ما يورد فى آثاره الأدبية قطعا ممتازة ببلاغتها وروعتها تكون واضحة على ما قبلها وما بعدها. وهنا يجب على المترجم الأديب أن يبذل جهده حتى يحفظ لهذا العمل – الذى يقوم بترجمته – روعته وفصاحته.. ذلك أن المؤلف الأديب لم يول هذا العمل عناية خاصة، إلا لأن الموقف يتطلب ذلك، ويجب أن تنعكس هذه الحقيقة فى الترجمة.

وربما يكون فى الأصل كلام يجرى مجرى المثل. فعلى المترجم أن يحاول جهد طاقته حتى تكون عبارته أيضا أدنى إلى المثل.

فإننا فى الترجمة يجب أن نحرص على المعنى، وعلى شئ آخر بجانب المعنى يصعب تحديده لكن يمكن تسميته بروح العبارة، أو روح القطعة أو آثر المراد ترجمته، فإذا كانت القطعة الأصلية تفيد الفكاهة أو السخرية أو الحماسة أو الرقة يجب أن يحاول المترجم نقل هذه الخصائص إلى الترجمة. وهناك مشكلة التلاعب بالألفاظ. ومن الصعب أحيانا، بل يوشك أن يكون من المستحيل، المحافظة على هذه الخاصية دون التخلى عن الدقة اللفظية لأن الألفاظ التى بينها جناس بالإنجليزية مثلا. قلما يتفق أن يكون هناك جناس بالعربية فى الالفاظ التى تقابلها، وعند ذلك لابد للمترجم أن يوازن وأن يحكم عقله.

يبقى بعد الحديث عن الترجمة وأسلوب العقاد فيها سؤال: ما هى الآداب التى ترجم عنها العقاد للأدب العربى؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن العقاد كان مقلا فى مترجماته فليس له إنتاج كثير فى هذا الميدان، اللهم إلا كتابين الأول عنوانه: "ألوان من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى"، والثانى "عرائس وشياطين" هذا من ناحية.

وأنه كان يترجم عن الإنجليزية فقط من ناحية ثانية، وأن الكتاب الأول من عنوانه واضح أنه نثر وأسلوبه فى ترجمته هو نفس الأسلوب الذى تحدثنا عنه منذ قليل، أما الكتاب الثانى "عرائس وشياطين" فهو يتضمن مجموعة من الشعر العالمى. وهذا يجعلنا

نبحث فى ترجمة الشعر عند العقاد. وهل يترجم الأثر الشعرى بأوزانه وقوافيه أو على الأقل له وزن وإن لم تكن له قافية على طريقة الشعر المرسل، وهل يترجم الشعر مترجم غير شاعر؟

ومع توافر الشاعرية لدى المؤلف والمترجم هل من الممكن أن ينقل الأثر الشعرى دون ان يكون هناك تصرف قليل أو كثير فى الصيغ والعبارات والأساليب؟ وهذا التصرف هل ينأى كثيرا بالترجمة عن الأصل، أم تراه هو عين ما تتطلبه روح المحافظة على الأثر المنقول إلى العربية؟!

والحق أن العقاد حين قدم محاولته فى الترجمة الشعرية فإنه قد أضاف بترجمته هذه جديدا للمكتبة العربية التى كادت أن تكون خالية من المترجمات الشعرية للإحجام عن ترجمة الشعر. على اعتبار أن المترجم فى ذلك الوقت كان يرى الشعر للخاصة وليس للعامة، وأن دواوين الشعر كانت من الموضوعات التى لا تحظى بكثير من الرواج ولا يرتفع الطلب لها كما يرتفع إلى موضوعات أخرى كالقصص والتاريخ والسير وغيرها. وعلة ثانية لإحجام المترجمين عن ترجمة الشعر، وهى أن الشعر فيه من الفنية ما يجعل نقله إلى لغة أخرى مشقة وتضحية بالوقت تحولان دون التوفر على ترجمته. ويعبر الأستاذ على أدهم عن هذه الظاهرة بقوله: وقد يستطيع المترجمون البارعون مغالبة صعاب نقل المؤلفات النثرية من لغة إلى لغة أخرى، وقد يوفقون إلى حد ما، ولكن صعوبة الترجمة وأستطيع أن أقول استحالتها – تظهر فى محاولة نقل الشعر من لغة إلى لغة أخرى مهما تقاربت اللغتان فى الأصل والنشأة.

يضاف إلى هاتين العلتين علة ثالثة، وهى أن العرب لم يهتموا بنقل آداب القدماء الشعرية ولعلهم فعلوا ذلك استغناء بما عندهم من الشعر العربى واكتفاء بشاعريتهم.

لهذا ولغيره من أسباب كان اتجاه العقاد إلى ترجمة الشعر العالمى من الأمور المفيدة للأدب العربى. والعقاد حين يقوم بترجمة الشعر فإن ذلك أمر طبيعى لأنه فى الأصل شاعر. على اعتبار أن مترجم الشعر أو ناقله ينبغى أن يكون شاعرا أو أن تكون

عنده ملكة الشعر على الأقل. ولهذه لن تعوزه الإمكانية التى تعوز غير الشاعر فى التصور والتخيل حين يتصدى لعمل شاعر آخر - وعلى حد رأى النقاد عندنا وفى مقدمتهم محمد عبد الغنى حسن وعلى أدهم وغيرهما يرون أن المترجم الذى يوفق فى ترجمة الشعر لابد أن تتوافر فيه صفة ليس من السهل توافرها، إذ يلزم أن يكون هو نفسه شاعرا، ومهما كانت براعته ومعرفته بأسرار اللغة التى ينقل عنها واللغة التى يترجم إليها فإن الترجمة لا ترتفع إلى المستوى الرفيع إن لم تكن عنده ملكة الشعر. والذى يستطيع أن يؤدى ترجمة الشعر أداء مقبولا لابد أن ينظر إلى الأشياء بعين الشاعر الذى ينقل عنه أو يتقمص شخصيته ويشعر بعواطفه، أى لا تعوزه الشخصية الشعرية، وأن يكون معتمدا فى وحيه الشعرى على ما يتلقاه من وحى الشعر الذى ينقل عنه وليس ذلك كله بالأمر الهين الكثير الشيوع.. ولذلك يندر وجود الترجمات الشعرية الموفقة التى يمكن أن تخدم أدبنا العربى وترقى بذوقه إلى هذه الآفاق العالمية العالية.

ولكون العقاد فى الاصل شاعرًا. فليس فى الأمر مشكلة إذن. فهو الذى يستطيع وحده أن يفهم ويعى ما يهدف إليه قول الشاعر المترجم عنه فى قصيدته دون عناء أو تحريف وسوف نرى عند عرض الكتاب الذى ترجمه "عرائس وشياطين" أنه كان دقيقا فى ذلك العرض، وأنه يلجأ إلى تحويل الشعر إلى نثر كما يحدث فى بعض المترجمات، حيث يضطر المترجم إلى ذلك حفاظا على المعنى الذى يتضمنه أثره الأدبى. لكون العقاد فى الأصل شاعرا لم يلجأ إلى ذلك.

والصفحات التالية تقدم لنا فكرة عن نماذج لمترجمات العقاد فى النثر وفى الشعر.

ألوان من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى:

يختلف دارسو آثار العقاد الأدبية والفكرية فى تصنيف هذا الكاب، فالبعض يرى أنه يمكن ضمه إلى مؤلفات العقاد على اعتبار أن الكتاب به فصلان متكاملان من تأليف العقاد. فصل عن الأدب الأمريكى بوجه عام وفصل عن القصة القصيرة بوجه خاص، والباقى أمثلة ونماذج للقصة الأمريكية.

والبعض الآخر يرى أن هذا الكتاب يمكن ضمه إلى جانب المترجمات، على أعتبار أن القسم الأكبر من الكتاب قصص مترجمة لكبار الكتاب الأمريكيين، وأن ما جاء فى هذا الكتاب عن الأدب الأمريكى والقصة القصيرة الأمريكية بمثابة التقديم أو التمهيد أو الاستهلال.. وهى أمور يريد بها المترجم إيضاح ما يترجمه بعد ذلك والتمهيد له.

ولا شك أن الرأى الثانى أقرب إلى الصواب من الرأى الأول. فالكتاب لا يمكن ضمه إلى مؤلفات العقاد تحت تبرير واحد هو عدد من الصفحات لا يتجاوز العشرين، كتبها العقاد ليقدم للقارئ، بعد ذلك نماذج من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى.. وهذه النماذج تغطى صفحات الكتاب كله وتستطيع أن تفى بحاجة الثلثمائة والعشرين صفحة الباقية من الكتاب. ومن هنا فلا يستطيع الباحث المدقق الاقتناع بأن هذا الكتاب مؤلف وليس مترجما.

والكتاب كما قدمنا عبارة عن ترجمة لنماذج من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى، ومن أجل ذلك كان على العقاد أن يعرض للأدب الأمريكى، ثم للقصة القصيرة.

والعقاد حين يتحدث عن الأمريكى يرجعه إلى خصلتين ظاهرتين غلبتا على المجتمع الأمريكى: إحداهما سيادة السنة العامة فى شئون العقائد والأخلاق، والأخرى خصلة التجربة العملية والاعتداد بالذات فى شق طريق الحياة ومواجهة المجهول.

والخصلتان قد تتوافقان أحسن الوفاق، وقد تتنازعان أشد نزاع فتجرى رعاية السنة العامة مع الاعتداد بالذات فى اتجاه واحد أو يختلف الاتجاه مع تجارب الواقع، فذلك هو الصراع العنيف الذى هو بعينه محور الصراع الأكبر فى مشكلات الأدب ومعضلات النفس البشرية. بين النجاح العملى الواقعى ورعاية المبادئ، والأصول، كما تتمثل فى الآداب الأمريكية الحديثة؛ قصة كانت أو مسرحية أو مذهبا من مذاهب الفلسفة أو رأيا من آراء السلوك والأخلاق.

ويكاد يجمع النقاد المحدثون على أن صبغة التجربة أغلب الصفات على الأدب الأمريكى المعاصر. وهم على صواب فى هذا الإجماع. فإن محاولات التجربة نفسها تدل على الخصلتين فى وقت واحد: تدل على الاعتداد بالذات، وعلى قوة العرف والتقليد، ولا معنى لتغليب التجربة إن لم تكن هنالك مغالبة أو محاولة للتوفيق بين ما يكشفه الإنسان لنفسه وما يفرضه العرف عليه.

وتكاد تكون هذه الصبغة ملازمة للمصنفات الأمريكية من أقدم عهودها قبل الاستقلال وبعده، وإنما كانت صبغة الدينيات أعم وأشيع فى القرن السابع عشر، ثم عمت وشاعت بعده صبغة السياسيات فى دور النـــزاع بين سكان البلاد وحكامها. ثم ظهرت الثقافة الأدبية مستقلة مصطبغة بزمانها ومكانها ودواعيها، و لم تكن مهملة قبل عهد الاستقلال إلا لأنها كانت مهملة فى الحياة العامة، و لم تكن هى التى تمثل الأخلاق والمقاصد والطباع.

وتنقسم عهود الأدب الأمريكى بفواصل من الزمن مرسومة متفق عليها بين مؤرخى الآداب، فهناك فاصل الثورة على الحاكم المستعمر، وفاصل الحرب الأهلية، وفاصل الخروج من العزلة بعد الحرب العالمية الاولى، وكلها فواصل بينة صحيحة تؤرخ الانتقال من عهد إلى عهد ومن اتجاه إلى اتجاه، ولكننا نود أن نقرن بها فاصلا يذكر أحيانا، ولا يعطى حقه من الشأن والأثر، وهو معادل فى اعتقادنا لفواصل الثورات والحروب، ذلك الفاصل فى عهد الصور المتحركة، ويلحق به فاصل الإذاعة. فإن أثر الصور المتحركة لعظيم فى اختيار الموضوع عظيم فى تنويع الأسلوب عظيم فى تنسيق القصة والحوار.

ينتقل العقاد بعد هذا فى كتابه إلى تقدمه للقصة القصيرة والفارق بينها وبين الرواية الصغيرة والرواية الطويلة، ويتفق فى وجهة نظره فى التفرقة مع الكاتبة "اديث هواردثون" حين قالت: "إن الموقف هو الموضوع الغالب على القصة القصيرة، وإن رسم الشخصيه هو الموضوع الغالب على الرواية".

إلا أن العقاد يضيف عنصرا آخر فى هذه التفرقة بين القصة القصيرة والرواية

الطويلة. وهذا العنصر يصلح للقصة القصيرة وحدها.. وهو عنصر الإيحاء ولفت النظر، أو هو ما يقابل - حرفيـــا - كلمة الاقتراح فالقصة القصيرة فى رأى العقاد لا تتسع لرسم شخصية كاملة أو عدة شخصيات كاملة من جميع جوانبها، ولا تتسع كذلك للحوادث الكثيرة ولا للحادثة الواحدة التى لا تتم إلا مع التشعب والاستيفاء والإحاطة بأحوال جملة من الناس فى مختلف المواقف والأحوال، ولكنها قد تعطينا لونا من ألوان الشخصية. كما تتمثل فى موقف من المواقف فنفهمها بالإيحاء والاستنتاج. وقد تعرض لنا وضعا نفسيا أو وضعا اجتماعيا ينفرد بنظرة عابرة ويؤخذ على حدة فيدل كما تقدم على دلالة الموقف والإيحاء.

ويقرر العقاد فى كتابه "ألوان من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى" على أن القصة القصيرة بهذه المواصفات تتناسب الأدب الأمريكى. منذ استقل هذه الأدب بأقلامه وموضوعاته وعرف له رسالة قائمة بذاتها غير المحاكاة والتقليد للآداب الأخرى.

والجزء الأكبر من الكتاب والذى يزيد عن الثلثمائة صفحة يخصصها العقاد لترجمة نماذج من القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى. وهو قبل أن يترجم القصة يقدم لكاتبها فيكتب لمحة عن سيرة حياته وعصره وأسلوبه فى الكتابة.

والعقاد يقسم كتاب القصة القصيرة فى الأدب الأمريكى إلى ثلاثة. الرواد ويمثلهم: واشنطون ارفنج، وادجار الان بو، ومارك توين. ثم التابعون ويمثلهم توماس بايلى الدريخ، وجورج آد، وويلا كاثر، وادنا فيربر، وستيفن فنسنت بنيت. ثم المعاصرون ويمثلهم ثلاثة هم: وليم فولكنر، وآرنست هيمنجواى، ووليم شتاينبك. ويتبع العقاد ترجمته السريعة للقصاص، بترجمة أدبية لقصته يراعى فيها الأصل غاية المراعاة ما لم يكن حشوا لا محل له من لباب المعنى من الوجهة الفنية، ففى هذه الحالة يكتفى بالمفيد ولا يلتزم بالحشو، وهو لا يزيد فى الكتاب كله - كما يقول العقاد - عن بضعة أسطر.

وسيرى القارئ فى هذه القصص القصيرة التى اختارها العقاد فترجمها.. كيف أن

مشاكلها تنجم عن الاعتداد بالذات والمغامرة فى مواجهة المجهول كائنا ما كان هذا المجهول. سيرى مجموعة من القصص فيها المراهن على الغيب، والشيخ المنفرد يمسكنه بعد السبعين، والمريض الذى يقلقه العلاج الطويل فيعشق على السماع ويهجم على بلد المعشوقة التى لم يرها قط ولم يكن لها وجود، والخابط فى الأرض على غير قصد حتى يلتقى على رؤوس الجبال بأرواح الحراس من الرواد الأقدمين، والخطيب الذى يناضل الشيطان بالحصافة الدنيوية كما يناضله بالعقيدة القوية، والفتى الذى يركب رأسه شوقا إلى التجربة الحسية فيهجم من متعة الحياة إلى الموت، والأب الذى يلهو فترده تجارب اللهو بهدى العاطفة الأبوية إلى الرصانة والاعتدال.. وهكذا فى كل قصة تختارها من الأدب الأمريكى لن تعدم فيها عنصر التجربة الذاتية أو الصراع بين المبدأ والواقع أو الإقدام على المجهول.

كذلك سيرى القارئ فى القصص التى اختارها العقاد فترجمها.. عهد الصور المتحركة على اللوحة البيضاء، فالكاتب يشغل قلمه فيها كما يشغل انتباهه بعوارض حسية لا دخل لها فى لباب الموضوع، لولا أنه يكتب ويحسب حساب المخرج الذى يتولى كتابة "الوصفة المنظرية". فما دخل النمل مثلا وقياس المرتفعات وألوان الأشجار والمسافات بينها. وأطوالها أو غزارة أوراقها ونزارتها فى قصة شتاينبك عن الشيخ الهرم زعيم الهجرة، ورحلات التغريب، إن هذا وأشباهه مما أدخلته الصور المتحركة على أسلوب الكتابة وقد أثبت العقاد بعضه على سبيل المثال، وتعمد أن يضع هذه القصص بعضها إلى جانب بعض كما اتفق بغير تمييز مقصود. لأنه يعتقد أن الدلالة على هذا النحو أصدق من دلالة التمييز والانتقاء وسيرى القارئ، أيضا فى مجموعة القصص التى اختارها له العقاد من القصة الأمريكية القصيرة. مذاهب المؤلفين فى اختيار المواقف خلال القرن الأخير، فقد كان الموقف وحده لا يكفى لكتابة القصة قبل سبعين أو ثمانين سنة، بل كان من الواجب أن يكون الموقف رائعا أو كافيا لاستغراق الحواس وغمر النفوس بالعاطفة فلم يزل هذا الموقف يتطور مع الزمن حتى أصبح الموقف جديرا بالتسجيل كلما كان فيه موضع للملاحظة القريبة

أو للمقارنة العاجلة أو للتأمل الذى ينبعث فيه القارئ، مع نوازعه وأهوائه. غير متقيد بالكاتب فى نزعته أو هواه.

ففى البعد الحاضر أصبح الكتاب من طراز فولكز أو همنجواى أو شتاينبك يكتبون القصة لموقف واحد لا ينتهى إلى قارعة ولا يتبعه الكاتب أو القارئ إلى نتيجة مقصودة، فمن مواقف أقاصيصهم موقف رجل يدخل بيته فتنبئه زوجته أنها عثرت بخادمة موافقة، فإذا بالخادمة "لا توافق" لأن الرجل يعلم بعد أن يراها أنها كانت زميلة له فى الدراسة، ولا تزال هى وهو يتناديان بالأسماء دون الألقاب. ومن مواقفها موقف مصارع يأتمر به منافسوه ليقتلوه فيتلقى الخبر ولا يتبعه بعمل لأن حكم الموقف يأبى عليه الهرب كما يأبى عليه إبلاغ ولاة الأمور. ومن مواقفها أيضا موقف شيخ من الجيل الماضى يسئم السامعين المحدثين بأخبار الطواف إلى الغرب ثم التمادى فى الطواف، فلا يطبق المحدثون سماع هذه "الأعاجيب" التى كانت فى يوم من الأيام تهز المشاعر وتكفى وحدها للتغريب. ثم التغريب من غير قصد إلى مكان معلوم، وإنما هو كشف آخر من جانب البر بعد الكشوف الأولى من جوانب البحار ولا محل له من السمر أو الكلام بعد أن كشف المحدثون كل بقعة من بقاع الغرب ونسوا أنه كان غيبا مجهولا قبل جيل. سنقرأ ترجمة أدبية رائعة لقصص "ديب فان ونكل" لواشنطون ارفنج و "الخطاب المفقود" و "باطبه النبيذ الشريشى" لادجار الان بو و "الضفدعة النطاطة" المشهورة لمارك توين و "مارجورى داو" لتوماس بايلى الدريخ، و "ايفى هويتلسى" لجورج آد، و "مسألة بول" لويلا كاثر، و "الشيخ مينيك" لادنا فيبر، و "الشيطان ودينال ويستر" لستيفن فنسنت بنيت، و "وردة لاميلى" لفولكنر و "زعيم الشعب" لشتاينبك.

وهى قصص اختارها العقاد للدلالة على هذه المقومات والسمات والملامح التى ذكرناها والتى يؤمن بصحتها العقاد.

عرائس وشياطين:

كتاب يتضمن العديد من القصائد الشعرية المترجمة عن الشعر العالمى.. ترجمها

العقاد عن الإنجليزية وأضاف إليها عددا من القصائد العربية التى اختارها من الشعر العربى لكبار شعراء العربية، ومنهم ابن المعتز وأبو العتاهية والبحترى والشريف الرضى وأبو أحمد اليمامى وابن سهل والخليفة المأمون والدودى وأبو الفضل الميكالى والعبسى وغيرهم.

أما القصائد المترجمة والتى تغطى معظم صفحات الكتاب فهى لشعراء أجانب مختلفى الجنسية، منهم كل من: سفوكليس وتيوجنيس وسكايلوس من اليونان، ودوبرت كرمت كوك ووليم هنرى دافيز ولوكاس وبن جونسون وجون دون وباكس كليفورد من بريطانيا.. وسلياميرلس من البرازيل، ويوان مى من الصين، وكونتى كلن من أمريكا وهنريك هينى وهولدرين من ألمانيا، ويسنين من روسيا وكرسيتينا دورتى من إيطاليا، وفرلين من فرنسا.

أما لماذا اختار العقاد "عرائس وشياطين" عنوانا للكتاب؟ فلاتفاق الأساطير على أن الشعر من وحى العرائس أو من وحى الشياطين. وبما أن الكتاب من أوله إلى آخره قصائد ومقطوعات شعرية فلذلك كان العنوان عرائس وشياطين.

ويدلل العقاد على أن الشعر من وحى العرائس والشياطين من أن الأوروبيين اختاروا أن يتلقوا وحيهم من عروس.

كما اختار العرب أن يتلقوا وحيهم من شيطان من الشياطين..

ولا نرى أن هناك خلافا كبيرا بين شعراء العربية والشعراء الأوروبيين فى نهاية المطاف وإن اختلفوا قليلا فى الخطوة الأولى.

فنهاية العروس أن تعمل بشيطان.

ونهاية الشيطان أن يعمل بعروس..

وما نظن الاثنين عملا قط منفردين فى فؤاد إنسان.

ومن أجل هذا وبسببه فإن الرجاز الظريف "أبو النجم العجلى" يقرب الفجوة شيئا فشيئا ما بين الفريقين حين يقول:

إنى وكل شاعر من البشر   شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

فما رآنى شاعر إلا استسر   فعل نجوم الليل عاين القمر

فهو قد جعل الشياطين جميلات كالعرائس المعشوقات.

وكذا نجد عند السعدى هذا الشاعر الفارسى جوابا يحسم هذا الخطاب، فهو يذهب إلى أن الشيطان آدم إنما مسخوه فى الصور والتماثيل لأنه حرم أباهم الفردوس فحرموه الجمال، حيث يقول فى قصيدة من قصائد هذا الكتاب الذى نعرضه فى ص ٧ وترجمها العقاد:

"رأيت الشيطان فى حلم فيا عجبا لما رأيت..

رأيته على غير ما وهمت من صورته الشنعاء التى تخيف من ينظر إليها قامة كفرع البانة عينان كعين الحور طلعة كأنها تضئ بأشعة النعيم.

وسألت: أحق أنت الشيطان؟ أحق ذاك ولا أرى ملكا له جمال محياك؟ ولا عين قد نظرت إلى شبيه سيماك؟

لهذا ولغيره فالشيطانات إذن أحق بالجمال وأقرب إلى العرائس، وما هؤلاء إلا كما قيل قريب حين تنظر من قريب.

والآن وبعد أن عرفنا الهدف من تسمية الكتاب بعرائس وشياطين وخلفيات هذه التسمية نطوف بصفحات الكتاب التى تزيد عن المائة والخمسين بقليل فنجدها تتضمن مجموعة من وحى العرائس ذات الشياطين أو من وحى الشياطين ذوى العرائس، فالأمر واحد. وهذه المجموعة الشعرية تلقاها العقاد من هؤلاء وهؤلاء وجمعها بين صفحات هذا الكتاب هدية مباركة لمحبى الشعر العربى أو الأوروبى.

ومنهج الكتاب كما عودنا العقاد فى بقية كتبه حيث يتوخى دائما تجنب التكرار كما يتجنب الإسفاف والإطالة، فهذه قصائد من الشعر العربى والعالمى يكثر فيها الإيجاز ويقل الإسهاب ويندر فيها المشهور المتكرر على جميع الاسماع، فقد أجاز لنفسه الحذف والتبديل مداراة لإسفاف فى العبارة أو إسفاف فى الذوق والأدب. والعقاد يقول فى ذلك فى تقدمته السريعة: "وعلينا تبعة القليل الذى طرأ عليها

من الحذف والتبديل وحسبنا منها شرط واحد نرجو أن يتحقق لها جميعا فى رأى قرائها وذاك أنها وهى من وحى العرائس والشياطين خير ما يقرب الإنسان إلى قلب الإنسان".

ولا شك أن العقاد توخى إلى جانب ذلك الدقة فى الترجمة مع حسن تصرف منه كأديب أولا وشاعر ثانيا، فقد جاءت هذه القصائد الشعرية المترجمة مشحونة بالعاطفة والحرارة .

وكأنها منقولة من لغتها الأصلية إلى نفس لغتها لا إلى لغة أخري لها سماتها ومقوماتها، وهى اللغة العربية.

ولذلك يمكن القول بأن العقاد قد أضاف بهذا الكتاب جديدا إلى المكتبة العربية.

من الأمور المسلم بها أن مراجعة الكاتب لنص من النصوص أو تقديمه له يعتبر من الأعمال التي تنسب لهذا الكاتب، فالمراجعة أو التقديم فيها إعمال للفكر، وحين يكون هناك إعمال للفكر فإن ذلك يعتبر نوعا من المجهود أو العمل الذى ينسب للكاتب خاصة إذا كانت هناك محاولة لرصد كل أعماله.

ولا يستطيع دارس أو باحث أو متابع لأعمال العقاد أن يغفل أو يتجاهل أو حتى يمر مرورا عابرا على هذا الجانب الفكرى المهم الذى خصصه لمراجعة بعض الكتب والتقديم لها من أعماله.

يتضاعف الاهتمام بهذه المراجعة وذلك التقديم إذا أدركنا أن مراجعة كاتب كبير مثل العقاد لنص من النصوص فيها إضافة وتوثيق لما جاء فى هذا النص المراد مراجعته، فيكفي أن يقرأ القارئ اسم العقاد مع اسم المؤلف أو المترجم الأصلى ليطمئن إلى ما جاء فى هذا النص من معلومات ومعارف.

ويكفي أيضا أن يرى القارئ اسم العقاد وقد تولى تقديم مادة النص وكاتبها أو مترجمها إذا كانت منقولة عن لغة أجنبية ليقتنع أنه فى النهاية سوف يقرأ عملا له قيمته من الناحية العلمية أو الأدبية أو الفكرية.

وقد يحدث فى بعض الأحوال أن تكون المقدمة لكاتب كبير مثل العقاد تساوى أو تزيد عن النص الأصلى إذا كان الكاتب واحدا من الناشئين، وهنا يحدث الأثر المنشود.

وقد يدرك القارئ مدى أهمية المراجعة والتقديم إذا علم أن كثيرا من المعارك شبت بسببها.

لقد شبت معركة كبيرة مازالت عالقة فى وجداننا الأدبى حول تقدمة كتاب

"أنات حائرة" للشاعر عزيز أباظة، حين قدم الدكتور طه حسين لهذا الديوان، يومها اتهمه النقاد وعلى رأسهم المازنى أنه متحيز لهذا المبتدئ الذى بدأ قرض الشعر فى سن متأخرة، وحيث كان مدير المديرية هنا اتهموه بأنه لا يعمل لوجه الأدب، وإنما يعمل من أجل السياسة، فلو أنه كان يعمل من أجل الأدب لكان هناك عشرات إن لم يكن مئات من الأدباء والكتّاب ينتظرون تقديمه لأعمالهم الفنية، وربما يكون من بين هؤلاء وهؤلاء من هو أكثر فنية وشاعرية من المدير الشاعر عزيز أباظة.

وهكذا كانت تقوم معركة حول مقدمة كتبها كاتب لكاتب آخر، مما يدل بصورة قاطعة على أن مثل هذه المقدمات تعتبر عملا فكريا يحتمل الأخذ والرد والمناقشة.

والمراجعة التى كان يقوم بها العقاد لبعض الكتب كانت ذات نوعين.

نوع يراجع فيه العقاد مؤلفا مترجما عن واحدة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وهو النوع المعروف، وفيه يطابق بين الأصل وبين الترجمة ليرى إلى أى مدى كانت حدود أمانة المترجم فى نقله عن اللغة الأجنبية.

ونوع آخر يكون فيه النص بالعربية وتراد مراجعته ويراد له الاطمئنان من شخصية ادبية مثل العقاد، خاصة وإن كان هذا النص من الكتابات التى تدخل دائرة اهتمام العقاد الأدبية أو السياسية.

والعقاد من الكتّاب القلائل الذين يقرأون النص من بدايته إلى نهايته قراءة فاحصة مدققة مع أن هناك الكثيرين ممن يقومون بالمراجعة لا يحرصون على قراءة الكتب التى يقومون بالتقديم لها. ويعتمدون على رأى الكاتب لهذا النص ومن بعده يكتبون تقديما بما يقررون بأن هذا الكتاب إنما جاء ليخدم الفكرة التى اختارها. والعقاد كان على العكس من ذلك يحرص على القراءة ويرى أنه طالما وافق على المراجعة فهو يلتزم أمام القارئ بأن يقول رأيا فيه، ولا بد أن يكون هذا الرأى راضيا عنه هو شخصيا، ذلك لأن العقاد كان ينزل النص الذى يعهد إليه بمراجعته والتقدمة له منزلة النص الذى يؤلفه، فهو عمل يحمل اسمه أيضا.. صحيح أن هذا العمل ينسب

إلى شخص آخر ولكنه موافق على ما جاء فيه، فهو مسهم بالفكر أيضا فهو ينتسب إليه.

ولا شك أن العقاد كان لا يقبل تقديم أى كتاب إلا هذا الكتاب الذى يوافق ثقافته واستعداده، لأنه يعلم مقدما أنه يعطى من نفسه الكثير فى إطار هذه التقدمة.

والنظرة السريعة إلى هذه الكتب التى قدم لها العقاد تؤكد ذلك. إننا نلحظ أنه يقدم الكتب الأدبية والأخرى السياسية وثالثة تهتم بالتفكير الاجتماعى.

من هذه الكتب الأدبية نلاحظ تقدمته لكتابى اثنين من أصدقائه هما: "ديوان عبد الرحمن شكرى" و "ديوان المازنى"، بعد ذلك نراه يقدم هذه الكتب ذات الاهتمامات الأدبية وفى مقدمتها "أدب المازنى" أدباء فى الميزان، و "أقاصيص من الهند"، و "سبحات الخيال و "الغربال"، و "مقارنات فى الأدب الكلاسيكى" و "مكتبة جدى" و "ناجى: حياته وشعره" و "النساء فى الأدب" و "الموسوعة التيمورية من كنوز العرب فى اللغة والفن والأدب".

بعد ذلك نراه يقدم الكتب ذات الصبغة السياسية ويشدّ انتباهنا كتابان عن روسيا هما: "ستالين فى رأى خلفائه - خورشوف" و "مستقبل روسيا"، ذلك لأن رأى العقاد فى الشيوعية ومؤسسيها معروف وله أبحاث ودراسات فى هذا الميدان تؤهله لكى يقدم مثل هذه الكتب ويضيف إليه الكثيرن إلى جانب تقدمته لكتب "الاستعمار الاقتصادى" و "التعاون الاقتصادى" و "الحرب والسلام".

إن كان رأى العقاد فى السياسة والأدب وموقفه فيهما يتيح له تقدمة أى كتاب فيهما، فإن موقفه لا يقل فى التفكير الاجتماعى، حيث يقدم بعض الكتب التى منها: "ثورة العصر بحث فى فلسفة السياسة والاجتماع"، و"الطبقات فى المجتمع الحديث"، و "الفرد والمجتمع".

وهناك أيضا جانب من أعمال العقاد ربما لا يحسن بنا تجاهله وأعنى به جانب الاشتراك مع آخرين فى مؤلفات لها وزنها من الناحية الأدبية والفكرية والفنية وكلنا يعرف أن اشتراك العقاد فى الديوان كان بمثابة العمل الفكرى الذى

يضاف إلى بقية أعماله الأخرى حتى إن الدارس ينسب هذا الكتاب إلى بقية كتب العقاد.

وقد اشترك العقاد فى تأليف كتب كثيرة منها: "محمد إقبال" الفيلسوف الباكستانى العظيم، و "الشيوعية اليوم وغدا"، و "الشيوعية والإسلام"، وغيرها من الكتب.

كما أشرف على العديد من الكتب التى تصدرها بعض الهيئات.

هذه نظرة سريعة إلى الأعمال التى قام العقاد بمراجعتها والتقديم لها والاشتراك فيها والإشراف عليها وكلها تؤكد عطاءه البشرى.

من رسائل العقاد كتاب صدر أتيح له من النجاح ما لم يتح لكتاب من جنسه فى سنة إصداره. والسبب أن هذا الكتاب التزم مؤلفه الأديب الكبير الأستاذ محمد محمود حمدان بأصول تحقيق النصوص التزاما علميا ملحوظا. وهو أمر أصبح من العسير أن نجده فى بعض الكتب التى تعنى بهذا النوع من تحقيق الرسائل الخاصة بالرواد.

لقد التزم كاتبه الأستاذ حمدان بما كتب العقاد من رسائل التزامًا أمينا، كما وكيفا، فلم يغير فى أسلوبه أو يبدل فى كلماته.. انطلاقا من مفهومه للمعنى الحقيقى لتحقيق النصوص المعنى الذى يرفض رفضا قاطعا تحسينها أو تصحيحها.. أمانة للأداء الذى تقتضيه أمانة التاريخ، حيث إن النص - أولا وأخيرا - هو حكم على كاتبه وحكم على عصره وبيئته. وهى اعتبارات علمية لها حرمتها. لأن التصرف على غير هذا النحو عدوان على حق المؤلف الأصلى الذى له وحده حق التبديل والتغيير، وهو ما لا يهتم به - للأسف - بعض المتصدين لهذا النوع من التحقيق، لافتقارهم إلى العلم بمقومات تحقيق النصوص و أصوله.

ولا عجب إذن إن كان هذا الكتاب سيظفر بشئ من التوفيق عند القارئ العام والخاص معا. فكاتبه الأستاذ حمدان أكبر تلاميذ العقاد من الأحياء، وكان أكثرهم حضورا فى ندواته ولقاءاته. وهو لهذه الأسباب وغيرها خبر أسلوب أستاذه وأدرك معانيه، وما وراء هذه المعانى من دلالات، وإلى جانب هذا كله التزم بالمنهج العلمى فى تحقيق كل رسالة التزاما ربما اضطره أحيانا إلى نشر ما قد يساء فهمه عند القارئ من رسائل للعقاد، خاصة هذه الرسائل التى بعث بها إلى الأستاذ محمد لطفى جمعة وفيها يتضح أن العقاد كان طالبا لحاجة، نظرا لسوء أحواله وظروفه وقتئذ وهو أمر مستغرب بالنسبة للعقاد الذى كان يعتد بنفسه وبشخصيته بشكل ربما يندر بالنسبة

لغيره من أبناء جيله. ولو أن الأستاذ حمدان لم يكن ملتزما بالدقة والموضوعيه لتردد كثيرا فى نشر هذه الرسالة، بل إنه على العكس جعلها متصدرة كل الرسائل.

وليست الموضوعية والدقة وغيرهما من أصول تحقيق التراث ميزتان جديدتان تزخر بهما هذه الرسائل. لكن هناك أيضا التمهيد أو المدخل العلمى لها بوجه عام. كأدب معترف به عربيا وأجنبيا. هذا التمهيد يعتبر جهدا علميا - فى حد ذاته - لو كان قد توسع فيه لغطى كتابا بأكمله يسد حاجة طلاب العلم من الباحثين فى الجامعة أو خارجها فى هذه النوعية من الأدب وهو أدب الرسائل الخاصة.

فهذه الصفحات التى طاف بنا فيها الأستاذ حمدان شرقا وغربا فى الأدب العربى أو الآخر الأجنبى، قدم للقارئ مادة علمية دقيقة عن هذا الأدب كجنس أدبى معروف فى تاريخ أدبنا العربى الحديث، وما أجمل أن يستهل بحثه فى أدب الرسائل بتعريف للعقاد نفسه، للرسالة حيث يرى أن الرسالة فى اللغة العربية" من الألفاظ التى يستشهد بها على تطور الكلمات فى معانيها ودلالاتها على حسب أحوال الزمن ومناسباته"، وأن من أصحاب الرسائل: "رجالا من أعظم أعلام التاريخ فى العلم والفن والحرب والسياسة يفرغون قلوبهم فى ودائع أدبية لم يقدر لها أو لأكثرها أن تصل إلى أيدى القراء ويسرون فيها أحيانا بغير ما يعلنون من الوساوس والآراء".

وطبيعى ألا يكتفى الأستاذ حمدان بآراء أستاذه العقاد فى هذا المجال. بل نراه يتتبع مسار الرسائل فى تراثنا العربى منذ رسائل النبى ﷺ إلى ملوك وأباطرة العالم القديم لدعوتهم إلى الإسلام. وما تتسم به من عبقرية البلاغة، وعبقرية التبليغ. كذلك يتعرض للرسائل التى جاءت فى ختام كتاب العهد الجديد لاتباع المسيح عليه السلام. هذا إلى جانب رصد ما يشتمل عليه تراث الإنسانية من أنواع الرسائل المدونة والمحفوظة فى بطون أمهات الكتب، ومؤكدا أنه ما من عصر خلا من تلك الرسائل ذاكرا أصحابها وهم من الأدباء والعلماء والمفكرين والسياسيين.. وقد نضيف إلى ذاكرة الأستاذ حمدان إلى رصيده الجاد لأصحاب الرسائل.. رسائل سيسرون لما لها من أهمية فى الآداب العالمية وانعكاس على أدبنا العربى.

وينتقل بنا المؤلف إلى أدبنا العربى قديمه وحديثه، مقررا أنه حافظ بنتاج أدبى ضخم من الرسائل، ثم يقوم باستقصاء دقيق لكل أصحاب هذه الرسائل.. وقد نضيف إلى ذاكرة الأستاذ حمدان رسائل الإمام محمد عبده إلى عدد من نجوم عصره فى مقدمتهم السيد جمال الدين الأفغانى وتولستوى وسبنسر، تلك التى حققها كاتب هذه السطور ونشرها بالأهرام فى الثمانينيات.

ويشير الأستاذ حمدان إلى رسائل تحولت لطولها وعمق مادتها إلى كتب يرجع إليها الباحث فى دراسته لحياة وأدب صاحبها مثل، رسائل: محمد حافظ عوض، وأحمد أمين، ومحمد حسين هيكل، والشيخ على يوسف لأولادهما.

كما يشير إلى رسائل الحب التى أسماها العقاد بـــ "الأدب الخاص" الذى لم يقصد للنشر، وإن كان فيه ما يغرى على الاطلاع.. من غير أصحابه فى حياتهم الخاصة.

ولا ينسى أن يربط بين بعض الرسائل والأعمال الإبداعية حيث تلقى الرسالة بظلالها على هذه الأعمال، خاصة القصة والرواية حين تصبح من عناصر البناء الفنى الذى يعمد إليه القصصى أو الروائى كوسيلة من وسائل التشويق والإثارة.

وعلى الإجمال يرى المؤلف أن الرسائل تعتبر مصدرا مهما من مصادر دراسة حياة الأديب وأديه إلى جانب أنها إضافة لازمة لسيرته فى مراحلها المختلفة.

ثم ينقلنا بعد هذا الحديث الضافى عن أدب الرسائل بوجه عام إلى رسائل العقاد فيمهد لها تمهيدًا علميا يليق بصاحبها وكاتبها العقاد". ومن هذه الرسائل التى تضمنها هذا الكتاب رسائل إلى: محمد لطفى جمعة، ومحمد طاهر راشد، ومحمود محمد صادق، وعبد الرحمن صدقى، وأحمد عبيد، وميّ زيادة، وميخائيل نعيمة، وطه حسين، وعزيز أباظة، وكليم أبو سيف، وحسين همت، وعثمان أمين، وأحمد إبراهيم الشريف، وعبد الفتاح الديدى، ومحمد خليفة التونسى، وعبد الكريم جرمانوس، وتوفيق الحكيم، وأحمد حافظ عوض، وطاهر الجبلاوى وغيرهم.. إلى جانب الرسائل الرسمية وطبيعى أن ينشر رسالتين كان قد بعث بهما العقاد

إليه كواحد من تلاميذه والرد عليهما، وطبيعى أيضا أن يصور نصوص الرسائل، والأهم أنه لا ينشرها هكذا مجردة دون بحث أو دراسة فيما ترمى إليه كما يفعل البعض، وإنما يوظفها توظيفا علميا وأدبيا للتعرف على شخصية وأدب العقاد من هذه الرسائل المتبادلة، بينه وبين نجوم عصره كأن نراه فى كل رسالة ينبه إلى أفق من آفاق العقاد، أو إضاءة إلى جانب من جوانب عبقريته أو تفسير لنـزعة من نزعاته، أو خاصية من خصائص أدبه.. وهكذا تزدحم الرسائل بهذا الرصيد الهائل الذى تمتلئ به نفس العقاد، ويزدحم به عالمه الخاص والعام معا.

كتاب "من رسائل العقاد" جدير بأن تتدارسه كليات الجامعة ومعاهدها المعنية بدراسة الأدب واللغة. كما أنه جدير بأن يلقى عناية خاصة من المجلس الأعلى للثقافة، حيث يخصص له ندوة أدبية يدعو إليها الأدباء والنقاد، ويا ليت ندوات معرض الكتاب تتنبه إليه ليناقش فى أيام المعرض.

تراث العقاد.. هل يضيع؟!

منذ سنوات طالعتنا الأنباء.. بأن جانبا من تراث العقاد مهدد بالضياع. حيث يطالب مالك العقار - الذى فيه بيت العقاد - بهدمه - للاستفادة من الأرض المقام عليها!

وقبل أن يتم هذا الإجراء.. نزور بيت العقاد ونعيش لحظات بين مخلفات المفكر الكبير وتراثه، ودقائق بين كتبه الباقية، وساعات فى ندوته التى تقام حتى بعد وفاته. لنسجل فى سطور أن هذه الندوة واحدة من الأشكال الثقافية.. التى انصهرت فى داخلها الحركات والاتجاهات والتيارات الفكرية والأدبية والفنية، وانبعث من خلالها عدد من الكتّاب يحملون القلم ويقودون حياتنا الثقافية، والأهم أن بين هذه الجدران عاش العقاد فقيرا كريما.. انتهى به الحال إلى أن يكون مادة أمام المحاكم، وأن يهدد تراثه بين آونة وآخرى بالضياع والفناء.

يضمنا نفس المكان الذى كان يستقبلنا صباح الجمعة من كل أسبوع. لا ينقطع توافد أصدقاء العقاد ومريديه.. بعض هذه الشخصيات كانت تتواجد أيضا أيام الأستاذ العقاد، وفى مقدمتها الأستاذ على أدهم والدكتور كامل السوافيرى.

ابن شقيقه يحاول الحفاظ على طابع الندوة وتقاليدها.. التى أرساها العقاد.. وكان يتمنى استمرارها حتى بعد وفاته. يضيق المكان بالحاضرين وتزداد ضوضاؤه وضجيجه، ولكن رغم ذلك لا أستطيع فكاكا من ذكريات هذا المكان.. الذى.زرته فى حياة العقاد.. الإحساس باللقاء المستحيل يزداد عندى! أن يطالعنا العقاد الآن.. يسبقه صوتان نعرفهما جيدا: وقع قدمين تهتز لهما الأرض، ووقع صوت تهتز له النفس ترحيبا بأول من يقابله: مرحبًا يا مولانا.

العقاد جالس فى قلب الندوة.. بكل سنواته وصراعاته وكتبه، بكل سخريته وقوته

وبيانه، بكل بساطته وتلقائيته وعفويته.. خلفه وأمامه وعلى جانبيه صفوف متراصة من الكتب. من المؤكد أنها ليست للزينة أو للتصوير: فمن هذه الكتب إدراك الحقيقة التى قدمها لى ولك والآخرين.

وتبدأ الندوة. ويكفى أن يوجه أحدهم سؤالا أو استفسارا.. عندئذ يصول العقاد ويجول يناقش ويفند، يردّ ويعقب عصفا. وأتصفح وجوه الحاضرين مع العقاد، فأجدهم أساتذة وعلماء وفنانين يملأون الدنيا بعلمهم وأدبهم وفنهم.. أتأمل الموضوعات التى كانت تطرح للمناقشة، فأجدها متفرقة متنوعة لا يجمعها تصنيف واحد. فحينا تطرح مسألة فكرية أو أدبية، لننتقل إلى مناقشة جوانب مهمة فى علوم الحشرات والفلك والطب والفيزياء والزراعة والاقتصاد والسياسة. ونصيب قدرا من الراحة عند الموسيقى والشعر والفلسفة والعقيدة.. وكأن الندوة جامعة شرطها الوحيد محبة العلم وعشق الثقافة.

أعود إلى الواقع أمامى. أتطلع إلى وجوه الحاضرين. بعد سنوات من رحيل العقاد. أجد أن ندوته لم تفقد كثيرا من سماتها حيث تستوعب أجيالها الثلاثة.. الجيل الأول: ويمثله الأستاذ على أدهم. والجيل الثانى: ويمثله الدكتور السوافيرى، والجيل الثالث: ويمثله كثيرون أذكر منهم احمد حمدى إمام وشوقى هيكل وعبد اللطيف عبد الحليم، لكن يغيب عنها بالموت أو بالحياة كثيرون من الأحياء يغيب، وفى مقدمتهم: الدكتور زكى نجيب محمود وأنيس منصور ومحمد خليفة التونسى والعوضى الوكيل وعثمان أمين وصلاح طاهر، وطاهر الجبلاوى والشاعران الكبيران كامل الشناوى وعبد الرحمن صدقى وغيرهم.

ويفتح أحد الحاضرين بابا للحوار فى الندوة حول العلاقة الأدبية التى ربطت كلا من العقاد والمازنى وشكرى. وكيف استفاد منها النقد والأدب. وتمت المناقشة وتتفرع إلى أن يضع الأستاذ على أدهم أيدينا على خطأ كبير يقترفه مؤرخو الأدب ونقاده، حين يجمعون شعر الثلاثة (العقاد والمازنى وشكرى) تحت عنوان واحد

هو: مدرسة الديوان. ويرى أن التسمية الصحيحة لشعر هؤلاء "المذهب الحديث فى الشعر"، ويعلل ذلك قائلا بأن الديوان نثر وليس شعرا، وأن واحدا من الثلاثة وهو عبد الرحمن شكرى استهدف فى الديوان لهجوم كل من العقاد والمازنى، ويأسف حين يقول إن من أطلق تعبير مدرسة الديوان هو الدكتو محمد مندور وتبعه النقاد حتى الآن!

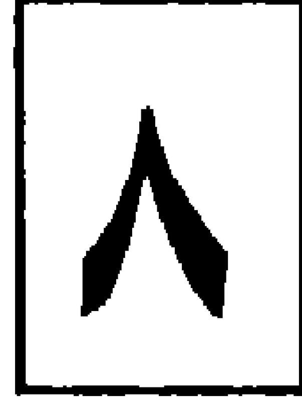
ينتقل الحديث إلى ظرفاء العصر، وفى مقدمتهم حافظ إبراهيم وعبد العزيز البشرى والمازنى ليتوقف عند نوادر كل واحد من هؤلاء، ويدلل الحاضرون على أن نكات هؤلاء لا تقل أهمية عن أعمالهم الأدبية، فلماذا لا تجمع؟!

إلى الفن وهنا نستهدف أجهزة الإعلام لهجمات الحاضرين فى الندوة. وكيف أن هذه الأجهزة لا تهتم بتراثنا الفنى اهتمامها بأخبار فلانة وآخر تسريحاتها؟ هل يعرف هذا الجيل مثلا أسماء رواد الفن الحديث، وفى مقدمته: عبد الحى حلمى ويوسف المنيلاوى وعبد اللطيف البنا. وبالمناسبة لقد رثا أمير الشعراء أحمد شوقى المطرب عبد الحى حلمى بقصيدة طويلة تعتبر من أبدع ما كتبه شوقى، وهنا يبرز اهتمام الأدب بالفن.

وتتداخل الأصوات فى معركة حامية حول موضعين: الأول يثيره الأستاذ على أدهم حول الترجمة واتفاق أغلبية الحاضرين على أن بعض المترجمين العرب يعملون على هلهلة اللغة العربية بترجماتهم الركيكة! والموضوع الثانى يثيره الدكتور السوافيرى حول انصراف شبابنا عن الثقافة العربية الأصلية. ويرى الحاضرون أن لذلك أسبابا كثيرة أبرزها ما يقال كذبا وبهتانًا عن تشكيك الدكتورطه حسين فى هذه الثقافة بكتابه الأشهر "فى الشعر الجاهلى".

وهكذا تمضى أكثر من خمس ساعات فى مناقشات جادة ومثمرة. وإن كانت – وهذا للأمانة – ليست على مستوى المناقشات التى كانت تتم فى وجود العقاد. ولعل السبب أن الندوة فى وجود العقاد كانت متنوعة متفرعة، وإنها فى غير وجوده محددة متجانسة، إلا أنها على أى حال مفيدة ثرية.

ولا تنتهى الندوة دون ذكر المشكلة التى تقلق أصدقاء العقاد ومريديه وتلاميذه.. وهى الخاصة بهدم العقار بعد الحكم، ويهيبون بالدولة أن تتدخل للحفاظ على هذا المكان الذى يعد تراثا ينبغى الحفاظ عليه. لأنه يمثل جانبا من تاريخنا الفكرى، وهل يضيع هذا التراث؟! والكل فى هذ الندوة، أو حتى فى حياتنا الثقافية يتساءلون: تراث العقاد هل يضيع؟!



ثامنًا : العقاد يتكلم
فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون والندوة

- الأحاديث الصحفية
- الأحاديث الإذاعية
- الأحاديث التليفزيونية
- الندوة العقادية

الأحاديث والحوارات مع المفكرين والعلماء وكبارالكتّاب والأدباء والعلماء فى الخارج تعتبر من الأعمال أو التراث الذى يتركه المفكر أو العالم أو الكاتب أو الأديب. ذلك لأن الجهد الذى تتطلبه الإجابة على سؤال مطروح لا يقل بأى من الأحوال عن كتابة مقال أو بحث أو دراسة فى الجانب الذى يثار حوله التساؤل، إن لم يزد.. فالمفكر أو العالم أو الكاتب أو الأديب يقوم فيها بإعمال فكره وشحذ خاطره.. وكثيرا ما تتطلب الإجابة على السؤال الواحد الرجوع إلى عدد غير قليل من المراجع والمصادر. ربما يزيد عما لو كان المطلوب كتابة بحث أو مقال أو دراسة. لذلك فمن الأمور المألوفة فى الخارج تقديرمثل هذه الأحاديث من كل النواحى.. ومعاملتها نفس المعاملة التى تلقاها المقالة أو الدراسة.

وفى مصر بدأ هذا التقليد فى الظهور، ولكن فى أضيق الحدود وأقل الحالات ومع شخصيات تعتبر بمثابة القمم فى فكرنا وعلومنا، ولم يكن الأمر مستغربا حين عملت به بمجلة الإذاعة والتليفزيون حين كلفت كاتب هذه السطور بإجراء حديث مع الدكتور طه حسين.. يومها خصصت الإدارة المالية للمجلة مقابلا ماديا للدكتور طه حسين.. إيمانا من قيادة المجلة فى ذلك بأن الجهد المبذول فى الإجابة على أسئلتها لا يقل عن الجهد المبذول لو أنها كلفت عميد الأدب العربى فى كتابة مقال. بل رأت أن الجهد فى الحديث يزيد ويفوق.. إذا تضمن عدة أسئلة تشمل عدة قضايا، وكل قضية تشمل الكثير من وجهات النظر والآراء والأفكار.

هذا عن الحديث الصحفى، وأما عن الحديث فى الإذاعة أو فى التليفزيون فأمره معروف، فكل من هذين الجهازين يعتبران بأن المتحدث فيهما يبذل من الجهد ما يستحق عليه مقابلا ماديا.

والخلاصة أن الحديث فى الصحافة أو فى الإذاعة أو التليفزيون يعتبر من الأعمال التى يتركها المفكر أو العالم أو الأديب ففيه خلاصة تجربته مع الحياة والناس، فضلا عما فيه من اتجاهات فكره وثقافته مركزة فى صورة إجابة على سؤال من الأسئلة يفيد منها القارئ نفس إفادته من مقال أو بحث أو دراسة أو حتى كتاب لهذا المتحدث.

وللأستاذ العقاد العديد من الأحاديث الصحفية، وله أيضا عدد غير قليل من الأحاديث الإذاعية وبعض الأحاديث التليفزيونية، على اعتبار أن هذا الجهاز قد بدأ إرساله فى مصر قبل وفاته بأربع سنوات.

بالإضافة إلى هذه الأحاديث الصحفية أو الإذاعية أو التليفزيونية.. هناك الندوة العقادية المشهورة.. هذه الندوة التى كانت تعتبر حدثا ثقافيا فى حياتنا الأدبية والفكرية، وأصبحت ندوة العقاد يوم الجمعة حدثا يضاف إلى الأحداث الأدبية والثقافية فى مصر، وكما سنرى - عند الحديث عن هذه الندوة - أنها كانت لا تقل هى الأخرى فى قيمتها العلمية أو الثقافية عن الحديث المسجل فى الصحيفة أو أمام الميكرفون أو على الشاشة الصغيرة إن لم تزد وتتشعب.

ولست أدرى هل اعتنى الذين كانوا يحرصون على حضور هذه الندوة وكلهم من خيرة علمائنا وأدبائنا وكتابنا ومفكرينا بتسجيل هذه الندوات، لتبقى على مر الزمن مصدرا ومرجعا نقود إليه الأجيال عند دراسة أو بحث حياتنا الأدبية والثقافية فى الفترة التى كانت تعقد فيها؟!

وعلى أى حال فسواء سجلت هذه الندوات العقادية أو لم تسجل فيكفى انتقال ما كان يجرى فيها من مناقشات هامة بواسطة المشتركين فيها، وهم من المثقفين وحملة الأقلام الذين يعملون فى الأجهزة الإعلامية والثقافية فى مصر وفى بعض البلاد العربية.

وهذا الجانب من أعمال العقاد، والذى يتمثل فيها جاء على لسانه من أحاديث فى الصحف أو فى الندوة العقادية أو أمام الميكرفون أو على الشاشة الصغيرة تعتبر الإشارة إليه من الأمور الهامة بالنسبة لرصد وتسجيل أعماله فى جملتها فالعقاد هنا يتكلم ويدلى برأيه مباشرة دون تأويل أو تفسير من الدارسين له.

لاشك أن أحاديث العقاد الصحفية تحمل فى جملتها مؤشرات شخصيته الفذة وبصمات مواقفه الخالدة واتجاهات عقليته الموسوعية. ولذلك فهى تختلف عن أحاديث عملاق آخر هو عميد أدبنا العربى الدكتور طه حسين.

فالرأى عند الدكتور طه حسين يمكن مناقشته والأخذ والرد فيه، فى حين نجده عند العقاد ليس من السهل مناقشته أو الأخذ أو الرد فيه. لأسباب عديدة أولها وأهمها طبيعة الأستاذ العقاد نفسه التى تختلف ولا شك عن طبيعة الدكتور طه حسين.. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية حرص العقاد على شحن رأيه بكل ما يمكن من معلومات ومعارف لا تترك فرصة لمزيد بعده.

لهذا كانت أحاديث العقاد الصحفية هى مثل مقالاته ينتظرها القارئ وينزلها من نفسه منـــزلة المرجع أو المصدر طالما كان العقاد هو المتحدث، بل إن بعض هذه الأحاديث أثارت من المعارك أياما شغل فيها الرأى العام.

كذلك من الصعب أن يستشعر قارئ أحاديث العقاد بتردده فى اتخاذ المواقف، كما يستشعرها مع كتّاب أو مفكرين غيره لاعتزازه بنفسه وبكلمته وفكرته عن أن القلم المتردد لابد وأن يكون فى يد مرتجفة تحركها نفس هيابة خائفة. وهل ينتظر من إنسان خائف هياب أن يأتى بفكر جديد؟؟

وعلى سبيل المثال لا الحصر ها هو العقاد يصرح فى حديث طويل لمجلة الاثنين عام ١٩٥٨ بأنه مازال مصرا على الدفاع عن العزوبية. ويذكر لذلك قصة أيام كان نائبا فى البرلمان، حيث وقف أحد الأعضاء فى المجلس يطلب استصدار تشريع يقضى بأن يدفع كل عازب ضريبة ليشجع هذا فى القضاء على مشكلة الزواج، ويذكر العقاد أنه عارضه قائلا: إننى أعارضك لا لأننى أعزب فأنا على استعداد لأن أدفع الضريبة من

الآن، ولكن ما دمت متفقا معى على أن هناك مشكلة اسمها الزواج وأنها فى حاجة إلى حل فالأفضل أن نشجع العزوبية، حتى تعرف البنات سبب امتناعنا عن الزواج، وحتى يعرف والد كل فتاة أن سبب الإضراب على الزواج هو غلاء المهر مثلا أو تكليف الرجل بما لا طاقة له به فيرجعون عن الغلو، وتحاول كل فتاة أن تؤهل نفسها للزواج لتروق فى عين الرجل الذى يحجم ويتردد.

وفى مجلة الجيل بتاريخ ١٩٥٨/١٠/٢٧ يتحدث العقاد تحت عنوان: "العقاد يقول": أنا شاعر أكبر من شوقى وأتحدى بشعرى أى قصيدة من قصائده، وفى مقدمة الحديث يقول العقاد: إن شوقى لم يكن صاحب إمارة شعر، ولكنه صاحب حارة شعر.

ويستطرد العقاد فى حديثه ردا على سؤال: لماذا لم يظهر بعد شوقى شاعر كبير يملأ الفراغ الذى تركه فى مملكة الشعر فيقول: السؤال من أساسه خطأ، فقد ظهر بعد شوقى ومعه شعراء مثله وأكبر منه، ثم يجيب إجابة على سؤال: مثل.. من؟ فى هدوء حيث يقول: "أنا... شاعر مثل شوقى وأكبر منه، وأقول هذا ولمن شاء من المعجبين بشوقى فليتقدم لى واحد منهم بقصيدة يعتقد أنها فى عيون الشعر لشوقى، وأنا على استعداد لأن أقدم أمامها ثلاث أو أربع قصائد من شعرى تفوقها لفظا وصياغة ومعنى وموسيقية أيضا". وعندما تقول له الصحفية: إن شوقى نال لقب أمير الشعراء لأنه وضع شيئا جديدا لم يضعه شاعر قبله. أليس هو أول من كتب المسرحية الشعرية ونقلها إلى أدبنا العربى يجيبها قائلا: "يا آنستى أين درست هذا الجهل؟ أولا: شوقى ليس أول من كتب المسرحية الشعرية، وليس أول من أدخلها إلى أدبنا العربى. لقد كان قبله بخمسين سنة شاعر آخر عربى اسمه خليل اليازجى، وهو من لبنان - هذا الشاعر قدم لنا مسرحية شعرية من أولها إلى آخرها حتى مقدمتها كانت شعرا.

ثانيا: المسرحية الشعرية لون من ألوان الشعر، وهى ليست معضلة ولا إعجازا، بل هى من أسهل الأشياء، خصوصا إذا كانت من قبيل مسرحيات شوقى التى لا تمتاز بدقة التاريخ ولا بدقة تصوير الشخصيات.

وأنا عندما قيل لى قبل ذلك لقد صنع شوقى مسرحية شعرية، قلت لهم: ولا تزعلوا، ووضعت مسرحية فى ساعة واحدة وكان موضوعها شوقى نفسه".

وعلى سؤال لماذا أنت غاضب على الشعراء المجددين رغم أنك كنت أول من نادى بالتجديد فى الشعر؟ يرد العقاد قائلا: "نعم ناديت بالتجديد، ولكنى لم أناد بالتخريب. هذا الكلام الذى يكتب الآن ليس شعرا مجددا أو غير مجدد. إنه كالغناء بلا أنغام ولا فن ولا طرب كيف ندعى أنه غناء".

وفى مجلة المصور بتاريخ ١٩٥٨/١١/٧ يعلن العقاد قائلا: "لى إيمان تام بشىء سيظل راسخا فى قلبى إلى الأبد، وهو أننى أكره الشيوعية كراهية التحريم، وذلك لأننى أعتقد أن الشيوعية مذهب بهيمى حيوانى يخضع الروحانيات للماديات، كما أنها إنكار لكل القيم العليا ومنها العظمة الإنسانية..

ولى رأى مخالف للشيوعيين من حيث إنهم يعتقدون أن الجماهير هى التى تغير التاريخ أما أنا فأومن بأن الفرد هو الذى يغير التاريخ".

وفى صحيفة الجماهير بتاريخ ١٩٥٩/٩/٩ يجيب العقاد على سؤال حول خصوماته الأدبية فيقول: "كانت لى خصومات مع مصطفى صادق الرافعى والدكتور طه حسين والدكتور زكى مبارك وغيرهم، دارت هذه الخصومات على موضوعات إعجاز القرآن وأصول اللغة والفرق بين الأدب السكسونى والأدب اللاتينى وقيمة الدراسات العربية فى السربون، وقد قلت فى شهادة الدكتور زكى مبارك: جاءنا بشهادة من الأعاجم ليدلنا على معرفته باللغة العربية".

وفى جريدة الجمهورية بتاريخ ١٩٥٩/١٠/١٢ يعلن العقاد: "يقولون إنى أعيش فى برج عاجى.. وأنا أقول لهم إنى أبنى الآن برجا عاجيا جديداً.. لن يكون إلى جوار البرج القديم وإنما سيكون فوقه.

إن الذين يكتبون عن الأدب الواقعى لا يفهمون ما هو الأدب الواقعى.. الذين يكتبون ويتحدثون عنه أدب (وائع).." قالها العقاد بالعامية وأشار بيده علامة السقوط، ثم ضحك طويلا..

"بعض الأدباء الناشئين كتبوا أن القراء لا يفهمون ما أكتب.. فانصرفوا عن إنتاجى وأنا أرد عليهم بأن هذا ليس مهما ما دام القراء سيعودون إلىّ ثانيا ويقرأون لى مرة ثانية بعد ثلاثين عاما عندما يرتفع مستواهم، ولكنى لن أهبط إلى مستواهم أبدا.. لن أكتب عن الفجل وبياعى الفجل أبدا".

وفى جريدة المساء ١٩٥٩/١٠/١٥ يعلن العقاد: "كذاب كل من قال إن الصاروخ الروسى وصل إلى القمر.. ومرصد المجر الذى أعلن ذلك ورغم أنه أحدث ضوءا مشتعلا عند سقوطه على القمر بلا شك كاذب مخالف للحقيقة العلمية لأن الإشعاع الذى يحدث من اصطدام الصاروخ بسطح القمر الذى لا يمكن أن يظهر على هذه المسافة البعيدة - بعض الأشعة القوية المنعكسة على سطح القمر".

ويجيب - فى نفس الحديث على سؤال: أأنت أكثر عبقرية من برنارد شو قائلا: "برناردشو واقف على أكتاف خمسة أجيال أو ستة أجيال من الثقافة الأوروبية على العموم والثقافة الإنجليزية على الخصوص.. وأنا قائم على قدمى لأن ثقافتنا الحديثة لا ترجع إلى أكثر من جيلين، ومع ذلك لا أظن أن رأسى دون رأسه فى الارتفاع".

وفى مجلة حواء ١٩٥٩/١١/٢١ يجيب العقاد على سؤال حول زواج هذه الأيام فيقول: "إنه زواج لا عقل فيه ولا عاطفة.. إنه أقرب إلى فسحة يتركها الزوجان عندما يصيبهما الملل. والسبب ظروف الحياة وعدم تقدير المسئولية ولقاء الرجل بالمرأة فى كل مكان".

وحول نجاح المرأة فى حياتها العملية يجيب العقاد قائلا: "لم تصب المراة فى أى ميدان عملى نجاحا كالذى أصابه الرجل وهذه مسألة لا حيلة لها فيها. إنها ترجع إلى تكوينها العضوى. لا أنكر أن هناك كثيرات نجحن فى أعمالهن، ولكن نجاحهن كان من الممكن أن يكون أعظم لو كن رجالا. ويدلل العقاد على ما يقول موجها حديثه للمرأة: عندما تمرضين هل تذهبين إلى طبيب أم طبيبة؟ وعندما تريدين قص شعرك هل

تذهبين إلى كوافير أم كوافيرة؟ والطباخون. إنهم من الرجال ومبتكرو أزياء المرأة. إنهم من الرجال. أليس فى هذا دليل على أن الرجل يفوق المرأة حتى فى ميادين تخصصها؟ حقائق يجب ألا ننكرها.

ويرى العقاد فى حديثه أن الميدان العملى للمرأة هو أن تكون مضيفة فى طائرة توزع ابتسامتها على المسافرين حتى تهدأ أعصابهم ويذهب خوفهم.

وفى مجلة الاثنين ١٩٥٩/١١/٢٩ يقول ردا على سؤال ما رأيه فى شباب هذا الجيل: "إننى أرثى للجيل الجديد إنه يطالب بالحرية وهو غير كفء لتحملها. شباب هذا الجيل مائع ولا يستطيع تحمل المسئولية.. زمان كان الشاب يتزوج وهو فى السادسة عشرة ويستطيع تحمل مسئولية الأسرة. والآن يعجز الشاب عن تحمل مسئوليات نفسه وهو دائما يتهم المجتمع ويدعى أنه ضحية التطور بينما فى الواقع: المجتمع هو ضحية الأفراد. شباب هذا الجيل يدلل نفسه ويساعده على ذلك أساتذة وأطباء علم النفس.

إن مطالب الشاب فى بيته مجابة، وفى المدرسة مجابة، وفى المجتمع مجابة خوفا من أن يصاب بعقدة نفسية، وقبل أن يقول فرويد بحكاية العقد النفسية كان الشباب يمر بأقسى التجارب والصعاب ويقدم عليها دون أن يخشى من العقد النفسية".

وعن إيمانه بعلم النفس وفرويد يجيب: "انا أعتقد أن المريض النفسانى قد يفيده العلاج النفسى على يد عالم نفسانى مثلما يفيده العلاج على يد طبيب بشرى. ولكنى لا أؤمن بفرويد لقد كان أكثر الناس تعقيدا، وأعتقد أنه لم يدخل عيادة فرويد إنسان يحتاج للعلاج النفسى مثل فرويد نفسه.

مثلا.. فرويد كان يهوديا.. وكان مصابا بعقدة التعصب ليهوديته. فلم يكن يلحق بالعمل عنده غير اليهودى. وكان ضعيف الإرادة بدليل أنه لم يستطع التغلب على عادة التدخين حتى أصيب بالسرطان، وكانت له عادات شاذة غريبة غير ذلك تدل على نفسيته المعقدة الملتوية".

وفى المصور ١٩٦٠/٤/٢٢ يجيب العقاد على سؤال حول عدم ترشيحه لجائزة

نوبل قائلا: لم أفكر مرة فى تقديم نفسى لجائزة نوبل لأننى أعتقد أن لجنة نوبل لا تملك الوسائل الكافية لدراسة مؤلفاتى، كما أننى أشك فى مجرد وجود رغبة عند أعضاء اللجنة - ومعظمهم يهود - لتقدير كاتب عربى اشتهر بحملاته على الصهيونية.. ثم ماذا لو أخذت النوبل.. هل أتساوى بخيمنيز مؤلف الأطفال وكوازبير ومدرس الثانوى والإيطالى؟!".

وما رأيك فى محاولة توفيق الحكيم الحصول على جائزة نوبل؟

ويرد: "أعتقد أنها محاولة تستحق منه المجهود. وخصوصا إذا أمعن النظر إلى مبلغ الجائزة المالى وهو كما يعلم الحكيم جيدا ٣٠ ألف جنيه وأنا لست مثل الحكيم.. أنا أترك التقدير الأدبى يبحث عنى ولا أبحث عنه أبدا، وإلا لقدمت فيه صفة "التقدير". وهذا شأنى فى الحياة".

فى آخر ساعة ١٩٦٠/٦/١ يجيب على سؤال هل أدباء اليوم أسعد حظا من زملائهم الذين عاشوا فى مطلع القرن؟ قائلا: "نعم إن أديب اليوم أسعد حظا من زميله فى أيامنا، لأن القراء لا يطلبون من الكاتب إلا أن يكون أقل أمية منهم".

ثم يستأنف حديثه: "والنكبة الكبرى فى هذا الجيل أن الجاهل أصبح يعتقد أن العلماء مطالبون بالنزول إليه قبل أن يصعد هو إليهم وهذه هى المصيبة الكبرى".

وفى الجمهورية ١٩٦٠/٦/١٩ يجيب على سؤال حول عدم اهتمامه بكتابة المسرحية فى إنتاجه قائلا: "المسرحية تكتب تمهيدا لتقديمها على المسرح.. وهذا يستدعى الاتصال بالممثلين والممثلات والمخرجين تكتب تمهيدا لتقديمها على المسرح.. وهذا يستدعى الاتصال بالممثلين والممثلات والمخرجين إلى غير هؤلاء من المشرفين على تقديمها، وقد يطلب أحد هؤلاء تعديل أحد مواقفها أو تغيير بعض كلماتها. تسهيلا لإخراجها كما يحدث دائما. وهذا ما يتعارض مع أخلاقى.. وكما ترى أخلاقى منعتنى من كتابة المسرحيات".

ثم يجيب على سؤال حول منهجه: كتب أحد تلاميذك إنما تنبت الفكرة فى وعيه بذرة.. تنشب جذورها كالجنين، ثم تتصل أيامها بأيامه وتتخذ سيرتها مع سيرته..

وهى خلال ذلك تتغذى بكل ما يتدفق به وجدانه من إحساسات وأفكار وعواطف وأخيلة وكل ما يختلج فيه من هموم وأشجان حتى يكتمل نضجها فتخرج مولودا كاملا، فهل هذه هى طريقتكم فعلا فى التفكير؟!

ويرد العقاد: "نعم هذه طريقتى بعينها.. وأذكر أننى سافرت إلى السودان.. وتركت كتاب "عبقرية عمر" دون أن أتمه، وفى السودان وجدت فسحة من الوقت فبدأت فى كتابة الكتاب من أوله وأذكر أن النسخة التى كتبتها فى السودان كانت مطابقة فى كلماتها للنسخة التى كتبتها فى القاهرة".

فى المساء ١٩٦٠/٦/٢٠ يجيب على سؤال: إنك من الأمثلة النادرة التى تقرأ فى كل علم وفن.. لعل هذا الفريق من الكتاب يكاد ينعدم. فالاتجاه اليوم إلى التخصيص؟ ويرد قائلا: "لقد دعا التطور إلى التخصيص بل إلى تخصيص التخصيص، فالطب مثلا له فروع يتخصص فى كل منها المتخصصون، ولكن مع التخصص لابد من الإلمام بالمعلومات العامة، فهذا من مكونات الثقافة وأنا أستطيع أن أقرأ وأكتب فى كل علم وفن. قد أقرأ فى نفس الوقت كتابا فى النقد وكتابا آخر فى العلم والبحث.. أقرأ الآن مثلا كتابا عن الإنسان والفضاء. وضعه عشرون من كبار علماء العالم ومعه كتاب آخر عن حياة خروتشيف، وأستطيع أن أكتب فى أكثر من موضوع وفى أى موضوع إلا فى الشعر. إذا طلبت منى كتابا فى شهرين فى أى موضوع أعطيك كونتراتو" أما إذا طلبت منّى شعرا فلا أستطيع أن أعدك ولا فى سنة، فالقصيدة يسبقها جونفسانى ملائم".

وفى جريدة وطنى ١٩٦٠/٧/٣ يجيب العقاد على سؤال: ما هو مستقبل الشعر فى عصرنا المادى؟ "هو مستقبل الشعور الإنسانى، وربما كان العصر الحاضر قد جار على الشعر لأنه جار فى الوقت نفسه على الشخصية الإنسانية، ولكن متى زالت هذه الفاشية وعادت الأمور إلى سوائها. فلابد أن يتجدد الشعر اللائق بالتعبير عن شعور الإنسان وأن تتجدّد معه سائر الفنون الصحيحة التى تقضى على جميع هذه الخزعبلات المشهورة".

وفى الأخبار ١٩٦٠/٦/٢٨ يجيب العقاد على سؤال: كيف يمكن أن يصبح الإنسان مثلك؟ قائلا: "أولا أن يكون بداخله جوهر الأدب، وعليه هو أن يصقل هذا الجوهر حتى يبرق. ويشع وهذا كله تصنع القراءة الدائمة المرهقة".

وفى المصور ١٩٦٠/٦/٨ يجيب على سؤال: يقولون إنك أرستقراطى الفكر، فماذا تقول؟ فيردّ: "أنا كذلك بل أود أن أكون امبراطورى الفكر. إن بعض الجهلاء لا يؤمنون بأن الثقافة لا يمكن أن تكون ثقافة إلا إذا فهمها، وبذلك سادت الطبقة الجاهلة وانتشرت.

زمان. منذ نصف قرن كان الشيخ سلامة حجازى يمثل باللغة العربية الفصحى، وقصائد الشعر وكان العوام يشاهدونه من أعلى التياترو بخمسة قروش، وكنت واحدًا منهم فلم أكن أملك أو أقدر على دفع أكثر من هذه القروش القليلة، وفى نهاية الليل أرى أولاد البلد يتركون المسرح وهم يعيدون قصائد الشعر التى سمعوها منذ قليل وقد حفظوها كاملة غير مكسورة.

إن العوام لو طلب إليهم أن يفهموا ويتعلموا لفعلوا، ولن يكلفنا الأمر غير أن نقدم لهم الباعث على الثقافة والعمل. ولكننا لا نترك العوام يفهمون الخطأ صوابا بجعلهم يفهمون ويؤمنون أن من هم أحسن منهم حقراء. وهنا يكمن الخطر".

وما رأيك فى أدب الروائى العالمى سومرست موم. إن كثيرا من المثقفين يقرأون لهذا الرجل بِنَهَم شديد؟.. أجاب قائلا:

"لقد سقط هذا الرجل من عينى حين كان يعمل بالمخابرات البريطانية وأرشد عن صديق له من الهنود كان يعمل ضد الاستعمار البريطانى من أجل استقلال بلاده. و لم تكن الهند قد حصلت على استقلالها بعد.. إنه كاتب المخابرات، وأدبه أدب من عمل طويلا بالمخابرات، وتعوّد كتابة التقارير السرية عما رآه خلال مراقبته للناس.

وفى جريدة التعاون ١٩٦٠/٨/١٠ يسأل المحرر: قرأت لك فى كتاب الشيوعية والإنسانية العبارة الآتية: أنا أكره الشيوعية كراهة التحريم. كيف التوصل الموضوعى إلى هذا الحكم القاطع، وما هى الوسائل التى تمنع تغلغل الشيوعية فى بلادنا؟ ويجيب

العقاد قائلا: "كلمة التحريم كلمة متواضعة، فالواقع أن الشيوعى يستحق أكثر من هذا. لأن الشيوعى الحقيقى مثال الشر فى الإنسان لأنه لا يؤمن بغير المادة والمعدة، ويفخر بهذا، ومعنى هذا أنه هبط بالقيم الإنسانية دون الحيوانية - إن الحيوانات تسمو فى أمور فوق المادة - أو هى تظن دى مبالغة - إن الحيوانات عندها عاطفة وذوق، أنثى الطير مثلا تتزين لزوجها فى موسم الربيع.

وعادة تنشأ الشيوعية من الظلم الاجتماعى أو من طغيان طبقة على غيرها من الطبقات، فلكى نمنع التغلغل الشيوعى يجب ألا نسمح لطبقة من طبقات المجتمع باستغلال الطبقات الأخرى، كما لا نسمح بأن تكون العلاقة بين الطبقات علاقة حرب، ولكن علاقة تعاون وتفاهم، يجب أن نعمل على نشر التعاون بين الطبقات".

هل تعتقد أن مجتمعنا سيظل يرفض الشيوعية؟.. يقول:

يتوقف هذا على أمرين. مقدار تمسكه بالدين وبالكرامة الإنسانية الشخصية، فإذا ظل مجتمعنا قائما على الدين والاعتزاز بالكرامة الشخصية، فلا سبيل للشيوعية عليه وإلا فهو فى خطر دائم فى التعرض لها".

ما رأى سيادتكم فى التأميم؟

"التأميم عندنا قديم قدم النيل، واشتراكنا فى عمليات الرى والصرف. ومعظم وسائل المواصلات عندنا وخاصة الطرق الحديدية تعتبر مؤممة منذ إنشائها، وتستطيع كل دولة أن تقرر ما يجب أن تؤممه تبعا لاحتياجاتها وظروفها وما يمكن أن تتركه للنشاط الفردى الخاص".

إنك ترفض الشيوعية وكذلك الرأسمالية. كما سمعنا وقرأنا لك، فأى النظم الاجتماعية تفضل؟

"الديمقراطية هى أفضل النظم الاجتماعية فى العالم، على أن تكون ديمقراطية سليمة - وأفضل نظام اجتماعى تتحقق فيه الديمقراطية الحقيقية هو الإسلام، فهو الذى أوجد الديمقراطية الحقيقية وأعطى الإنسان حقه الطبيعى القائم منذ أن يولد، كما أن الإسلام يمنع احتكار الثروة كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم، ويعمل على تأميم

المرافق العامة "الناس شركاء فى ثلاثة الماء والنار والكلأ". والإسلام فوق هذا يعطى الإنسان إلى جانب الديمقراطية والعدالة الاجتماعية اعتقادا روحيا – هو فى حاجة قصوى إليه".

– ما رأيك فى قضية الإيمان والإلحاد؟

"أنا أومن بوجود الله والحكمة الإلهية – وأومن بأن الدين لمصلحة البشر – وأومن بأن حالة الملحد نفسها برهان على أن الإلحاد غير طبيعى – لأن الملحد غير مستريح للحياة ولا للأمل فيها، وعوامل العطف بينه وبين إخوته من البشر غير مفهومة وغير مستقيمة. وإذا سألتنى عن أفضل دين علميا وفلسفيا قلت لك إنه الإسلام – لأن فكرة الإسلام عن الله وعن النبى وعن الإنسان هى أرقى فكرة وجدت فى أى دين من الأديان – فالله هو رب العالمين وليس رب شعب معين، والنبى هو معلم مرشد وليس صانع معجزات أو شركة تأمين على الحياة يقى الناس من أخطار المستقبل – والإنسان مسئول عن عمله ولا تلحق به جريمة غيره حتى من الآباء والأجداد وهذا لا يمكن أن يصل إليه أى نظام اجتماعى إنسانى.

وفى جريدة الجمهورية ١٩٦٠/٩/٢٤ يتحدث العقاد عن التفسيرات العصرية للقرآن التى ظهرت فى هذه الفترة فيقول: "وليس من الصواب تعريض القرآن الكريم للتفسيرات والنظريات التى يختلف عليها أصحاب الآراء العلمية فى كل زمن، فإن هذه الآراء وما يصحبها من الاختراعات والمكتشفات تتناقض وتتبدل ولا تستقر نظرية منها على حال مدة جيلين متواليين. خذ مثلا لبعض العلماء الشيخ محمد عبده خطر له أن يفسر السموات السبع بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية، ثم ظهر بعد اتفاق أدوات الرصد الفلكى أن السيارات مع تلك النجمات عشر لا سبع، وذلك بعد اكتشاف "اورانوس" و "نيتون" و "بلوتو" عدا مئات من السيارات الصغيرة تحوم فى الفضاء، فماذا يكون الحكم الدينى لو أن المسلمين اعتقدوا أن القرآن يحصر السيارات الشمسية فى سبع وهى أكثر؟ لا شك أن الابتعاد بمعانى القرآن الكريم عن أمثال هذه التأويلات أسلم وأكرم للعقيدة".

ويجيب العقاد عن آية ساقها بعض المفسرين المحدثين على أنها دليل تكلم القرآن

عن دوران الأرض وهى ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[1] إشارة إلى دوران الأرض فيقول: "إن ما قبل الآية وما بعدها دليل كاف على أن هذه كلام عن يوم القيامة لا صلة له البتة بدوران الأرض الآن. وقد تكلم القرآن عما سيحدث للجبال يوم القيامة فى أكثر من موضع - يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن المنفوش".

ويستطرد العقاد فى حديثه هذا: "وهناك طائفة أخرى لها تفسيراتها العجيبة لآيات الكتاب الكريم. مثلا بعض طوائف الطرق الصوفية تفتى برفع الوجبات الدينية عن الإنسان. حتى الصلاة حيث يقولون إن الإنسان يدخل فى حلقات الذكر فيتمايل ويترنح حتى تأخذه الجلالة فتتصل روحه بالله - هكذا يقولون - فترفع عنه الواجبات الدينية وتنطبق عليه الآية الكريمة - ولذكر الله أكبر - أى أكبر من الصلاة، وذلك بتفسيرهم كلمة الذكر على أنها حلقات الذكر المعروف عندهم".

وهل تفسيرهم للآية صحيح؟ سؤال يجيب عليه العقاد قائلا: "الصلاة هى ذكر الله، والمقصود من الصلاة هو الذكر كما فى مواضع كثيرة بالقرآن الكريم، ففى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[2] وقوله جل شأنه: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[3].

وفى جريدة وطنى ١٩٦١/١/٨ يتحدث العقاد عن بيكاسو وغيره من الفنانين التجريديين فيقول: "فى حى مونمارتر بباريس أحضر بعض فنانى هذا الحى حمارا وربطوا بذيله فرشاة غمسوها فى عدة ألوان وتركوا الحمار يهز ذيله على لوحة، وسرعان ما كون ذيل الحمار رقعة ملونة أطلقوا عليها لوحة سيريالية، وكانت موضع إعجاب الكثرين دون أن يدركوا أن راسمها حمار. ومن هذا نعرف أن الفن السريالى يمكن أن يمارسه حمار. إن الرسامين القدامى كانوا يضفون على لوحاتهم عصارة أفكارهم ومشاعرهم. ومع هذا لم تكن غامضة. وكانت مفهومة من أغلب الناس أو

(١) النمل / ٨٨.
(٢) طه/ ١٤.
(٣) الجمعة / ٩.

على الأقل من خاصتهم لأن الفن لابد أن يعتمد على قيم وأحكام معترف بها. وليس هناك فن بلا مقاييس.

لكن الفنانين التجريديين يقولون إن فنهم بلا مقاييس، ويعتمد على النظرة المتعودة. وأنا لا أسمى هذا فنا. وقد أثبت البحث أن وراء كل من شذ من الفنانين سببا خلقيا أو نفسيا فالجريكو مثلا كان يطيل رسم شخصياته. وقد ثبت أنه كان مريضا بالشبكية وغيره كثير.

ويدافع الفنانون التجريديون بأن فنهم ينبع من العقل الباطن. وهو انعكاسات لانفعالات الشعوب، وهم يستغلون نظريات فرويد فى التحليل النفسى لتبرير أعمالهم. ونرد عليهم فنقول إن الفنانين الخالدين أمثال: رافاييل ودافنشى وجويا وغيرهم كان فى أعمالهم نصيب وانبعاثات العقل الباطن، ومع هذا كانت أعمالهم قائمة على اسس فنية محترمة.

إن أكبر الفنون الجديدة إسفافا لا يرتفع إلى مستوى الفن. وأنا على استعداد إن أعطيتمونى فرشا وألوانا أن أنتج لوحات أعظم من تلك التى يرسمها بيكاسو هذا..".

وفى المصور ١٩٦١/٤/١٤ يجيب العقاد على سؤال: لقد وصفتك الدكتورة عائشة عبد الرحمن بأنك طغيان أدبى وأنك طاغية أدب؟ قائلا: "أنا فعلا طاغية أدب وابنة الشاطئ تظن أنها تنال منى حين تتهمنى بالطغيان الأدبى. إننى أعتبر هذا ثناء منها على أدبى، فأنا لست سلطة حكومية ولست صاحب جريدة أو مطبعة. إن هذا يعود إلى رؤيتها وموقفها وأنا لا أستبيح لنفسى أن استرجل عليها فألقمها الحجر.. وهى تعلم تماما أنى قادر على ذلك. وأن لحملتها ضدى أسباباً أخرى غير الأدب".

وعن الأزمة الفكرية التى يعيشها شباب هذا الجيل. فجعلته يتخبط بين الشك واليقين يقول العقاد: "ليس للشباب أن يقف من هذا التزعزع العالمى موقفا سلبيا. فواجبه أن يكف عن الدلع وعن الانتظار الذى فرضه على نفسه. حتى يقدم

له المجتمع المعرفة واليقين. وواجبه أن تجف على لسانه تلك العبارات المتمردة السخيفة: أنا لا أومن بالله.. لا أو من بهذا النظام من الحكم.. لا أومن بدور الأب فى التربية.. لا أومن. لا أومن. وليس عنده كلمة غيرها يرددها فى الصحو والمنام. إننى أنادى شباب هذا الجيل ألا يعتبر المجتمع مسئولا عنه، فلا قيمة للإنسان بلا مسئولية شخصية".

ويتحدث العقاد عن صيحة مفكرى أوروبا الجديدة حول العلم وعلاقته بالديانات فيقول: "لقد ظهرت خلال هذه الأعوام فلسفة رخيصة لدى بعض مفكرى أوروبا، فقاموا بنفى كل ما ورد فى الكتب الدينية بقصد الدفاع عن العلم.

إن العلم الحديث هو أن تأتى بالدليل والبرهان على نفى ما تريد أن تنفيه لا أن تنفى وتكتفى بمجرد النفى لتفاسير الأقدمين وتعاريفهم حتى وصل الأمر إلى محاولة هدم معلومات كتب التاريخ القديم..

إن التاريخ القديم أصدق عندى من التاريخ العصرى. وقد قارنت تاريخ الثورة الفرنسية بالتاريخ القديم، ثم بالتاريخ العصرى فوجدت فى الأخير أكثر من عشرين تفسيرا حديثا لها. كانت كلها تفسر الثورة حسب هواها. إما لأسباب وعوامل اقتصادية. أو لانتقام العوام من الملك أو لانتشار الانحلال الخلقى فى أنحاء البلاء. ولكنى رأيت أن استخلاص الحقائق لا يمكن أن أحصل عليه إلا عن طريق التاريخ القديم، وهذا هو سر تمسكى به".

ويثير العقاد قضية هامة حيث يقول: "إن ما يضايقنى هو أن أرى اليوم بعض الدارسين من أبنائنا يدرسون العربية على أيدى أساتذة أوروبيين من الخارج وفى الخارج فإن واجبى هو أن أطالب هؤلاء السذج برفع غشاء الذل عن عقولهم.

لقد جعلنا إحساسنا بقوة أوروبا فى صناعة المدفع تصل للإيمان بأن المستشرقين يعرفون العربية أكثر منا حتى إن الدولة نفسها ذات يوم جاءت بالمستشرق فيشر ماسنيون ليضع لها قاموسا فى اللغة العربية مقابل عشرة آلاف جنيه، وبدأ الرجل عمله

بأن عرف السنة، أى الزمن المحدد بـــ ١٢ شهرا بالنوم معتمداً على الآية القرآنية التى تقول لا تأخذه سنة ولا نوم..

نردد أصداءهم أو نتعلم لغتنا ونشرب ثقافتنا على أيديهم".

وفى روز اليوسف ١٩٦١/٥/١٥ يستهل العقاد حديثه مع محررها وموجها ذلك للحاضرين قائلا: "إنك قد حضرت لعمل حديث معى لتستغله فى التشهير بالعقاد.. لكن لا روز اليوسف ولا خمسون جريدة مثل روز اليوسف يمكنهم أن يهدموا العقاد".

وتتوالى أسئلة المحرر وإجابات العقاد على النحو التالى: من هو عميد الأدب؟

أنا..!

* مين يا فندم؟

أنا ياجاهلّ

* ما رأيك فى الحركة الأدبية الحالية؟

عظيمة..

* لماذا؟

لأننى موجود.

* وما رأيك فى إحسان عبد القدوس؟

بائع صور عارية!

* ويوسف السباعى؟

من.. أنا شخصياً لا أعرف إنساناً بهذا الاسم!

* ونجيب محفوظ؟

اكتبهم.

من هم كتّاب القصة القصيرة عندنا؟

- بعض من أثق فيهم قالوا لى إن يوسف إدريس يكتب قصصا قصيرة بها شئ.

* هل قرأت الشعر الحديث؟

- قرأت ماذا.. هل تريد منى أن أقرأ الكلام الفارغ الذى يكتبه (البتاع) اللى اسمه صلاح عبد الصبور. إننى أتحدى عبد الصبور هذا أن يقرأ عشرة أسطر دون أن يخطئ فى تشكيل أو نطق بعض كلماتها"!

* وما رأيك فى شعر نزار؟

- منذ مائتى عام كانت جدات جدات نزار هذا يعلن: "شد شعرى وقطعه" وكن يسرحن بنفس بضاعة نزار تماما. نفس الكلام الذى يكتبه الآن الأستاذ نزار وكانوا أيامها يقولون إنه شعر صادق العاطفة والتصوير. إن نزار هذا يكتب دائما عن حجرة نوم قذرة.. حجرة ليس بها كلونيا.. تماما كزريبة البهايم يضع بها ما يصفه الآدميون من أبطاله وبطلاته!

* من هم كتّاب المسرح العربى؟

- قول أسماء..

- توفيق الحكيم؟

- رجل يعتمد على الحوار الذهنى.

- ونعمان عاشور؟

- من هو نعمان عاشور هذا.. إنه شئ غير موجود.. إن الإنسان الذى تبلغ به الوقاحة لدرجة أنه يقول على لسان ديدمونة "يا دهوتى" يستحق الرجم بمؤلفاته هذه. إن هذا الشئ الذى اسمه نعمان عاشور غير موجود لأنى لا أعترف به. وما دام الجميع يعترفون بأننى حى موجود. فمن الطبيعى أن النعمان عاشور هذا غير موجود!

* هل عندنا كاتبات؟

- عندنا.

- من؟

- كل كاتبة فى رأيك هى فى رأيى غير كاتبة والعكس صحيح.

* الحقيقة أنك تحارب الجيل الجديد من الكتاب.

- أنا أحارب فقط مدعى الأدب، ولكن يظهر أن شوية الكتّاب الحمر هم الذين أشاعوا عنى هذه الفرية، وذلك لأنى لا أكتب أدب الحياة. وأنا اقول لهم إن ما ياكوفسكى الشاعر الروسى الذى يكتب أدب الحياة انتحر هروباً من الحياة. والحقيقة أن أكبر خدمة للأدب هو: إنكار أمثال هؤلاء.

* وفى الجيل الجديد ١٩٦١/٥/٢٩ يجيب العقاد على سؤال من هو الشاب المثقف فى نظرك؟ قائلا:

- شوف.. الشاب المثقف هو الذى يعيش فى دنيا يفهمها ويتجاوب معها يفهم كل ما يحيط بالإنسان من الكون كله.. مش بس بلده أو القارة التى يعيش فيها.. ولا حتى الكرة الأرضية.. ولكن الكون كله..".

- وقال العقاد: "أقصد أن يكون هذا هو المثل الأعلى للشباب، يعنى أن يحاول الشاب دائما أن يفهم كل ما حوله. والفهم وحده لا يكفى ولكن أن يتجاوب مع كل ما حوله".

وضحك العقاد ليروي هذه القصة التى لم أضحك لها، ولكن فيها معنى: "بيقولك يا مولانا إن رجلا سأل ابنه. ما مثلك الأعلى فى الحياة فقال الابن: أن أكون مثلك، فأجاب الأب إذن إنت رايح فى داهية. لقد كان مثلى الأعلى هو على بن أبى طالب.. واديك شايف حالتى دلوقت.. فإذا كنت أنا مثلك الأعلى - للمحرر - تبقى مش نافع".

- ويقول العقاد رداً علي سؤال عن الأغانى: "أنا أحب أم كلثوم، وأعتقد أنه لم يأت أحد بعدها. وأنه لا توجد مطربة تقف إلى جوارها وأن أغانيها كلها تعجبنى".

- وقال: "تعرف إن الأغانى الآن أحسن من الأغانى زمان.. وأن هذه الأغانى تعبر بالضبط عن الواقع ولها موقف من حياتنا.. ولكن هناك بعض الأغانى المريضة العليلة التى تشيع السلبية بين الشبان في الوقت الذي يجب أن يقف فيه الشباب وأن يشدوا حيلهم ويصلبوا عودهم وألا يكفوا عن العمل".

* وفى آخر ساعة ١٩٦١/٧/٥ يجيب العقاد على أسئلة نختار منها:

* ألم يحدث جديد فى الخلاف الحادث بين نظرية دارون والمذاهب الدينية؟

- إن دارون نفسه لم يقل إن الإنسان أصله قرد. فهو لم يحدد أى نوع من الأنواع يرجع إليه أصل الإنسان و لم ينكر أحد دور الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان. وإذا كانت الخلية الأولى التى أحاطتها ظروف معينة من الضغط والحرارة وفتحت عنها هذه المخلوقات.. إذا كانت هذه الخلية قد خلقتها الطبيعة، فلماذا لا تكرر الطبيعة هذه المعجزة فى أي مكان آخر على سطح الأرض تتوافر فيه مثل هذه الظروف.. ولماذا لم تنجح التجارب الكثيرة فى المعمل "المصنع" هذه الخلية؟.. كل هذا دليل على أن وراء كل ذلك خالقا عظيما.

- ولكن قصة آدم والجنة والحية تختلف عن قصة دارون.

- لم يحدد أحد مكان الجنة.. المفروض ان كل مكان فيه زرع وشجر وطيور وحيوانات يمكن أن يطلق عليه اسم جنة. إذن فلا يوجد تعارض بين النظرية وبين الأديان.

- المفسرون هم الذين أوجدوا هذا التعارض.

- لماذا لم تستكمل تعليمك؟

- أبدأ.. ظروف عادية وعائلية جعلتنى أترك المدرسة وألتحق بالوظيفة.

- ولماذا لم تتزوج؟

- كأي إنسان مشغول فاته سن الزواج.

- إذن لم يكن امتناعك عن كراهية للمرأة؟

- آه لو يعلم الناس الصداقة التى بينى وبينها!

إذن فما هو سر العداء التقليدى بينك وبينها؟

- أبدا.. ليس هناك عداء. المسألة أننى أضعها فى مكانها حسب فهمى لها.. على ضوء إمكانياتها الطبيعية والنفسية.

- والآن ما هو سر التناقض المستمر الذى نراه فى تصرفات المرأة؟

- لابد من التناقض فى طبيعة الأنثى.. وهى لا صلة لها فى هذا.. وليس التناقض من دهاء المرأة وتدبيرها وخداعها، فهى مخدوعة به قبل أن تخدع سواها.. وهى فريسة له لا تملك ما تريد، فالمرأة من جهة عضو فى المجتمع، وهى هنا زوجة أو بنت أو أخت أو صاحبة عمل، ويحكمها العرف والشريعة.

ومن جهة أخرى هى "أنثى" لها تركيبها الحيوى الذى يسعى وراء الارتباط بمخلوق آخر لا يتم وجودها بغيره.. ومن جهة ثالثة هى أم تحب أبناءها بالغريزة ويجتمع عليها هذا كله فلا مفر لها من أن تتناقض فشعورها بفرديتها يدفعها للاستقلال.. وشعورها الأنثوى يرغبها فى الانضواء تحت رجل تهواه.. ثم يبرز لها المجتمع والعرف فيقودها إلى المال والجاه. وهى تنقاد إلى الفتوة والجمال، ثم لا يلبث حنان الأمومة أن يربطها بمكان لا تود البقاء فيه.. وهكذا.. فلابد أن تتناقض، ولكن لمذا تخالف المرأة نفس الشخص الذى كانت تطيعه طاعة عمياء؟!..

- لأن الطاعة عند المرأة وسيلة من وسائل الإغواء والإغراء والولع بالإغراء، والإغواء عندها أخو الولع بالمخالفة والعصيان.. كلاهما خصلة من خصال الأنوثة الخالدة.

* ولماذا تولع المرأة بالممنوعات؟

- تولع بالممنوعات لأنها تتدلل ولأنها تجهل وتحب أن تستطلع ولأنها ضعيفة الإرادة لا تطيق الصبر على محنة الغواية والامتناع، وكل هذا يعبر عن خصلة أخرى من ورائها.. خصلة الضعف الأصيل..

*** أيهما المصدر الحقيقى للأخلاق.. الرجل أم المرأة؟**

المرأة لم تكن مصدرا لأى قيمة خلقية، فليس هناك ألصق بخلق المرأة من الحياء والحنان والنظافة.. ومع ذلك فالرجل أكثر منها حنانا بدليل أنها لا تهتم بستر عورتها عندما تستحم مع زميلاتها فى الحمام. وهو يفعل.. وهو أكثر حنانا بدليل أنه لا يقسو

على أطفال زوجته من رجل آخر.. وهى لا تطيق أن ترى أطفال زوجها من امرأة أخرى..

والنظافة ليست من خصائص المرأة إلا لأنها وسيلة لإغراء الرجل. فالنظافة لسيت طبيعة فطرية فيها. هذه هي الخلائق الثلاث المشهورة عن المرأة.. وما دون ذلك فقد كان الرجل مصدرا لكل القيم الخلقية.. والمرأة تتقبل هذه القيم لمجرد أنها شئ يرضى الرجل..

ويؤكد العقاد ذلك قائلا:

إذا سقطت دولة من الدول وقهرتها دولة أخرى سترى أسرابا من النساء يجهرن بمصاحبة الجنود الفاتحين ولا يكرههن أن هؤلاء قاتلوا الإخوة والأزواج والآباء.. فالخضوع للقهر والغلبة ألصق بطبيعة الأنثى من كل هذه القرابات والآداب.

* ولكن طبيعة الخضوع هذه تجعلها فى بعض الأحيان فى منتهى الإخلاص لمن تحب.. أليس هذا من الأخلاق؟

- صحيح.. المرأة وفيّة.. صادقة ولكنها وفيّة للحياة.. لا لهذا الرجل ولا لذاك.. صادقة فى الحب لا لإرضاء أهواء من تحب. ولو أمعنا النظر لعرفنا أنها تخون نفسها كما تخون الرجال فى سبيل الأمانة العامة للحياة. وتكذب على نفسها كما تكذب على محبيها فى صيانة عهد الحب، فهى وفيّة بالفطرة رضيت أم لم ترضَ.. صادقة بالإلهام حيث أرادت وحيث لا تريد..

* إنك لم تترك أى شئ جميل فى المرأة؟!

- بل إن المراة تتفوق على الرجل فى أسمى فضائل الإنسان.

* ماهى هذه الفضيلة يا ترى؟

التضحية.. وهى فضيلة لا يقدم عليها المرء كل يوم ولا يقدم، ولكنها تكون أقوى إذا جاءت من وحى الفطرة، ومن ثم كانت المرأة أقرب من الرجل إلى التضحية لأنها تستمد تضحيتها من غرائز الأمومة وتموت فى سبيل الذرية ولا تسهل التضحية على الرجل بهذه السهولة إلا إذا ارتقى فيه وحى الضمير إلى مرتبة الدوافع الفطرية، وتلك

مرتبة يعز بلوغها على أبناء آدم فلا تزال معدودة فيهم من فضائل الأنبياء وأشباه الأنبياء.

* وفى مجلة القوات المسلحة ١٩٦١/١٠/١ يجيب العقاد على سؤال: هل ترى أن أزمة برلين قد تتضخم فى الأيام القليلة القادمة لدرجة أنها تكون السبب فى إشعال نار الحرب المدمرة؟

- لا.. لن تتسبب أزمة برلين فى إشعال نار الحرب العالمية المنتظرة. وليس هناك خطر كبير لحرب عالمية جديدة.. إذا وقعت الحرب فستكون حربا محدودة يمكن الاتفاق فيها وأعتقد أن ألمانيا هى التى ستستفيد من هذه الأزمة.. فسوف تتحد ألمانيا. ولكن على نظام جديد غير نظام الامبراطورية.. وغيرنظام هتلر.. وهو ليس اتحادًا شيوعى المذهب لأن الألمان لا يحبون الشيوعية. ومن الخطأ أن نحسب أن فى ألمانيا شيوعية.. كل ما هنالك حكومة ميالة للشيوعية. أما الشعب فلا.

أما عن الأسباب التى أراها كافية لعدم إشعال حرب عالمية تهلك البشرية وتتسبب فى كثير من الكوارث، فأرى منها أن خطر الحرب على الطرفين واحد.. ولا شك أن كل طرف يحذر الحرب وويلات الحرب.. والانتصار فى الحرب الآن ليس كالانتصار فى حروب الماضى.

الأنتصار فى الماضى كان يبغى احتلال البلاد لاستغلال هذه البلاد والاتجار فى خيراتها ومنتجاتها والاستفادة منها.. أما احتلال أى بلد الآن فمعناه الصرف عليه وإغرافه بالمعونات المالية والعسكرية.

* هل يفنى العالم.. وهل من الممكن أن تفنيه الأسلحة الذرية والنووية؟

- وبلا... أجاب العقاد مرة أخرى على هذا السؤال وقال: عندنا مثل بسيط أسهل من الأسلحة النووية، وهى الأسلحة الميكروبية، وهى فى نظرى أخطر من الأسلحة النووية. وتستطيع أى دولة أن تستخدمها.. ورغم ذلك فقد مضت قبل الآن هذه الأسلحة واضطر الإنسان المحافظة على جنسه أن يخضع لهذا الإضرار.. وهذا ما سيحصل فى الأسلحة النووية تماما.

* وفى مجلة العمل التونسية ١٩٦٢/٧/٨ يجيب العقاد على سؤال: ماذا تقولون عن كتابة القصة باللغة العامية؟

– إذا كان غرض كتابتها لجمهور خاص من القراء فمؤلفها وشأنه كذلك. ولكن ينبغى أن يكون قد علم سلفا أنه لا يكتب لجميع البلاد العربية التى تختلف لهجاتها العامية. كما أنه لا يكتب للخلود أو ليقرأ فى أزمنة متعددة، لأن اللهجة العامية لا تثبت زمنا طويلا فى أمة واحدة فضلا عن عدة أمم، وهذا عدا ما هو معلوم من أن اللهجة العامية لا تتسع لتصوير المعانى النفسية الرفيعة ولا للتحليق مع الخيال الفنى البديع، فهى على العموم فى مستوى معيشة السوق أو معيشة البيت اليومية.

* وكيف ينبغى تبسيط اللغة العربية؟

– إن اللغة العربية أصلح لغة لكتابة جميع اللغات. لأنه قد كتبت بها فعلا لغات من الأسرة الهندية والجرمانية.. ولغات من الأسرة الطورانية ولغات من الأسرة السامية ولا تجد لغة أخرى يتأتى أن تكتب بها جميع هذه اللغات كما تأتى ذلك باللغة العربية.

* وفى الأخبار ١٩٦٢/٧/٢٠ يرد العقاد على سؤال: هل ما تزال فى قلبك نبضات حب بعد بلوغك الثالثة والسبعين؟ قائلا: علاقتى بالحب فى الثالثة والسبعين كعلاقتى به فى الثالثة والعشرين، لأنه لا يتغير مع الإنسان إذا كان شعوره بالحب وشعوره بلذة الاتصال بين نفس ونفس ووجدان ووجدان من طبائع الحياة التى تتغير مع الزمن، وكل ما يتغير فى الإنسان مع الشيخوخة هو زوال الانخداع بظواهر الأشياء. فإن الشيخوخة لا تطلب من النفس الإنسانية أكثر مما تستطيع من الوفاء وتبادل المحبة. ولهذا يقل اندفاعه إلى رغباته كما يقل ألمه لفقدان الوفاء والولاء علما منه بحدود طبيعة الإنسان.

* وأين هى المرأة التى تقبل أن تقع فى حب ابن الثالثة والسبعين؟!

ورنت ضحكة قوية قبل أن يشير بيديه إلى ابن أخيه عامر ويقول له:

قوله عن التليفونات.. والمعجبات وكيف تعتذر لهن بالنيابة عن.. وكيف يطاردنني..!

ومضى يقول:

المرأة يشرفها أن تعلم أنها استحقت إعجاب رجل له خبرته ورأيه ومكانته فى كل بيئة سواء كانت بيئة نساء أم رجال..

المرأة حتى تشعر بتجارب العاطفة يسعدها هذا الرجل أكثر من آلاف.

* وفى المصور ١٩٦٣/٧/٤ يجيب العقاد على سؤال: لماذا لم تكتب ملخصا لفلسفتك فى الحياة كما فعل سومرست موم قائلا: "الحقيقة أن كتابى" "فى بيتى" هو شئ من هذا لولا أن كتابى هذا يلخص مكانى فى البيت. والكتب التى حولى.. والمصنع الذى أعمل فيه.

أما تلخيص فلسفتى فى الحياة فقد جاءت فى كل كتبى.. فأنا ألفت كتبى على هيئة ملخصات.. ثم إننى لم أقل آخر كلمة بعد.. وأتمنى أن أظل أكتب مادمت قادراً.

* وهذا هو الذى يجعل الحكم على الأدباء صعبا لأنهم لم يقولوا كلمتهم بعد؟!

- إذا قصدت أننى بالقياس إلى مثلى العليا لم أقل شيئا، فأنا مثلا لم أقل إلا القليل جدا.. ولكن من الظلم أن تقيس إنسانا بمثله العليا.. ولكن هناك من يرون أننى مثلهم الأعلى فهؤلاء فى استطاعتهم أن يقولوا كلمتهم فيما كتبت.

* وكل من يقرأ لك يلاحظ أن الكثير جدا من آرائك التى ظهرت فى كتبك أخيرا قد تنبهت لها من ثلاثين ومن أربعين سنة.. فهل معنى ذلك أنك تنبهت إليها فى شئ مبكر ثم تمسكت بها بعد ذلك. وجاءت التجربة العقلية والحيوية موضحة أو مؤيدة لها؟

- لم أجد عند الذى اهتديت إليه من وقت طويل. وإنما حدث لى ما يحدث لأى شاب فتكوينه الجسمى يتم فى سن العشرين كل عظامه وأعضائه تكمل.. وبعد ذلك يخس أو ينمى يضعف أو يقوى - يأخذ الفيتامينات أو الحقن المقوية.. لكن

إذا رايت هذا الشاب فى الخمسين أو الستين، فإنك تلاحظ نفس البنيان الذى رأيته فى العشرين.

* كان لابد أن تكون كاتبا.

* كل ظروفى وطبيعتى تؤهلنى لأن أكون كاتبا.

* أنت تستعمل كثيرا "كان لابد".. فالذى يقرأ كتابك "محمد" مثلا يجدك تقول: كان لابد أن تقوم هذه الثورة الدينية الكبرى فى الجزيرة العربية، وكان لابد أن تكون فى قبيلة قريش وكان لابد أن يكون الرسول هو القائم بها.. فهل معنى ذلك أنك تفسر التاريخ تفسيرا حتميا!؟

– طبعا – هناك قانون. هناك نظام، هناك عقل وراء كل شئ. فالحياة إيجابية وليست سلبية فالسلبية عدم. وتاريخ الإنسانية هو تاريخ بطولى.. تاريخ عظماء. والعظيم اسمه عظيم بمقدار ما يعمل لتوحيد الإنسانية.. وهذا أيضا هو مقياس الأدب الصحيح.. فالأدب الذى يعبر عن شخصية بعيدة عن الحياة أدب لا قيمة له. فإذا لم تكن هذه الشخصية ممتازة ولها رسالة تؤديها ولا يستطيع غيرها أن يؤديها فلا فائدة منها.

* وفى الأخبار يجيب الأستاذ العقاد على سؤال هام وهو: مَنْ هم الأدباء العرب الذين ترشحهم لجائزة نوبل؟

قائلا: أنا لا أريد أن أحدد أسماء.. هذا شئ لا أحب أن أتحدث فيه. ولكن عندما أذيع فى العام الماضى (عام ١٩٦١) أن جائزة نوبل كانت من نصيب الكاتب الأمريكى (جون شتاينبك) تساءلت لماذا لم يقع الاختيار على نجيب محفوظ.

إن شتاينبك لا يزيد قدرا عنه فكلاهما قصصى. وشتاينبك يكتب عن الأزقة والحوارى والشعب، وأبطال قصصه كلهم واقعيون أرضيون تتساوى عنايته بهم على اختلاف الطبقات، وهذا هو الموضوع الذى يكتب فيه نجيب محفوظ. فهو يضارع شتاينبك وقد يفوقه فى تصوير شخصياته من أولاد البلد السذج العصريين، ولذلك فهو أحق منه بالجائزة.

وعلى أى حال.. خلينا فى الموضوع.. لو سألتنى عمن أرشحه لجائزة نوبل فى الأدب والفلسفة ساقول لك: انا.. لماذا أرشح نفسى.. أنا الوحيد الذى استحقها، ولكنى أشك فى مجرد وجود رغبة عند أعضاء لجنة جائزة نوبل، ومعظمهم يهود - لتقدير كاتب عربى اشتهر بحملاته على الصهيونية.

وغيرها من الأحاديث التى أدلى بها الأستاذ العقاد فى الصحف والمجلات، فليست هذه الأحاديث التى سجلتها الصفحات السابقة إلا على سبيل المثال لا الحصر. هذه الأحاديث تؤكد أن أحاديث العقاد لا تقل عن أعماله الأخرى.. ففيها مواقفه التى لا تتغير وفيها فكره الموسوعى.

من المعروف أن الحديث الإذاعى يأتى من حاصل جميع لغة يومية عادية من تلك التى يستمع إليها الناس كل يوم والتى تنساب إلى أذن المستمع فى إيقاع مألوف لديه. مضافا إلى هذه اللغة اليومية قدرة بالغة على شد الانتباه والإمساك بالمستمع.. وهذه القدرة الفائقة تأتى أولا من حيث إن هذه اللغة مألوفة جدا، ولكنها فى الوقت نفسه مختلفة أيضا عما تعود سماعه.

ويمكن القول بأن الدعائم التى يقوم عليها الحديث الإذاعى كثيرة فى مقدمتها أربع:

أولا: البساطة.

ثانيا: التناول المباشر للأفكار.

ثالثا: السّرد المتدفق المتماسك.

رابعا: الكلمات التى تفهم.

مضافا إلى هذه الدعائم الأربع عناصر كثيرة لعل فى مقدمتها روح الملاعبة وروح التهكم، والأهم الحضور والعنصر الأخير "الحضور" يعنى اللماحية الفائقة. وهى إحدى الميزات الشخصية بالنسبة للمتعامل مع الجماهير. فالمتحدث من فوق المنصة مثلا. تبدو مظاهر حضوره ولماحيته فى نظرة أو إيماءة أو ابتسامة يعطى بها الجمهور عديداً من المعانى. أما من خلال إذاعة حيث يعتمد المتحدث اعتمادا كليا على الكلمات ليس غير. فإن الأمر يختلف والمهمة تزداد صعوبة. ومظاهر اللماحية من ثم يجب أن تختار بعناية، وأن توضع بدقة ورقة.

والعقاد من الجيل الذى يعرف جيدا كيف يستخدم الميكرفون فهو ومعه الدكتور

طه حسين، الميكرفون يتحول أمامهما إلى تلميذ مهمته أن يستمع إلى أستاذ ومن ثم فقد أصبح لهما مستمعون ينتظرون أحاديثهما. بالضبط كما ينتظرون روائع النغم أو أحلى الأغانى وأطيبها لأكبر المطربين.

ولا شك أن صوت العقاد بما حباه الله من ميزات عديدة كان من الأصوات المميزة جدا تلك التى تخطئها الأذن، وحتى الآن إذا حدث وأذيع للعقاد حديث إذاعى مسجل.. فإنه يشد انتباه المستمع ويخطف اهتمامه ليتوقف لحظات بعدها ويعرف أنه منصت لعملاق الفكر العربى.

وقد يتساءل القارئ عن السبب؟ والإجابة تؤكد منذ البداية اهتمام هذا الجيل بما يقول وبما يتحدث واحترامهم لعقلية القارئ أو المستمع وليس الاستخفاف بها، ولذلك نلمح فى أحاديث العقاد الإذاعية هذه الدعائم التى يقوم عليها أى حديث جيد.. نلمح بساطة التعبير. فالجملة عنده تقصر إذا تطلب الأمر. وتكون دالة فى نفس الوقت. وتطول إذا تطلب الأمر. ولا تكون غامضة أو فضفاضة. والفكرة عنده مباشرة غير ملفوفة برداء من الغموض يحجبها عن الفهم والإدراك. والسرد متدفق فى جمل متماسكة تعطى المعانى رونقها، ولا عجب فالعقاد الناثر هو من قبل شاعر. يستطيع أن يعطى أجمل المعانى فى أعذب الألفاظ، وهذا أيضا يجعله يقدم تلك الكلمات التى تفهم.. والتى تستطيع أن توصل المعانى بأقرب طريق. فهو وإن كان لديه قاموس من الكلمات القديمة والحديثة إلا أنه يختار من هذا القاموس ما يسهل على أذن المستمع ويشد انتباهه.

لذلك لم يكن غريبا أن نجد للعقاد ولطه حسين ولأحمد أمين جمهورا من المستمعين ينتظرون أحاديثهم الإذاعية ويطربون لها طربهم لأحلى ما تسمعه الأذن وتتمناه. فالحديث الذى لا تزيد مدته عن الربع ساعة مثلا.. يتضمن العديد من الأفكار ما قد يصلح زادا ثقافيا كذلك الذى يفعله كتاب أو أكثر.

وقد يصعب على المرء الذى يبحث عن أحاديث العقاد الإذاعية حصرها لكثرتها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لضياعها مع تلك الأعمال الإذاعية العظيمة التى

أصابتها يد الإهمال. ولكن فى الإمكان تقديم بعض هذه الأحاديث على سبيل المثال لا الحصر. لنرى إلى أى مدى كان العقاد رحمه الله يحترم مستمعيه. وجزء من هذه الأحاديث الإذاعية يضمها كتاب "على الأثير" الذى جمعت مادته فى حياة العقاد، وقدمها بكلمة قائلا: كان يقال كلام ذاهب فى الهواء ليقال إنه كلام لا يبلغ الآذان، وأنه من باب أولى لا يسلك سبيله إلى الأذهان.

ولكن الكلام الذى تتلقاه الأذهان عن طريق الهواء فى زماننا هذا اكثر وأسير من كلام يتلقاه الناس على صفحة قرطاس.

فمن أودع كلامه الهواء فى أمان إلا من الزمان فعنده الحكم وحده. فى مصير الوديعة فى حفظ أو نسيان، وقد أودعنا الهواء هذه الكلمات فى وقت من الأوقات وبقى أن نودعها فى أيدى الزمان ليقضى لها بما شاء على هوى القراء.

ولعلها لا تضيع بين الهوى والهواء..".

بهذه الكلمات يقدم لنا الأستاذ العقاد أحاديثه الإذاعية التى جمع بعضا منها فى كتاب "على الأثير".

ولا شك أن قيمة الحديث الإذاعى الذى كان يقدمه العقاد للميكرفون تبدو من أنه تحول إلى كتاب ومرجع لكثير من الأبحاث، وهذا فى حد ذاته أصدق شاهد وخير دليل على أهمية أحاديث العقاد وجديتها.

ولنطف مع العقاد على الأثير فى أحاديثه الإذاعية.

ها هو يحدثنا عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده حديثا مفيدا.. لا أشك أنه كان أساس الفكرة عنده لكتابة عمل عظيم عن الشيخ الإمام عرفناه فيما بعد بكتاب "عبقرى الإصلاح الشيخ محمد عبده"، وما يهمنا فى هذا الحديث عن الشيخ الإمام هو ذلك السؤال الذى طرحه العقاد وأجاب عليه وهو: أين مكان الأستاذ الإمام بين زميليه العظيمين اللذين يذكران معه كلما ذكر وهما: "جمال الدين الأفغانى" و "سعد زغلول"؟ ويجيب الأستاذ العقاد على السؤال قائلا:

الرأى عندنا أن صفة المصلح العظيم تضع الأستاذ الإمام فى موضعه الصحيح. بين زميليه وأحدهما أستاذه والثانى إمام مريديه.

فهؤلاء الأعلام الثلاثة على اتفاقهم فى بعض الخصال يختلفون فى أساس الاستعداد.
فجمال الدين الأفغانى هو الداعى العظيم.

وسعد زغلول هو الزعيم العظيم.

ومحمد عبده هو المصلح العظيم.

ولكل مهمة من هذه المهام الكبرى كفاءتها الخاصة التى لا تغنى فيها كفاءة غيرها.

فالدعوة صيحة وحركة وعمل سريع وتوهج وقدرة على التنبيه وقرع الأسماع ولفت الأنظار، وهى لذلك أشبه بجمال الدين الأفغانى.

والزعامة قيادة وتوجيه وقدرة على تبادل الصلة بين الزعيم والشعب، وعلى توجيه الشعب فى خدمة قضية، أو إنشاء نظام من نظم الحكومة، وهى لذلك أشبه بسعد زغلول.

والإصلاح ثقة وجلد ومزيج من روح الوعظ وروح التعليم وإعراض عن الشئون الدنيوية وإنكار للذات فى هذه الشئون، وهو أى الإصلاح أشبه بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

وينهى العقاد حديثه عن الشيخ محمد عبده قائلا: فبينهم - الأفغانى وسعد زغلول والشيخ محمد عبده - من الاختلاف فى الاستعداد ما نرى من الفارق البعيد. ولكنهم قد اتفقوا فى خدمة الشرق بجميع ما رزقوا من ملكات متقاربات أو متباعدات.

وعندما يحدثنا عن الشيخ جمال الدين الأفغانى. يقدمه لنا تقدمة لا تقل فى مضمونها عن تقدمته لهذا الرجل العظيم فى كتاب. واستمع إلى العقاد حين يحدثك فى الإذاعة قائلا: موضوع حديثنا الليلة - رجل تتلخص عظمته كلها فى كلمة أو كلمتين: الجاذبية أو من شاء فليسمها المغناطيسية الشخصية.

ذلك الرجل هو السيد جمال الدين الأفغانى. معلم المعلمين وطليعة المعلمين فى الشرق الحديث وباعث نهضته الحاضرة فى كثير من الأقطار.

فلولا المغناطيسية الشخصية ما كان أثر جمال الدين بالغا. أشده فى فارس ومصر والهند وتركيا دون غيرها من البلدان الشرقية، لأنها هى البلدان التى تماشى فيها بشخصه واتصل فيها بتلاميذه.

ولولا المغناطيسية الشخصية ما كانت قوة جمال الدين بادية كلها فيمن خلفه من المريدين لا فيما خلفه من الكتب والصفات.

ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان جمال الدين قادرا على أن يظهر فى البلد الذى يترل به بعد أسابيع قليلة من وصوله إليه، مع ما نعلم من العقبات الجسام التى تحول بين الرجل وبين الظهور فى بلد غريب.

ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان الملوك والأمراء يقبلون من جمال الدين أن يخاطبهم فى قصورهم مخاطبة الند للند والزميل للزميل. وما عرف عن جمال الدين قط أنه خاطب.. خليفة آل عثمان ولا وريث عرش القياصرة ولا شاه الشواهين ولا أمير وادى النيل إلا كما يتخاطب الأنداد والزملاء.

ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان جمال الدين مستطيعا أن يجوب الآفاق بغير مال. لأنه كان إذا احتاج إلى المال فى رحلاته الكثيرة أمر بعض مريديه من الموسرين أن يحملوا إليه كفايته منه فلا يعصى له أمر ولا ترد له رغبة.

هذه المغناطيسية الشخصية كانت هى جمال الدين الكبرى، وكان هو قوامها الأكبر ثقة بالنفس لا تحد وإيمانا بالحق لا يتزعزع.

وفى حلقة إذاعية يحدثنا العقاد عن الكذب وعن نسبته إلى شهر إبريل.. واعتبار هذا الشهر الذى يبدأ فيه الربيع وازدهار موسم الحب والحياة والجمال شهرا للكذب. ويرى العقاد أن هذا التصور ليس هناك ما يبرره فى التاريخ اللهم إلا إذا رجعنا إلى رومة القديمة أو الهند القديمة.

وينتهى إلى تعريف للكذب نفسه حيث يقول: إنه باب من أبواب الخروج من

الواقع يطرقه الناس للمتعة الفنية والراحة النفسية قبل أن يطرقوه لضرورات المصلحة وبواعث الرغبة والرهبة. ولولا أنه يفتح للناس أحيانا بابا يفارقون منه واقعهم الذى لا يستريحون إليه، لما كانت له هذه الغواية فى أول إبريل ولا فى سائر الأيام والسنين.

ويشير العقاد فى حديثه الإذاعى هذا إلى أن أخطر الأكاذيب فى الدنيا ظن الناس أن الكذب لا ينجم بينهم إلا لضرورة من ضروروات المنفعة دون غيرها. وهى ضرورة الخوف من الخطر والعقاب وضرورة الرغبة فى الثواب أو الخير والثناء، فإن الناس يكذبون حين لا يخافون ولا يرغبون أو يكذبون كراهية للواقع وحبا للخروج منه. سواء من باب المقال أو من باب الأعمال.

ويستمر فى حديثه الممتع حول الكذب وصنوفه.

وفى حديث إذاعى يودع العقاد سنة ويستقبل سنة أخرى يودع سنة ١٩٤٤ ليستقبل سنة ١٩٤٥ ويقول:

عن السنة الماضية بأنها حملت من الحوادث والأطوار فوق ما تطيقه سنة واحدة، بل فوق ما تطيقه سنوات.

فقد شهدت مصارع ثلاث من الدول الكبرى، وشهدت محاولات الأمم على متن الكرة الأرضية بأسرها فى سبيل تقرير السلام، وشهدت تجربة لم يسبق لها مثيل من تجارب الإنسانية لتنظيم الهيئة العالمية التى تقيم علاقات الدول على أساس الإنصاف، ورعاية الأخلاق وتفضيل التفاهم بالمودة على التغالب بالسلاح، وشهدت مساعى الامم الجسام فى معاملاتها الجديدة سواء فى التجارة أو السياسة أو الثقافة أو تبادل المعونة والضمان، وشهدت فى كثير من الأمم انقلابا سلميا أو دمويا فى شكل الحكومة ومقاصد الرغبة والرهبة، وشهدت أخطر اكتشاف عرفه البشر منذ مئات السنين وهو اكتشاف القنبلة الذرية.

ويقول العقاد إن هذه كلها رؤوس مسائل عامة تطوى تحتها من المسائل الخاصة أو المسائل المحلية ما يضيق عنه الحصر والإحصاء ولو بإشارة الإجمال.

وفى حديث إذاعى يبدؤه العقاد قائلا: أتحدث إلى حضراتكم عن طفولة الإنسانية ولا أعنى بطفولة الإنسانية تلك السّنّ المبكرة التى صورنا بها جميعا فى مطلع حياتنا ولا بأطفال الإنسانية تلك المخلوقات الصغيرة التى نراها كل يوم فى بيوتنا أو حول بيوتنا.

إنما أعنى تلك الطفولة التى تلازم الإنسان إلى ما بعد الكهولة، والشيخوخة، بل تلازمه حتى يفارق الحياة وهى طفولة الروح أو طفولة الأخلاق.

ويستطرد العقاد فى حديثه هذا حول طفولة الأخلاق، منبها إلى أنه لا يستغنى أيضا فى بحثه عن طفولة السن فيبحثه هو أيضا. ويختم هذا الحديث بالقول وما دام الإنسان يريد الخير فهو ينشده ويبذل فيه ثمنه وإن غلا، وهو إذن رجل الروح والأخلاق.

وما دام الإنسان يراد على الخير فهو ينشده إلا إذا عرف الجزاء عليه. وهو إذن طفل الروح والأخلاق وإن جاوز السبعين أو الثمانين وخير ما نرجوه لهذه الأمة أن تحمل تكاليف الرجولة بغير نظر إلى جزاء، فذلك فى النهاية هو أوفى الجزاء.

ويحدثنا العقاد عن المال حديثا إذاعيا ممتعا ويبين أن التهافت على المال فى هذه الأيام جنون. لأن الجنون هو الذى يخرج الإنسان عن طوره ويضل العقل عن صوابه، ويدفعه إلى الإجرام الذى لا يستبيحه وهو مالك لرشده، محافظ على اتزانه مقدر للتبعة التى عليه، والعاقبة التى تلقاه، وهذا هو الجنون الذى يتمثل فى تهافت المصابين به على طلب المال غير مبالين أن يطلبوه من طريق الشر أو من طريق الرذيلة أو من طريق النذالة والسقوط. فلم نسمع فى غير هذه الأيام أن رجلا ينتمى إلى طائفة شريفة مجعولة لصيانة الشرف والنظام، يقتل زميليه بعد تدبير طويل واحتيال خبيث، ثم يشرع فى إحراق جثتيهما لينجو بفعلته، ويأمن من عاقبة عمله. وإنه ليصنع كل ذلك ويعد على صنيعه ويرصد عليه ضميره ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم. طمعا فى مبلغ من المال لا يحمل اللص المحترف فى غير هذه الأيام على مثل هذا الصنيع.

وعن الاتجاهات الحديثة فى الأدب يتحدث العقاد فى الإذاعة فيقول: شاعت فى الأدب العربى اتجاهات حديثة منذ اوائل القرن الحاضر لم تكن شائعة فى عصوره الماضية ولكنها على هذا لم تزل على اتصال بعناصر الأدب من أقدم عصوره.

ويستطرد العقاد فى حديثه هذا فيقول: وإذا أردنا أن نوجز القول فى وصف هذه الاتجاهات الحديثة فى الأدب مجملة نقول: إننا نعبر الآن فترة البداية فى الاستقلال والثقة بالنفس، وإن هذا الاستقلال يتجلى حينا فى التحرر من القديم، ويتجلى حينا آخر فى التحرر من الجديد.

وفى حديث آخر للعقاد حول الثقافة ومعناها قال: إن خلاصة ما أصف به الثقافة أنها هى ترويض الوظائف الإنسانية على استيفاء نصيبها فى الحياة الفضلى. وما أكثر الوظائف الإنسانية وما أعظم الأنصبة فى الحياة، وما أعجب الوسائل التى تتوسل بها على استيفاء كل نصيب.

والثقافة هى الصناعة التى نستوفى بها ثمرات هذه المزرعة الوحيدة التى لا نملك مزرعة غيرها، ونعنى بها مزرعة الحياة.

هى الصناعة التى تعلمنا كيف نزرع حياتنا جميعا، وكيف نختار لها أحسن ثمارها. وكيف نستخرج منها أوفى بركاتها.. أو هى الصناعة التى نستحيى بها الحياة.

وعلى هذا يقسم العقاد مطالب الثقافة إلى ثلاثة عناوين، هى: مطالب الحس، ومطالب الحركة، ومطالب التفكير، ويحدثنا عن هذه المطالب حديثا ممتعا.

وينتهى إلى القول: بأن الثقافة هى استحياء عناصر الحياة جميعا ولكننا نستحييها بالمجهود الذى يلائمها فلا نزيد فى بذله عن القصد النافع والقدر الصالح. ولا ننسى الفوارق بين الملكات فى تقدير هذا المجهود.

ويستهل العقاد حديثه عن التضحية فى يوم الأضحى بالقول إذا سألنا الله أن يجعلنا أهلا للتضحية، فإنما نسأله أن يجعلنا أهلا لكل خلق كريم وكل عقيدة صالحة، لأن التضحية هى قوام جميع الأخلاق وعماد جميع العقائد، وألصق الفرائض المختلفة بطبيعة الأديان.

فما الكرم فى الحقيقة؟ إنه التضحية ببعض الحياة أو بكل الحياة.

وما الصدق فى الحقيقة؟ إنه التضحية بمنافع الكذب فى سبيل شرف الضمير.

وما حرية الرأى فى الحقيقة؟ إنها التضحية بالراحة وبالوفاق مع الناس فى سبيل المصلحة العامة أو سبيل الأمانة العامة.

ويذهب العقاد إلى أنه ليس فى الأخلاق المحمودة خلق واحد يخلو من التضحية، وليس للفضائل العالية معنى مفهومًا بغير التضحية، وليس من ذوى الشأن فى دنياه إنسان لا يستطيع التضحية فى كل مرحلة من مراحل حياته، وكل علاقة من علاقاته بأبناء قومه وأبناء نوعه.

وفى حديثه عن الصوم يقول: "لقد تعددت حكم الصوم منها ما يقول إنه تعليم للأغنياء ليشعروا بحاجة الفقراء، وحكمته أيضا أنه تكفير عن الخطايا لعقاب الأجساد التى تعانى ما تعانيه من الجوع والظمأ، وعند بعضهم أنه تطهير للجسم وتنزيه عن الحاجات الحيوانية إلى الطعام والشراب، وأحسن الحكم موقعا من العقل والنفس أن الصوم تدريب للعزيمة والخلق وتغليب لقوة الروح. وهو شرف إنسانى لا يزهد فيه الأغنياء ولا الفقراء.

ثم يذهب العقاد إلى أن الصوم رياضة معقولة ورياضة قوية وليست هى رياضة الأمم التى تعاف الحياة وتزهد فى نصيبها من الدنيا، بل هى رياضة الأمم السيدة المطاعة. لأن الإرادة أول شرط من شروط السيادة، وليس أظهر من قوة الإرادة فى الصوم.

ويحدثنا العقاد عن القنبلة الذرية فى تجربة نفسية، فيتساءل أولا: هل نتفاءل أو نتشاءم؟ وهل نقول إن القنبلة الذرية بداية النهاية؟ أو نقول إن النهاية لا تزال حيث كانت، وإن عوامل العمار لا تزال أرجح من عوامل الدمار.

وبعد ان يجيب على كل هذه التساؤلات يختم حديثه الشيق قائلا: إن تجارب العلم والحرب والسياسة حول القنبلة الذرية تستنفد الجهود وتجمع الحشود وتنهك القادة والجنود، فليس من الإسراف أن نسجل لها تجربة العام من الناحية النفسية، وليس

التفاؤل الذى سجلناه بحمد الله بالذى يتجاوز القدر اللازم على قدر عام او نحو عام.

وعن الشرق بين التقليد والتقاليد يحدثنا العقاد فيقول: لقد سلك الشرق سبيلا وعرا بين المحافظة على التقاليد والنـــزوع إلى التقليد، أو بين التعلق بالموروثات، والتعلق بالمبدعات الحديثة فى العصر الأخير.

وتحت عنوان: "مختارات وذكريات" يحدثنا العقاد فيقول: رأيت أن أجمع بين الموضوعين فى حديث واحد لأجعل الذكريات معرضا للنقد وبيان وجه الخلاف بين النظرة القديمة إلى الشعر والنظرة الحديثة إليه.

أما الذكريات الأدبية فإنى أسوق منها ما يدل على جوانب الاختلاف بين المدرستين. مدرسة الأقدمين ومدرسة المحدثين كما شرحناها فى الكتب والمقالات.

ويحدثنا العقاد عن نهاية صيف فيقول: فى المصيف متسع لكثير من الملاحظات وكثير من المؤاخذات لأنه يأخذ من طبيعة البحار فى كل شئ حتى فى العيوب.

ويقول: ها نحن نودع موسم الصيف، وها نحن نستقبل موسم الأعمال والتكليف. فلا نغلو فى لوم المصطاف إذا استوفى نصيبه من طلاقة الإصرار، ولكننا نرجو أن يستحق الموسم القادم بعمل يشكره له ضميره ويشكره له وطنه.

ويتحدث العقاد عن أزمات الشعوب النفسية حديثا طويلا فيه يفرق بين أزمات الفرد وأزمات الجماعة، ثم يخلص إلى أن النتيجة واحدة على أى حال. وينتهى إلى القول بأن كل أزمة نفسية تعترى الشعوب تأتى من حيرة وتشفى بإيمان. وكل إيمان يقوم على الوهم وحده مخفق فيما يدعو إليه فلابد من الإيمان مما استقر به اليقين فى زمن قديم.

ويرى العقاد فى حديثه عن العيد أن معناه فى الشرق معنى جميل. فإذا انقضى شهر رمضان وجاء عيد الفطر. فالمسلم يحتفل فيه بصفتين من صفات النفس الإنسانية، وهما الإرادة والتغلب على العادات المألوفة. وفى عيد الأضحى يتعلم الإنسان كيف أن الفداء من آداب الروح، وأن خسارة الضحية رجحان فى ميزان الحساب.

ويحدثنا عن التفاؤل والتشاؤم يرى أن الإنسان هو الذى يقرر بأنه يشعر بإحدى الصفتين. وشكواه من التشاؤم تماثل شكواه من التفاؤل حين يفرط فى الإثنين.

ويتحدث فى إذاعة أم درمان بالسودان عام ١٩٤٢ عن عبقرية محمد ﷺ وما قاله فى هذا الحديث أصبح فيما بعد كتابا يعرف بهذا الاسم.

وعن الصوت والشخصية يتحدث العقاد فيقرر بأنه من المحقق أن قوة الصوت أو ضعفه لا ترتبطان بالحنجرة وحدها أو بأجهزة الصوت المحلية فى مجارى التنفس بين الحلق والرئتين. فإن هذه الأجهزة المحلية قد تكون على ضعف ظاهر من الوجهة الصحية، ولكنها تعطيك صوتا قويا يروع السامع وينقل عن شخصيته صورة تنم على القوة والتأثير.

وعلى سؤال كيف تريد الصحافة فى البلاد العربية؟ يجيب العقاد فى حديث إذاعى طويل بأنه يريدها كما يريد البلاد العربية.

إن الصحافة المثلى فى رأى العقاد هى صحافة مستقلة فى آرائها مخلصة فى نصائحها أمينة فى أداء رسالتها، خادمة للثقافة والأخلاق فيما تنشره من موضوعاتها وأخبارها.

ويقرر العقاد فى حديثه الإذاعى عن الحقوق والواجبات بأنه إذا كثرت المطالبة بالحقوق قل العمل بالواجبات، ويفسر ذلك بالقول إن البلد الذى يعمل فيه كل إنسان واجبه لا يضيع فيه حق من الحقوق، ولا تدعو فيه الحاجة إلى المطالبة بها أو الشعور بنقصها.

ويتحدث عن الواجب فى حلقة إذاعية خاصة فيرى أنه مقامات يشد إليها ولا يحصيها، فهناك الواجبات الكبيرة والواجبات الصغيرة، وواجبات تتعلق بها مصلحة الأمة أو أمم العالم، وواجبات لا تتناول إلا مصلحة فرد أو أفراد، وهناك الواجب المعجل والواجب المؤجل، والواجبات الخاصة والواجبات العامة، والواجب المكروه والواجب المحمود.. وهكذا.

ويتحدث عن الإصلاح الاجتماعى والقوانين فيقول إن أكثر ما يقال عن عيوبنا

الاجتماعية، يرمى تارة إلى الإصلاح بالقوانين، وتارة إلى حصر التبعة أو المسئولية فى طائفة من المجتمع المصرى دون طائفة أخرى، وكلا الغرضين تحدث فيها حديثا طويلا وثيقا.

ويتحدثا العقاد عن المفارقات أو القياس مع الفارق الذى يلازمنا طول أيام الحياة من الطفولة إلى الشيخوخة، ونراه فى سرورنا كما نراه فى أحزاننا.. وهكذا.

ويعود إلى الإصلاح الاجتماعى مرة ثانية. ولكن يضيف بدلا من القانون رباط الرقبة فيقول: حديثنا اليوم عن الإصلاح الاجتماعى ورباط الرقبة وينتهى إلى نتيجتين:

الأولى: أن الناس يستسهلون الإصلاح بالمنع والتحريم، ولا يفكرون كثيرا فى الإصلاح بالعمل والإنشاء.

والثانية: أن الهم فى كبار الأمور وصغارها لا يخلو من جانب فكاهة وجانب ابتسام.

ويختم العقاد حديثه هذا الساخر بالقول: "ونعم الموضوع موضوع مبارك يطرفنا بالتسلية إن لم ينفعنا بالموعظة الحسنة والنصيحة الجدية، فلا نخطئ التشبيه إذا قلنا إن مذاهب الإصلاح كورقة النصيب الخيرى إن أصابت فهى ثروة وإن اخطأت فهى إحسان".

تبقى الأحاديث الإذاعية الأخرى للعقاد التى اختارتها مراقبة الشئون الثقافية بوزارة الإرشاد وأصدرتها فى كتاب بعنوان: "مطالعات" فى سلسلة مختارات الإذاعة فقدمت للقارئ أجلّ الخدمات، فلا شك أن قيمة الحديث الإذاعى تزداد حيث يسجل بعد ذلك على الورق.

وفى موضوع "الرسول فى كتب الغرب" يحدثنا العقاد فيبدأ فيما كتبه أحد المؤلفين الغربيين فى القرن الثامن عشر عن النبى ﷺ فى مسرحية بعنوان: "محمد" واصفا ما كتبه بأنه يجمع بين الرياء والجهل بحقيقة الإسلام، وهو نموذج لكتابات القرن الثامن عشر.

وينتقل إلى كاتب آخر هو "توماس كارليل" الذى يعتبره نموذجا صادقا لكتابات القرن التاسع عشر حيث كانت كتابته عن الرسول الكريم متسمة بسمة الإعجاب والإنصاف، لا ينتظر من فيلسوف غير مسلم أن يكتب خيرا منها عن نبى الإسلام.

ويذكر العقاد فى حديثه أنه بحلول القرن العشرين تغيرت النظرة إلى الحضارة الإسلامية عامة وإلى رسول الله خاصة، فمن كتب عن النبى ﷺ علم مقدما أنه مطالب بحكم العصر الذى يعيش فيه. أن يقول شيئا يوافق العلم ولا ينسب إلى التعصب والجهالة، ولهذا وجد من أولئك الكتّاب من يثيره أن يسمع أحدا يعيب النبى، وإن كان ذلك العائب من أبناء القرون الوسطى. ففى إحدى روايات برناردشو: رجل يعيب على النبى أنه راعى إبل فيجيبه صاحبه أن أتباع ذلك النبى قد تعلموا منه درسا غير الذى تعلمته من دينك.

وكذلك يكتب الدكتور بوكيه كتابا عن الأديان يقول فيه عن الرسول الكريم بأنه نشر فى الشرق مثلا أعلى للحكم وللأخلاق الإنسانية أوسع وأنظف وأقوى من أمثلة الدولة البيزنطية. وأن الحكم على شخصية النبى ليتطلب الإنصاف من أولئك الذين ينظرون إليها بعين الغرض. ونفس المنهج يتبعه الفريد غليوم أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة لندن و"بول برنتون" صاحب كتاب "الحقيقة الباطنة" "وادوارد جورج" فى كتاب عن الأديان العظمى "وهنرى بيرين" الذى يرى أن أسباب الانقلاب الأوروبى الفضل فيه لمحمد وأتباعه. وغيرها من الكتب التى تجنبت اللغو الذى شاع فى القرون الماضية فكتبت بطريقة موضوعية.

عن الحالات النفسية بعد منتصف القرن العشرين يحدثنا العقاد فيذكر أن الدراسات النفسية فى أول القرن العشرين كانت بدعة فانتشرت كما تنتشر كل بدعة. فلما ابتدأت الدراسات النفسية فى أوائل هذا القرن قفزت فى طريقها قفزا سريعا، لأنها وجدته خاليا يتسع لكل طارق و لم تلبث أن شملت كل ناحية من نواحى البحث فى التعليم والتربية والتشريع وآداب الاجتماع، ومازالت هذه البدعة تسرى وتستفيض

حتى بلغت أوجها من الشيوع، وخرجت من كونها دراسة فى معاهد العلم والعلاج. إلى لغط فى المجالس والأسواق وعلى كل لسان، وقد ضاعف من شيوعها قبل منتصف القرن أنها امتزجت بالكلام على الشئون الجنسية وعلى الأهواء والعواطف التى تربط الجنسين.

ويذكر العقاد أن مباحث علم النفس أفادت فائدة جليلة، ولكنها جمحت حتى أفلت عنانها من الأيدى القادرة عليه، وخيف بعد ذلك أن تضر وتتلف حيث كانت تصلح وتفيد.

وتحت عنوان: "مؤلفون شرقيون فى لغة غربية" يحدثنا العقاد حديثا إذاعيا فيقول: من قديم الزمن تعود الغربيون أن يقرأوا كتب الشرق وأن يرجعوا إلى المؤلفين الشرقيين فى العصور الماضية على سبيل الاستطلاع أو على سبيل الاستفادة فى الشئون التاريخية.

إلا أننا فى العصر الحاضر بل فى السنتين الأخيرتين أمام ظاهرة جديدة لم تعهد من قبل، وتلك هى اهتمام الغربيين بالاطلاع على مؤلفات للشرقيين من الأحياء يكتبونها باللغات الغربية، وتدور موضوعاتها على شئون حاضرة أو على شئون اجتماعية. ومن هذه الكتب خمسة بالإنجليزية هى على ترتيب حداثتها فى الظهور كما يأتى:

كتاب ألفته فتاة نيجيرية اسمها "فبيان أتايما" عن القصص والمواعظ الشعبية، وكتاب ألفه مدرس تركى اسمه "محمود ماكال" عن قرية من قرى الأناضول فى تركيا، وكتاب ألفه مصرى هو الدكتور حامد عمار" عن قرية مصرية فى إقليم اسوان، وكتاب ألفه سودانى اسمه "مكى عباس" عن القضية السودانية فى عهد الثورة المهدية، وكتاب ألفه جوموكنياتا زعيم "الماوماو" المشهورة فى إفريقيا الشرقية.

وهذه الكتب كتبها مؤلفوها باللغة الإنجليزية ما عدا الكتاب عن القرية التركية فإنه مترجم عن اللغة التركية بعد ظهوره على الأثر.

ويحدثنا العقاد عن الاستعمار والتبشير وكيف يتضاربان فيذهب إلى أن الاثنين

حليفان قديمان يسبق التبشير إلى البلد الشرقى ويتلوه الاستعمار، ويحدث كثيرا أن التبشير يذهب إلى البلد الشرقى بعلم الدولة المستعمرة مزودا بمالها موعودا بحمايتها، مكفولا برعايتها فإذا نجح التبشير ومضى فى طريقه بسلام، فذلك ما يبغيان. وإذا أصيب أحد المبشرين بما يسوءه، فذلك ما يبغيه الاستعمار على الأقل لأنه يتذرع بهذه الإصابة للاحتجاج والمطالبة بحماية الأرواح والحريات. ولا تنتهى المسألة بغير غنيمة سياسية أو اقتصادية تجنبها الدولة على حساب الدين.

إن التبشير والاستعمار حليفان غريبان وصديقان متناقضان. فلا غنى لهما عن النفاق والخداع ولابد لكل نفاق وخداع من يوم ينكشف فيه.

إن التبشير يدعو إلى الدين، والدين المسيحى بين الأديان الكبرى يحض على المحبة والمسالمة، وينهى عن الطمع والكبرياء واحتقار الضعفاء والمساكين، وليس فى الاستعمار غير نقيض هذه الخصال، ليس فيه محبة بل عدوان، وليس فيه نهى عن الطمع والكبرياء، بل هو الطمع والكبرياء سافرين غير مستترين.. وكله احتقار صريح للضعفاء والمساكين.

فأى اختلاف إذن بين نقيضين أبعد من هذا الاختلاف؟

وحول موضوع تضامن الشرق ونهضة إندونيسيا يحدثنا العقاد، فيقول: من خلال رحلة فى كتاب إلى جزر إندونيسيا التى كتبتها الإنجليزية "دوروثى وودمان": "إن تمام الشعور بتضامن الشرق فى نهضته. أن تذكر هنا الأستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغانى وتليمذه رشيد رضا.

جمال الدين الأفغانى يولد فى الأفغان فينتقل بدعوته إلى مصر، ورشيد رضا فى لبنان فتصل رسالته إلى أقاصى المشرق، ويبعث المنار من هنا فيتبعه المنبر هناك، وتتلاقى الجهود فى غاياتها وآمادها على تعدد مصادرها ومنابتها، وهذا هو التضامن الشرقى بأقوى معانيه.

ولقد أثمرت النهضة ثمرتها لأنها وصلت، حتى إلى المرأة الإندونيسية فى خدرها. فجعلتها قوة عاملة فى إصلاح الأسرة وإقامة البيت على دعامة الحرية والكرامة".

ويتساءل العقاد فى حديث إذاعى عن الوطن لمن هو؟ ويجيب قائلا: إن سكان إفريقيا ثلاث طوائف:

أولها: بطبيعة الحال أبناء إفريقية الأصلاء الذين ولدوا فيها، هم وآباؤهم وأسلافهم إلى أزمنة لا يعيها التاريخ.

والطائفة الثانية: هم المهاجرون من القارة الآسيوية وأكثرهم من العرب والهنود وأبناء الجزر الملاوية.

والطائفة الثالثة: هؤلاء الأوروبيون المستعمرون سواء كانوا من أبناء الدول ذوات المستعمرات أو كانوا من الدول التى لا تملك المستعمرات خارج بلادها. وهم قليلون لا يزيد عددهم على المئات، وليس لهم حساب خاص فى هذا المجال.

ويرى العقاد بآن الطائفة الأولى أبناء إفريقيا الأصلاء، والثانية المهاجرين إليها، لا خوف عليهم على الوربى الذى يمثل مشكلة.

وفى نهاية الحديث يجيب على السؤال الذى طرحه فى بدايته: "الوطن الإفريقى لمن هو؟ قائلا: الوطن الإفريقى فى القارة كلها: وطن إفريقى للإفريقيين.

ويحدثنا العقاد عن النازية والشيوعية فيقرر بأنهما مذهبان متناقضان.. كلاهما عدو للآخر وحرب عليه. ولكنهما فى الباطن متقاربان.

كلاهما يعتمد على إثارة الضغينة والبغضاء، ولكن النازية تثير ضغينتها على طائفة فى الداخل أو على الدول المنازعة لها فى الخارج. أما الشيوعية فضغينتها تثار على البرجوازية أو الأمم التى تتعامل برأس المال.

وكلاهما يحاربان العقائد الدينية، ولكن النازية تحاربها لتستبقى سلطان الزعامة على أتباعها ولا تسلم هؤلاء الأتباع إلى زعامة روحية فى غير معسكرها. أما الشيوعية فهى تحارب الدين لأنها تؤمن بالمادة دون سواها.

كلاهما يبطل الحرية الشخصية، ولكن النازية تدعو الفرد إلى الفناء فى قداسة الزعيم أو بنية العنصر القومى والشيوعية تدعو الفرد إلى الفناء فيما تسميه مجتمعا بغير طبقات.

وكلاهما يدعى أنه فلسفة حياة.. أى أنه عقيدة كافية لعقل الإنسان وضميره فلا حاجة للإنسان معها إلى نظرة كونية أو علة أخلاقية، وليس لبنى الإنسان جميعا مصير غير المصير الذى يهديهم إليه.

ويتساءل العقاد قائلا: لقد اصطدم المذهبان بالواقع فى ميدن الحرب وفى ميدان التجارب العملية فماذا تغير منهما؟ وماذا بقى تحت غربال الزمن بعد التصفية قبل الحرب بسنوات وبعدها بسنوات؟

ويجيب بالنسبة للنازية ليس على أرضها اليوم صوت مسموع للسيادة الآرية فليس لهذا الصوت أثر فى الحياة الثقافية ولا فى المعيشة اليومية. وربما شوهد الجنس الأبيض والأجناس الملونة على اختلاف فى البلاد الألمانية لا يشاهد نظيره فى غيرها من البلاد.

وبالنسبة للشيوعية، فالتغيير فيها أعم وأوسع نطاقا من التغيير فى النازية، وقد تكون علاماته قليلة مبعثرة لسيطرة الرقابة على الكتابة والكلام، ولكن القليل منها ينم على أضعاف نظائره فى بيته أخرى، وخاصة حين يتكرر ولا ينقطع بعد ظهوره للمرة الأولى.

ويتحدث العقاد حديثا إذاعيا عنوانه: "صواب واحد وأخطاء كثيرة" متناولا مشكلة التربية والتعليم، ومشكلة الدرس والثقافة ومشكلة الآداب الاجتماعية والأخلاق العامة.

إنها أخطاء كثيرة وصواب واحد.

أخطاء فى تقدير واجب المتعلم، وأخطاء فى تقدير واجب المثقف الباحث عن المعرفة، وأخطاء فى تقدير واجب المرء مع غيره، وقلب الواجبات كلها إلى حقوق.. مع أن المطالبة بالحق نفسه إن لم تكن واجبة.. لم يكن لها مسوغ فى العقل ولا فى الخلق القويم.

ويحدثنا العقاد عن سبعة كتب أثرت فى حضارة القرن العشرين فيقول: إن هذه الكتب السبعة أثرت أثرا كبيرا فى حضارة القرن العشرين أو عبرت تعبيرا وافيا عن تلك الحضارة. ومضى على تأليف بعضها أكثر من قرن كامل، وهى:

الأول: هو كتاب "العقد الاجتماعى" لروسو وفحواه أن الناس جميعا نشأوا أحرارا ونشأوا كذلك أخيار أبرارا، وأنهم إنما فقدوا بعض حريتهم بالتعاقد بينهم، والأتفاق بين الحاكمين والمحكومين منهم، ولا يجوز الحكم بغير تعاقد كهذا التعاقد أو اتفاق كهذا الاتفاق.

والكتاب الثانى: هو كتاب داروين عن "أصل الأنواع" حيث يقول إن أنواع الحيوان جميعا تتنوع على حسب الظروف الطبيعية ومنها نوع الإنسان.

والكتاب الثالث: هو كتاب كارليل عن "الأبطال" جاء فى إبان الإيمان بحركات الجماعات والمساواة بين الأفراد والتمرد على العظماء.

والرابع: هو كتاب "رأس المال" لكارل ماركس حيث يفسر التاريخ بالحرب بين الطبقات، ويرى أن هذه الحرب تنتهى بظهور الطبقة التى سماها طبقة الصعاليك.

والخامس: كتاب "تفاوت العناصر البشرية" لجوبينو الذى يقول إن بعض العناصر مخلوق للسيادة وبعضها مخلوق للخضوع.

والسادس: هو كتاب "الرجل العبقرى" للمبروزو، فالعبقرى عنده مخلوق استثنائى بتركيب عقله وجسده، فعقله استثنائى ممتاز وجسمه استثنائى بما فى تركيبه من الاختلاف. وقد يكون هذا الاختلاف مسا يسيرا من الجنون، ولكنه جنون يخالف جنون المجرم، لأن جنون العبقرية مثمر وجنون الإجرام عقيم.

والسابع: هو كتاب "الأمراض النفسية فى الحياة اليومية" لفرويد فحديث العقد النفسية التى جاء بها على كل لسان وحديث البواطن الجنسية التى تكمن وراء الأعمال الظاهرة مدار القصص والتراجم والتحليلات فى هذه الأيام.

وعن هتلر يفرد العقاد حديثا بالإذاعة عارضا كتاب مصور هتلر "هنريك هوفمان"، والذى سماه "هتلر صديقى"، حتى يقص النوادر عن طاغية النازية من قبيل التوافه التى لا يلتفت إليها ولا تستحق أن تدون ولا أن تقرأ لولا أنها حديث عن رجل قبض بيديه

زمنًا على زمام أمة كبيرة هى الأمة الألمانية، وقبض من ثم على زمام القارة الأوروبية وزمام السياسة العالمية من ورائها.

ويقول: "وكثير من هذه النوادر مفيد فى التعريف بطبيعة هتلر، مفيد فى التعريف بعلة نجاحه، وعلة سقوطه، مفيد فى الإبانة عن خصلة مهمة فيه تدور عليها جميع خصاله وهى المعرفة بالرجال والجهل بالأمم فى وقت واحد".

ويحدثنا العقاد عن تصور الحياة عام ٢٠٠٠ أو فى بداية القرن الحادى والعشرين من خلال قصة للقصاص الصينى الفيلسوف "لين بوتانج" موضوعها جزيرة منعزلة فى البحر المحيط على مقربة من أمريكا الجنوبية لا يدرى أحد بها، ولا يسمح سكانها لمن يصل إليها بأن يخرج منها خوفا من إذاعة سرها واقتحام الوافدين لجوارها وحرمانها نعمة النظام الوادع الأمين الذى تعيش فيه بمعزل عن الحضارة وآفاتها ومنازعاتها، وعلى رضا من سكانها اللاجئين إليها. والجزيرة تختلف ولا شك عن جزيرة "روبنسون كروزو"، حيث إن الأخيرة جزيرة الفرد فى حين الأولى التى تصورها القصاص الصينى هى جزيرة المجتمع. كما أن القصاص الصينى تخيلها تعيش فى عام ٢٠٠٠ وما تقدمها بقليل من السنوات بكل ما تفرض هذه السنوات القادمة من حضارة هى حضارة القرن الحادى والعشرين.

والحكمة الغالبة على قصة الفيلسوف الصينى هى أن الحياة لا تخلو من مشاكل، وأننا إذا قضينا على بعض سيئاتنا كان الخلاص من هذه السيئات مشكلة جديدة وأن توطين النفس على هذه الحقيقة يساعدنا على احتمال ما لابد منه. فإن لم نسترح منه فقد نستريح من صدمة المفاجأة فلا تطرأ لنا يوما على غير انتظار.

وفى حديث إذاعى يعرض لنا العقاد "الصوفية فى الإسلام" بمناسبة ترجمة دعوات الأنصارى عبد الله إلى اللغة الإنجليزية تلك التى قام بها السردار "سير جوكندراسنج"، فيقرر بأن الصوفية من حيث علاقتها بالدنيا نوعان كما تقدم نوع يرفضها، لأنها وهم وغشاوة مزيفة كالطلاء الذى يوضع على المعدن الخسيس ليخيل إلى الأنظار أنه معدن نفيس.

ونوع آخر يخوض غمار الدنيا ليبتليها ويمتحن نفسه بتجارها وغواياها، وعنده أها جميلة لأها من خلق الله وكل ما يخلقه الله جميل.

وهذا النوع من الصوفية أقرب أنواعها إلى الإسلام، وليس على المسلم أن يرى للدنيا ظاهرا خداعا وباطنا صادقا أجمل من ظاهرها. فإن قصة الخضر مع موسى عليهما السلام تدور كلها على التفرقة بين الظواهر والبواطن فى الأحكام والنيات.

وعن المؤلفات الإسلامية التى أثرت فى الفكر العالمى يحدثنا العقاد قائلا: "ولا نحصى كل هذه المؤلفات لأها كثيرة متفرقة والمعدوم منها اليوم أكثر من الموجود. ولكننا نذكرها إجمالا، ونكتفى بالإشارة إلى المعروف منها الآن، فكتاب "القانون" لابن سينا وكتاب "الحاوى" للرازى كانا عمدة الأطباء والعلماء إلى القرن السابع عشر، وكتاب "التعريف لمن عجز عن التصريف" لأبى القاسم خلف بن العباس كان مدرسة للجراحين الأوروبيين جميعا بعد القرن الرابع عشر، ومؤلفات ابن رشد "فيما وراء الطبيعة وفى العلوم الطبيعية" لم تزل مرجعا للعلماء حتى القرن السادس عشر وللحكيم العربى "محيى الدين بن عربى" أثر كبير فى التصوف الغربى وفى فهم الغربيين لطبائع العالم الآخر، وآثار الغزالى فى حكمة العرب بادية فى ما كتبه "دافيد هيوم" فى مسألة الأسباب. وكذلك يقلد الغرب "ألف ليلة وليلة" كما فعل الأديب الإيطالى "بوكاشيو" وكذا رباعيات الخيام التى تنتسب إلى مؤلف مسلم فى بلاد إسلامية، وقد تلقاه الغرب كما يتلقى كتب الوحى المترل وغيرها من المؤلفات الإسلامية التى أثرت فى تكوين الفكر الأوروبى والعالمى.

ويحدثنا العقاد عن الإنسانية من ماضيها إلى مصيرها من خلال كتاب "دراسة التاريخ" لأرنولد توينبى الذى ظل فى تاليفه لهذا الكتاب ثلث قرن كامل. وهذا مجهود جبار، وعلم واسع يؤهل صاحبه للحكم على دلالة التاريخ الإنسانى من مبتدئه إلى عصره الحاضر. أو يؤهله لاستخراج الوجهة المرتسمة من حوادث التاريخ، ثم استخراج الفكرة التى تتجلى فيه عصرا بعد عصر وحضارة بعد حضارة

ونزاعا بعد نزاع وسلاما بعد سلام. وهذا هو الذى سميناه تلخيص التاريخ الإنسانى فى سطر أو سطرين، فما هى الفكرة التى يلخصها السطر والسطران فى رأى هذا المؤرخ الكبير؟

خلاصة هذا الرأى سطر واحد هو: أن التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله.. وفى هذا الطريق يستطيع العقل أن يخلق اختراعا من جنس القذيفة الذرية يقاومها ويكبح شرورها ويستبقى منافعها، ويستطيع العقل أن يأخذ بزمام المادة وعناصرها ليقترب بها إلى الله.

وفى حديث إذاعى يوجز لنا العقاد أن الأبحاث الاجتماعية فى أسباب الإجرام قد أوشكت هى نفسها أن تكون سببا من أسباب الإجرام. لأنها قد أوشكت أن تضعف الإيمان بالمسئولية الشخصية، وقد أوشكت أن تلقى التبعات جميعا على المجتمع، وأن تبرئ منها جناتها كأنهم ضحية غير مسئولة فى أحوالهم وأحوال المجتمع كافة.

إن الدراسات الاجتماعية التى تحيل الأمر كله على المجتمع شر من دراسات الملامة التى تحيل الغرق كله على الماء والهواء فلابد من حسبان المسئولية الشخصية فى كل دراسة اجتماعية كائنا ما كان النقص الذى يعاب به المجتمع على هدى أو ضلال.

ويستهل العقاد حديثه عن الفكاهة والفاكهة بقوله: "من حق الفكاهة أن يكون لها نصيب من جميع المطالعات، وإذا حق لها ذلك فى مواسم السنة على اختلافها فهى أحق به فى موسم الصيف إذ تشتاق النفوس حينا بعد حين أن تستريح من الجد إلى الفكاهة كما تستريح من حرارة القيظ بنسمة هواء.

ومطالعاتنا الليلة تجمع بين الفكاهة والفاكهة لأنها حديث عن البطيخ".

ثم يورد لنا قصصا عن هذا النبات وتاريخه، وينهى حديثه بذكر بعض الطرائف حول هذه الفاكهة التى لها ماض ولها تاريخ وكذا لها حاضر يحييها ومستقبل يقاس على حاضرها وماضيها.

ويحدثنا العقاد عن التصوف العالمى فيقارن بين تصوف الهند وتصوف اليونان وتصوف العبرانيين وتصوف المسيحية وتصوف الإسلام من خلال كتاب يسمى "مقدمة للمقارنة فى مذاهب التصوف للأستاذ جاك دى ماركيت".

فخلاصة التصوف الهندى: تحذير المرء من شهواته وتحذيره من قمع الشهوات بالعنف والقسوة، وإن التأمل فى الحقائق هو سبيل الوصول إلى الله.

وخلاصة التصوف اليونانى: أن الله جوهر من الفعل الخالص من شوائب الأجسام. وأن التأمل فى الحقائق هو سبيل الوصول إلى الله.

وخلاصة التصوف العبرى: إذا كانت مخافة الله تاج الحكمة فهى أيسر لباس المسكين، وإن الله خلق العقل ليعمل به فى الموجودات، ومنها الإنسان.

وخلاصة التصوف المسيحى: أن نجاة الروح لا تكون بغير نعمة من الله وبغير فداء.

وخلاصة التصوف الإسلامى: شعبتان: شعبة تذهب إلى اعتزال الدنيا لأنها باطل وفناء فى الله لأنه هو الحق دون غيره، وشعبة أخرى لا تعتزل الدنيا لأن الله سبحانه يتجلى فيها وآياته التى يتجلى فيها هى سبيل الوصول إليه. وهذه هى الصوفية المفضلة فى الإسلام.. لا إهمال للدنيا بل نفاذ منها إلى الحق وإلى الكمال.

ويحدثنا العقاد عن الأمان والاستقرار فى الشرق الأوسط من خلال كتاب بنفس العنوان ويذكر أن هذا الكتاب الصغير اشترك فى تأليفه عشرون كاتبا وكاتبة متطوعون ومدفوعون إلى غرض واضح هو إقناع الرأى العالمى برأيهم فى استقرار الأمور فى الشرق الأوسط ورأيهم هذا خلاصته أن الاستقرار كله معلق على استقرار الدويلة الصهيونية إسرائيل أما كيف يكون استقرار إسرائيل فهذا ما يقدمه العقاد من خلال حديثه الممتع.

ويحدثنا العقاد عن المدينة الفاضلة فى العصر الحاضر، ويمهد لذلك بعرض للمدن الفاضلة على مر التاريخ منذ عصر أفلاطون حتى الفارابى من خلال كتاب عنوانه: "سياحة فى المدن الفاضلة" "للكاتبة مارى لويز برنيرى"، والمدن الفاضلة الحديثة التى

عنيت الكاتبة بالكلام عنها أهمها: مدينة ولز الإنجليزى وبراديف الروسى "وهرتزكا" النمسوى وبعض المفكرين من الأمم المتعددة الذين تناولوا هذا الموضوع بروح التهكم والقنوط. وخلاصة القول فى المدينة الفاضلة فى رأى ولز أنها لا تتحقق إلا إذا عمت الكرة الأرضية بجميع أرجائها، ولا يلزم أن تكون للكرة الأرضية جميعها حكومة واحدة تحقق البرامج المطلوبة، بل يكفى أن تكون هناك مدن فاضلة كثيرة تربط بينها وحدة فيدرالية.

أما مدينة هرتزكا "النمسوى" فشرطه الأول لإقامتها أن تكون الأرض ورؤوس الأموال وأدوات الصناعة والإنتاج ملكا للدولة. وأن يسمح بالملكية الخاصة فى السكن لمن يشاء، وأن توزع الأرزاق كما توزع الأرباح فى الشركة مع اختلاف الأجور حسب الكفاءة الفنية والعقلية وتقدير هذه الكفاءة بقيمة العمل ومبلغ الحاجة إليه.

أما براديف الروسى فاعتقاده أن المدينة الفاضلة آتية لا ريب فيها، وأن العالم الإنسانى متجه إليها على غير قصد منه، وإننا ربما احتجنا إلى المجهود لمنع بعض النظم التى ينتظر أن تسود العالم ولا تحقق خير الإنسانية، ولكننا لا نحتاج إلى مجهود خارق للمألوف فى سبيل الطوبى المنظورة أو المدينة الفاضلة.

فى حديث إذاعى يقدم العقاد وصايا برناردشو للكتّاب الناشئين، فيذكر أنها مجموعة من الرسائل كتبها برناردشو إلى الناقد المسرحى المشهور "جولدنج برايت"، وكان جولدنج برايت يومئذ فى مطلع شبابه، فكتب إلى الأديب الكبير يسأله النصيحة لتسديد خطاه فى الصناعة الأدبية التى اختارها لنفسه. وهى صناعة النقد المسرحى وكتابة المسرحيات وتحضيرها على العموم. ثم اتصلت الوسائل بين الأديبين حتى أحاطت بموضوع المسرحيات من جملة نواحيه، ثم ظهرت فى كتاب واحد تزيد صفحاته على مائتى صفحة من القطع المتوسط أشرف على طبعة وكتابة شروطة وتعليقاته أديب يعرف الأستاذ والتلميذ ويعرف المناسبات التى دعت إلى تبادل الكثير من هذه الرسائل.

ويحدثنا العقاد عن الكتب المحبوبة فى القرن العشرين وعنوان هذا الحديث هو نفسه عنوان لكتاب ظهر باللغة الإنجليزية اشترك فى تاليفه خمسون كاتبا وتكلم كل منهم عن كتاب.

وتبدو دقة التأليف من عنوان المؤلف.

فالنقاد هنا لا يعرضون لنا أنفع الكتب ولا أجمل الكتب ولا أعظم الكتب، وإنما يعرضون لنا الكتب المحبوبة التى أقبل عليها قراء الإنجليزية فكان لها نصيبها من العظمة بمقدرا هذا الإقبال.

والكتاب الذى يعرضه لنا العقاد يشتمل على خمسين قسما اتجاهها عاطفى، سواء كان من القصص أو الشعر، وتبدو فيه الدقة والوضوح بأجلى معانيهما.

ليس للعقاد أحاديث كثيرة فى التليفزيون.. على النحو الذى رأينا فى الصحافة أو فى الإذاعة. وذلك لأسباب كثيرة أولها أن وقت العقاد كان لا يسمح كثيرا بالذهاب إلى التليفزيون والانتظار ساعات لتسجيل حديث كما هو معتاد، وثانيها أن التليفزيون العربى نفسه كان فىسنوات إرساله الأولى و لم ينتشر بعد و لم تتعدد أوجه نشاطاته كما نرى اليوم.

والحق أن تسجيل حديث للعقاد أو حتى ندوة من ندوات الجمعة أو برنامج خاص عنه فى التليفزيون. يعد من الأعمال الخالدة التى يستطيع التليفزيون أن يفخر بها. فموسوعية العقاد وتعدد معارفه وثراء تفكيره يجعل مثل هذا الحديث ناجحا من الناحية الثقافية والإعلامية بل العلمية أيضا. فأى سؤال يوجه إلى العقاد. لابد وأن يجد إجابة عنده. لكن على الرغم من ذلك فنجد أن أحاديث العقاد فى التليفزيون تكاد تكون نادرة باستثناء حديث واحد أجراه معه التليفزيون فى يناير ١٩٦٤ أى قبل وفاته رحمه الله. بأقل من شهرين والذى شاهد هذا الحديث يستطيع أن يحكم بأنه كان من الأعمال الخالدة للتليفزيون العربى.

ولست أدرى لماذا لا يعرض هذا الحديث الهام فى التليفزيون فى المناسبات التى تخص العقاد. كذكرى ميلاده أو ذكرى وفاته. ولست أدرى هل الحديث موجود أم أنه قد أصابه الإهمال هو الآخر كما أصاب العديد من أعمال التليفزيون الخالدة، والتى لا أدرى ما هى الحكمة التى جاءت من وراء مسحها؟

وعلى أى حال ففى هذا الفصل من الكتاب محاولة لعرض جوانب كثيرة من هذا الحديث، لنرى كم كان مهما أن يعرض فى مناسباتنا الثقافية وعلى الأخص تلك التى تتصل بالعقاد. فقد أثار فى وقت عرضه العديد من المناقشات وعلق عليه الكتاب

والصحفيون. ويكفى أن نقرأ ما كتبه أنيس منصور فى كتابه "يسقط الحائط الرابع" تحت عنوان بمناسبة حديث العقاد بالتليفزيون حيث بدأ بقوله "سجلت المراصد الأدبية انفجارين اثنين. الأول عندما ظهر طه حسين على شاشة التليفزيون يقول رأيه بصراحة وبإخلاص فى أدب الشبان وأدب اللامعقول وفى نظم التعليم فى الجامعة والأزهر، والانفجار الثانى عندما ظهر العقاد فى التليفزيون أيضا يرتاد مجالات واسعة من حياته الخاصة وتجاربه الأدبية والفكرية والسياسية ويبدى بصراحة رأيه فى المرأة والجنس وفى طه حسين والحكيم وفى التليفزيون.

وقد استوضحت – الكلام لأنيس منصور – العقاد فى بعض ما جاء فى البرنامج الذى تحدث فيه.. وسألت كلا من طه حسين والحكيم عن رأيه فيما قاله العقاد. وقد لاحظت أنهم جميعا رغم استعدادهم الظاهر لأن يبدى كل واحد منهم رأيه فى الآخر.. التزموا التحفظ والحذر الشديدين، وخصوصا توفيق الحكيم.

ويثير العقاد فى حديثه هذا العديد من القضايا التى يحتدم حولها الخلاف. مثلا رأيه فى المرأة أن مكانها البيت وأن الطبيعة قد أرادت لها البيت. فتركيب جسم المرأة قد صنعته الطبيعة من أجل إنسان آخر.. ثلاثة أرباع قوى المرأة قد خلقتها الطبيعة من أجل الطفل الذى ستحمله وترضعه وتربيه، بعد ذلك فدولة المرأة ومملكتها هى البيت مهما حاولت أن تتمرد على هذا الوضع وتخرج من البيت فلابد أن تعيدها الطبيعة إلى البيت مرة ثانية.

ويسوق مثلا لذلك حيث يقول: لو نظرنا إلى جسم المرأة.. نجد أن كل هذا الجسم قد راعت فيه الطبيعة راحة الجنين.. فالمرأة تتعرى فى الشتاء.. صدرها، ينكشف وظهرها أيضا.. ولا تشعر بالبرد الذى يشعر به الرجل. وتحت جلد المرأة طبقة دهنية تجعل جسمها دافئا، من أجل الطفل الذى تحمله. ولو تأملنا المرأة وهى نائمة لوجدنا أنها عندما تتنفس لا يرتفع بطنها، فنظام التنفس عند المرأة يختلف عن نظام التنفس عند الرجل. فبطن المرأة لا يرتفع ولا ينخفض حتى لا يترعج الجنين الذى فى بطنها.

ويعلق توفيق الحكيم على الرأى الذى أدلى به العقاد فى هذا الحديث التليفزيونى قائلا: إنه موافق تماما على كل كلمة قالها العقاد عن المرأة. والعقاد ليس عدوها وإنما هو صديقها بل هو أستاذها فالمرأة يجب أن تبقى فى البيت وأن تتفنن فى عمل صينية بطاطس أو طاجن بالفرن. فالبيت هو مكانها ومجالها الذى تصنع فيه الأجيال القادمة فإذا هى تركت البيت فمن الذى يربى الأطفال؟

وأعلن العقاد فى حديثه أنه لا يقرأ الأدب الجنسى أو الأدب المكشوف وسأله أنيس منصور ما الذى كان يقصده بالأدب الجنسى.

وتكون إجابة العقاد بعد ذلك: سبق أن وصفت هذا الأدب بأنه أدب السرير.. أدب الفراش.. لأن هناك فارقا بين الأدب الذى ينقل لنا ما يحدث بين أربعة جدران، وبين الأدب الذى يناقش الجنس كحقيقة عميقة فى النفس ويحلل لنا أسبابها ومشكلاتها.

فالأدب الذى يصور لنا المناظر الجنسية.. هو أدب المناظر الجنسية أو هو كلام عن الأوضاع الجنسية. وليس فى هذا أى أدب أو أى شىء جديد. ولكن الأدب الآخر هو أدب الحقائق الجنسية فالكاتب الإنجليزى "د.هـ. لورانس" قد تناول الجنس بعمق وفن.. وربما كان عيبه الوحيد هو أنه أسرف جدا فى الاهتمام بالجنس ولكن الحقائق الجنسية سيظل الإنسان يناقشها دائما وسيظل يتعمقها ويتتبع دروبها ومسالكها الملتوية.

وعلق توفيق الحكيم على ذلك قائلا: أنا لا أوافق أن أدب الجنس أدب الإثارة الجنسية إن الكاتب لورانس قد تعمق فى فهم ودراسة المسائل الجنسية. لأن الجنس جانب مهم فى تركيب الحياة نفسها. ولابد أن يشغل المفكر والفنان والباحث الاجتماعى بدراسة الجنس ودوافعه وأشكاله، والصور التى تتحقق فيها، أما الإشارة إلى الجنس وعرضه بلا سبب ولا مبرر ولا معنى نستفيد منه، فهذا ما أرفضه دائما.

وقال العقاد فى حديثه التليفزيونى عن طه حسين إنه قنطرة بين الأدب العربى

والأدب اليونانى القديم. فقد كان العرب يعتقدون أن اليونان لم يؤلفوا شيئا له قيمة إلا المنطق وإلا قوانين الفكر الإنسانى. وجاء طه حسين وقدم الشعر والبلاغة عند الإغريق.

وعلق طه حسين قائلا: كثر الله خير العقاد. والواقع أننى لم أكمل القنطرة التى توصل إلى الأدب الإغريقى. لأن هذه القنطرة تحتاج إلى أن أنفق فيها حياتى كلها. وعلى كل حال هذا شيء خير من لا شيء فعندما أدخلت اللغتين اليونانية واللاتينية لقيت مقاومة شديدة.. ويكفينى الآن أن هاتين اللغتين القديمتين يدرسهما الطلبة فى الجامعة وكذلك اللغات الأوروبية الحديثة.

وقال العقاد: إن اللامعقول.. لتوفيق الحكيم لا معقول.. وأن الحكيم يعرف رأيى فى هذه المذاهب لدرجة أنه لم يهدنى هذا الكتاب "يا طالع الشجرة" من مؤلفاته كعادته ولكنه أرسل لى كتابا غيره وكتب لى على الإهداء كتاب ترضاه عوضا عن كتاب لا ترضى عنه وكان يقصد كتاب يا طالع الشجرة.

وعلق توفيق الحكيم على رأى العقاد بقوله: دمه خفيف العقاد.. على كل حال قدم لنا صورة لطيفة.. وكلام العقاد معناه أننى لست منعزلا عن الناس. وعلى فكرة العقاد معجب جدا بيوميات نائب فى الأرياف وكان يقرؤها ويضحك على الصور التى فيها.

والكتاب الذى يشير إليه العقاد بأننى أهديته إليه هو كتاب "عدالة وفن" وفى هذا الكتاب صفحات مضحكة. أما الكتاب الآخر الذى لم أشأ أن أهديه للعقاد فهو مسرحية "يا طالع الشجرة" فأنا أهديته الذى يعجبه وأبعدت عنه الذى لا يحبه كما تهدى أحد أصدقائك سلة برقوق بدلا من سلة المانجو التى لا يحبها.

وكل إنسان يرفض المسرح اللا معقول هو إنسان معقول.. العقاد رفض اللامعقول وزكى نجيب محمود رفض اللامعقول ومن قبل طه حسين رفض اللامعقول. فهؤلاء جميعا معقولون. وأنا أؤكد أن القليلين جدا من الناس هم الذين أقنعونى بأنهم فهموا المسرح اللامعقول. فهؤلاء الأدباء الذين يكتبون المسرح اللامعقول هم جماعة من الذين

يتعاطون التحشيش العقلي.. لأنهم لا يراعون النسب بين الأشياء ولا يعرفون المنطق.

وهكذا نجد حديث العقاد فى التليفزيون كان مثيرا بالقدر الذى جعل عمالقة الأدب وكتابه وفى مقدمتهم الدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم والدكتور زكي نجيب محمود ينهضون للرد والتعقيب على ما جاء فيه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد كاتبا كبيرا هو أنيس منصور يفرد له فصلين فى كتابه يسقط الحائط الرابع دليلا على قيمته.

ولكن ما هو هذا الحديث نفسه؟ لنعد إلى صحف هذه الفترة ونتوقف كثيرا عند مجلة الجيل التى سجلت أكثر ما جاء فى هذا الحديث.

لأول مرة فى تاريخ التليفزيون العربى نشاهد عملاق الأدب والفكر الأستاذ عباس محمود العقاد وهو يتكلم أمام الشاشة الصغيرة.. إن قصة ظهور أستاذنا الكبير كانت أمنية كل الذين يهتمون بالأدب والفن.

وأخيرا استطاعت المذيعة أمانى ناشد أن تسجل معه برنامجا لمدة ساعة ونصف ساعة ضمن برنامجها الجديد "سهرة مع كبار المفكرين والأدباء والفنانين العرب" الذى يذاع مرة كل أسبوع خلال شهر رمضان.. من البرنامج الثانى بالتليفزيون العربى..

وفى المنزل رقم ١٣ بمصر الجديدة أخذت كاميرات التليفزيون والإضاءة أماكنها بين الكتب المنتشرة فى كل مكان من المنزل.. وبدأ مصورو التليفزيون يجرون تجاربهم الأولى قبل بداية التسجيل.. الأضواء منتشرة فى كل مكان من المنزل.. المذيعة أمانى ناشد تأخذ مكانها بجوار مكتب أستاذنا العقاد وتمر فترة صمت قطعها صوت باب من بعيد يفتح ويخرج منه رجل طويل القامة يرتدى بيجامة بنية اللون ويلف حوق عنقه كوفية ويرتدى روب دى شمبر. وتغطى رأسه طاقية من الصوف بنية اللون ويضع على عينيه نظارة غليظة وتقترب قدما هذا العملاق الكبير وينبعث صوت جهورىّ مرحبا بالحاضرين ويأخذ مكانه على مكتبه القديم الذى شهد مولد كتبه الثمانين وتضاء الأنوار، وتمر فترة صمت يقطعها صوت مصورى التليفزيون،

لبداية تسجيل قصة تاريخ وكفاح عملاق من عمالقة الفكر والأدب فى عصرنا الحديث.

ومع بداية التسجيل بدأت المذيعة أمانى ناشد تقدم العقاد مستعرضة تاريخ حياته الحافل بالكفاح السياسى والأدبى. منذ حضر للقاهرة فى أوائل هذا القرن ثم بدأت تسأل العقاد كيف عمل بالوظائف الحكومية؟ ومتى بدأ يكتب فى الصحف والمجلات؟ وما هو أول كتاب صدر له؟ والكتب التى صدرت له وأحبها إلى نفسه. وكيف كون هذه المكتبة الضخمة؟ ولماذا لم يتزوج؟ وهل فى حياته امرأة أحبها ثم استعرضت أمانى ناشد رأيه فى المرأة وكيف أنها تحب وتكره وتراوغ وتميل مع الهوى؟ ثم سألته عن أمه ومكانتها لديه.. سألته عن أصدقائه وكيف يختارهم؟ سألته عن دور زملائه فى الفكر العربى أمثال الدكتور طه حسين.. سألته عن اللامعقول وعن توفيق ورأيه فى كتابه الأخير "يا طالع الشجرة".

سألته لمن يقرأ من الكتاب المعاصرين، والصلة بين قراءاته فى كتب الشعر والفلسفة وعلم الحشرات والحيوان. أسئلة كثيرة ومتعددة ومتنوعة فى كل شىء.. سجل حافل لأعمال كثيرة قدمها لتكون تراثا للإنسانية ودائرة معارف لكل فن وكل علم من العلوم المختلفة..

وبدأ العقاد يجيب.. بدأ يروى ذكرياته منذ ولادته فى مدينة أسوان فى يوم الجمعة ٢٨ يونية عام ١٨٨٩ لأب كان يعمل موظفا فى دار المحفوظات بمدينة أسوان، وكيف عاش مع إخوته الثمانية وأخته الوحيدة فاطمة، وكيف تفتحت عيناه على الحضارات الأوروبية المختلفة متمثلة فى السياح الأجانب الذين يزورون أسوان كل شتاء، وكيف التحق بالمدرسة الابتدائية والتقى به الشيخ محمد عبده وتنبأ له بأنه سيكون كاتبا عظيما..

ومضى العقاد يروى ذكرياته بعد أن حصل على الشهادة الابتدائية، وكانت أمنيته أن يصبح مهندسا زراعيا ولكن رغبة والده حالت دون تحقيق أمله فعين بوزارة الأوقاف بالقاهرة. ثم استقال وعمل بجريدة الدستور عام ١٩٠٧، ثم انتقل

بعد ذلك ليروى ذكرياته وقصة لقائه مع إبراهيم عبد القادر المازنى، وعبد الرحمن شكرى.

ويسكت أستاذنا الكبير عن الكلام برهة ليعود إلى الماضى يوم وقف مع المازنى وعبد الرحمن شكرى يعارضون مذهب البارودى وشوقى وحافظ الذين كانت لهم مكانة كبيرة فى الشعر فى ذلك الوقت. ثم يذكر كيف كونوا مدرسة الديوان فى النقد. وانتصروا على فطاحل الشعر فى ذلك الوقت.

وانتقل العقاد يحكى تاريخ كفاحه السياسى وكيف هاجم الرأسمالية والملكية أيام الملك فؤاد واعتقل فى ذلك الوقت. وكيف استقال من حزب الوفد عندما ضل الطريق، وكيف اتخذ من النظام الملكى سلوكا خاصا. جعله لم يدخل القصر الملكى طول عمره؟ ولم يكتف بمهاجمة الملكية فقط، بل هاجم الشيوعية، وصدرت له ثلاثة كتب فى نقد المذهب الماركسى: الأول بعنوان (الشيوعية والإنسانية) والثانى بعنوان "أفيون الشعوب" والثالث "لا شيوعية ولا استعمار"..

وعاد الهدوء إلى صوت العقاد حينما بدأ يجيب عن سؤال وجهته له المذيعة أمانى ناشد عن الحب وهل أحب فى حياته؟

ويبتسم عملاق الأدب والفكر ويضع يده على رأسه ويميل إلى الوراء. وهو يسترجع تلك الأيام التى عاشها مع حبه الأول هند. وكان ذلك فى بداية عمله بالصحافة ويقول: كانت راهبة فى محراب، حديثها كان سحرا، جمالها كان فاتنا.. تنافس عليها كثيرون.. كان حبى له عذريا وكانت تحبنى بمقدار ما أحبها.. كانت مصدر إلهامى وآمالى.. ولكن الأيام لم تمهل سعادتى وكان الموت أقوى من حبى لها. واختطفها ذات يوم على غير موعد.

وتظهر على وجهه علامات الحزن ويسكت العقاد ويعود بظهره إلى الوراء يسترجع ذكريات حبه الثانى لسارة ويقول كانت على عكس "هند" أيامها فرح ولهو..

أدخلت السرور على نفسى بعد أن فقدت "هند".. بدأت تزيل الهموم من قلبى..

كانت تبادلنى الحب كأقوى ما يكون.. كانت تحب الموسيقى ومن أجلها أحببت الموسيقى بل أكثر من هذا بدأت أقرأ كتبا فى الموسيقى.. كانت أجنبية ومازالت تعيش إلى الآن فى الخارج.. انقطعت رسائلها عنى منذ مدة قصيرة وأنا الذى بدأت بالمقاطعة لأن استمرار رسائلها يذكرنى بها كثيرا وفضلت أن أكتب نهاية لقصة حبى الثانى والأخير..

وتنتقل الأسئلة إلى الأدب العربى المعاصر. عما قدمه الدكتور طه حسين من خدمات لأدبنا المعاصر؟

وهنا يعود أستاذنا الكبير مشيرا بيده قائلا: إن للدكتور طه حسين دورا كبيرا فى الأدب فقد كان القنطرة التى عبرها الأدب اليونانى القديم ليمتزج بالأدب العربى المعاصر.. وله أيضا كتابات فى السير كانت تأريخا للإسلام فأضاف بها جديدا فى تاريخ السيرة النبوية والدراسات الإسلامية.

ثم سألته من جديد عن دوره هو فى الأدب العربى فقال العقاد:

- إننى أفخر بأننى أديت رسالتى إلى حد ما. والذى أفخر به دائما أننى كنت المحطم الوحيد للألقاب والشهادات الجامعية. فرغم أننى لم أحصل إلا على الشهادة الابتدائية. وهذا فخر. فإننى قمت بدور كبير فى أدبنا العربى..

ومن جديد عادت المذيعة أمانى ناشد. تسأله عن رأيه فى كتابات الأستاذ توفيق الحكيم الأخيرة وبالأخص كتابه "يا طالع الشجرة" وما هو رأيه فى أدب اللامعقول؟..

وبصوت جهورى فيه انفعال بدأ يقول: إن اللامعقول.. لا معقول وإن الحكيم يعرف رأيى فى هذه المذاهب لدرجة أنه لم يهدنى هذا الكتاب من مؤلفاته كعادته ولكنه أرسل لى كتابا غيره وكتب لى على الإهداء "كتاب ترضاه عوضا عن كتاب لا ترضى عنه" وكان يقصد كتاب "يا طالع الشجرة".

وينتقل الحديث عن الذين يقرأ لهم فأجاب: من الكتاب الأجانب الذين أصبحوا

بالنسبة لى أصدقاء الشاعر الألمانى "هاينى" والكاتب الإنجليزى "تومس هاردى" و"أنا تول فرانس" الفرنسى.

ومن الكتاب العرب أقرأ لتوفيق الحكيم.. ومحمود تيمور ونجيب محفوظ.. أما كتابنا من الشباب فأنا لا أقرأ إلا للجادين منهم.. أما أدباء الجنس الذين يكتبون لإثارة الغرائز. فأنا لا أقرأ لهم بالمرة. إن أحب قراءاتى إلى نفسى كتب الحشرات ففى مكتبتى أكثر من مائة كتاب عن الحشرات يجمعها موضوع واحد هو الاستزادة من الحياة. فدراسة الحشرات أشبه بالبروفات الأولى للنفس البشرية..

ومن جديد عادت المذيعة أمانى ناشد تسأله عن رأيه فى الأدب النسائى فى مصر؟

فقال: مفيش حاجة اسمها أدب نسائى.. ومفيش أديبات بمعنى الكلمة.. تقدرى تقولى باحثات فى الأدب وليست أديبات من أمثال الدكتورة سهير القلماوى ونعمات فؤاد وصوفى عبد الله ودول مازالوا فى الطريق.. مفيش واحدة منهم تعتبر ناضجة.. ولكن مع الزمن يمكن أن تأخذ كل واحدة منهن مكانها فى الأدب. والشىء الذى يبشر بالخير أنه يوجد عندنا شاعرات ممتازات وقد اشترك منهن فى المهرجان الأخير عشر شاعرات يبشرن بمستقبل عظيم..

وتعود أمانى ناشد تسأله كيف يقضى يومه؟

فيقول: أستيقظ من نومى فى تمام الساعة الخامسة، وأتناول إفطارى فى السادسة صباحا، ثم أبدأ فى الكتابة وبعد الانتهاء منها لمدة ساعتين أخرج لأمشى فى ضاحية مصر الجديدة لمدة نصف ساعة. وأعود لأتناول غدائى وأستريح قليلا. ثم أعود للقراءة لمدة ثلاث ساعات. وفى شبابى كنت أقرأ ثمانى ساعات متواصلة إن هوايتى المفضلة هى القراءة، وخاصة فى كتب الفلك والتنجيم.. والكتب الفلسفية.

ويدور الحديث إلى سؤال آخر عن رأيه فى التشاؤم؟ وهل يؤمن بالتشاؤم؟ ويبتسم العقاد وهو يقول: أنا لا أعتقد مطلقا فى التشاؤم بل أتحداه.. فأنا أسكن بالمنزل رقم ١٣. وأكثر من ذلك فقد روى عن ابن الرومى الشاعر أنه رمز التشاؤم وأن كل من تناولوه بالدراسة لحقهم بسوئه. فقد كتب عنه المازنى بعض مقالات فكسرت رجله. وكتبت عنه أنا كتابى المعروف بعنوان "ابن الرومى حياته من شعره" فدخلت السجن

على أثر الانتهاء منه وإن كنت أعتبر هذا محض صدفة. ورغم هذا فإن هذه الحادثة لم تؤثر.. وحينما بدأت عملية البناء فى مترلى بأسوان اخترت يوم ١٣ من مارس عام ١٩٤٩ وأكثر من هذا فإننى أضع أمامى على مكتبى تمثالا للبومة التى يعتبرها معظم الناس رمزا للتشاؤم ورأيى فى هذا أن الإنسان متفائل بطبيعته لأنه إذا ترك التشاؤم يتسرب إلى نفسه فإنه لن يستطيع أن يخطو خطوة واحدة فى حياته. فالطفل يولد وهو ممتلئ بالحياة مقدم عليها غير خائف والحيوان الصغير يولد فى الحياة فيسعى إلى طعامه.. فلو كان التشاؤم من طبيعة الإنسان لأصبح الإنسان شبه عاطل.. يتشاءم من كل شىء فى الحياة وهذا ما أردت أن أثبته لنفسى وللناس جميعا.

وسألته عن رأيه فى برامج التليفزيون وما يعجبه منها فقال:-

فى رأيى أن التليفزيون العربى قام بدور كبير فى ارتفاع مستوى الثقافة وأنا من أشد المعجبين بالمسرحيات التى يقدمها مسرح التليفزيون، ومن البرامج الناجحة التى أرجو أن أراها برنامج "على شط النيل". ولكن لا أعرف لماذا توقف هذا البرنامج رغم نجاحه الكبير.. ومن البرامج التى لا تعجبنى فى التليفزيون الأفلام الأجنبية إنها من عهد رعاة البقر ولا تتمشى مع عصرنا الحديث وأرجو أن تتطور هذه الأفلام بحيث تلائم بيئتنا وتطورنا.

واختتم عملاق الأدب حديثه الذى استمر ساعة ونصف ساعة بالإجابة عن سـؤال: عما ينصح به شباب الجيل الحاضر بعد تجاربه الشخصية الطـويلة فقال: "أن يعمل لا طلبا فى الشهرة فهى تسعى إليه ولا يسعى إليها وأن يؤمن بأنه كما له من حقوق فعليه أولا واجبات".

وترك العقاد مكانه ليدخل صومعته من جديد ليعيش من جديد مع الآلاف من الكتب التى قرأها وليعاود حياته الحافلة بسجل خالد لنضاله السياسى والأدبى. ومن جديد أطفئت الأنوار وحمل مصورو التليفزيون كاميراتهم وعاد الهدوء إلى مترل العقاد من جديد وعادت أمانى ناشد إلى التليفزيون العربى تحمل معها تحفة فنية رائعة استطاعت أن تحصل عليها بعد ثلاث سنوات لتكون سجلا حافلا لتاريخ كفاح أحد عمالقة الأدب العربى فى عصرنا الحاضر.

لا يكتمل بحثنا عن أحاديث العقاد بعدم ذكر ندوته المعروفة. فهذه الندوة لا تقل أهمية من ناحية القيمة العلمية والثقافية عن الحديث الصحفى أو الإذاعى أو التليفزيونى بل لعلها تكون أوسع وأشمل وأكثر تأثيرا من هذه الأحاديث المذكورة.

والعقاد كان يقيم ندوته بالقاهرة فى منزله يوم الجمعة من كل أسبوع، ومجرد استمرار هذه الندوة لسنوات كان بمثابة العمل الفكرى الهام المتجدد. فقد كانت ميدانا للمناقشات والمساجلات الأدبية والعلمية والسياسية والاجتماعية. وتكفى نظرة واحدة إلى هذه الوجوه التى كانت تحضر الندوة أسبوعيا لتكون خير دليل على ما نقول.. فبينها نلمح الشاعر والطبيب والناقد والأديب والصحفى والمهندس كما نجد المؤرخ والفيلسوف والموسيقى والمعلم، كما نجد رجل الفلك إلى جوار عالم التصوف إلى جوار عالم البحار وغيرهم.

والندوة لا تفرض على المشترك فيها شروطًا، ولا تطالبه بأى شىء فأنت تجد الشيوخ إلى جوار الشباب والعلماء إلى جوار طلاب العلم والمرأة إلى جانب الرجل.. جاءوا جميعا يربطهم هدف واحد هو الاستزادة من علم الرجل صاحب هذه الندوة.

لهذا لم يكن غريبا أن تجد الندوة تناقش الكثير من الاتجاهات الأدبية وتنتقل إلى مناقشة آخر ما وصل إليه علم الحشرات، ولا تتجاهل هذا التطور الذى حدث فى الإيقاع الموسيقى، لتنتقل إلى مناقشة بحث فى العقيدة والدين وأخر عن الالهيات ولم يكن غريبا أن يعرض أحد الحاضرين وصناعته الشعر على مسمع الأستاذ وتلاميذه قصيدة شعرية تكون مناسبة لمناقشة حامية حول الشعر القديم والحديث والاتجاهات المعاصرة فى الشعر الأوروبى وهل هى تصلح لشعرنا العربى. ويقطع أحدهم على هؤلاء

وهؤلاء الحديث بسؤال جاء من أجله ويخشى ألا يستطيع طرحه فى ندوة اليوم.. فيسأل هل حقا استطاع الإنسان الصعود إلى القمر؟ وإلى أى مدى يصبح قوله صادقا حيث أعلن أنه جاء من أجل إسعاد البشرية وبسلامها؟ وتنتقل المناقشة إلى عالم القصة والرواية وهل ما قيل عنها فى أوائل هذا القرن من أن فنون الأدب كلها عالة على القصة وأنه لا كتابة لمن ليست له قصة يصلح اليوم بعد تعدد أغراض الأدب واتجاهاته وصنوفه؟ لتنتقل المناقشة إلى عالم الزراعة وأحدث النظريات المستخدمة فى أوروبا وإلى أى مدى أسهمت الثورة الصناعية فى تقدم وازدهار الزراعة.. وتنتقل المناقشة وتتشعب إلى الفلسفة والاقتصاد والسياسة والعمران والفن والفكاهة والأساطير وهكذا معارف عديدة ومناقشات كثيرة.. وجوانب للثقافة غير محدودة أمرا يجعل الباحث يذهب دونما مبالغة فى أن الندوة العقادية هى جامعة للجميع شرطها الوحيد هو محبة الثقافة والعلم.

ولأصدقاء العقاد وتلاميذه ذكريات حول هذه الندوة فهذا هو صديقه محمد طاهر الجيلاوى يكتب عنها سطورا فى كتابه "فى صحبة العقاد" فيقول: وتجددت الندوة فى بيت العقاد، وكان أفرادها هذه المرة من الشباب الناهض وأكثرهم من خريجى الجامعات الممتازين وأصبح حضورها مباحا لمن يريد فى أيام الجمعة. فالعقاد يترك باب شقته مفتوحا فى هذا اليوم من الساعة العاشرة حتى الثانية عشرة حيث ينصرف الحاضرون ويتناول بعضهم الغداء مع أولاد أخيه فى الشقة المقابلة. وانفردنا معه نتناول معًا طعام الغداء ونتبادل الحديث فى شئون شتى.

وقد اتسع نطاق الندوة العقادية وازدحمت بالحاضرين من كل فج ما بين مصريين وغير مصريين حتى ضاق بهم المكان وكأنه المعنى الذى يقول الشاعر:

تزاحم الناس على رده   والمورد العذب كثير الزحام

كانت الندوة أشبه بجامعة وكان أستاذها ومحاضرها الوحيد عباس محمود العقاد.

وكان لكل من فى الندوة الحق فى توجيه الأسئلة عليه ولا يبخل بالجواب على أحد.

ويكتب أنيس منصور فى كتابه (يسقط الحائط البرابع) قائلا: "العقاد يستقبل زواره كل يوم جمعة الساعة التاسعة صباحا ولا يكاد يعلم العقاد بأن ضيفا واحدا من تلامذته قد حضر حتى يخرج العقاد لاستقباله بحرارة واضحة ويقول العقاد كلمته التقليدية أهلا مولانا.

والغرفة التى يستقبل فيها العقاد زواره صغيرة. مقاعدها لا تتجاوز عشرة يجلس العقاد على أكبرها. وفى الغرفة صورة زيت للعقاد وتمثال نصفى وصورة لآثار مصر، وقبة صغيرة لمسجد قدم هدية للعقاد من أحد أبناء العراق. والعقاد عندما يستقبل ضيوفه يرتدى البيجاما وكل بيجامات العقاد مخططة ويرتدى أيضا الطاقية وأحيانا يرتدى الكوفية.

ويجلس العقاد ويبدأ فى الحديث إلى ضيفه وبعد ذلك إلى كل ضيوفه حتى الساعة الواحدة. وفى هذه الأثناء يدخل خادم العقاد العجوز واسمه الشيخ أحمد حمزة ويقدم كوبا من عصير الليمون وبعد ذلك فنجان القهوة لكل زائر ولم يغير العقاد هذه العادة وبهذا الترتيب.

وكلما دخل زائر نهض العقاد يحييه بنفس الحرارة والاحترام: أهلا مولانا.... إيه أخبارك.

ويتحدث العقاد وهو غالبا الذى يتحدث فمن أجل أحاديث العقاد ومناقشاته قد ذهب كل هؤلاء الضيوف وقد بدأت أتردد على ندوة العقاد منذ عشرين عاما أيام كنت طالبا فى الجامعة ومنذ ذلك الحين لم أنقطع عن جلسته إلا مرات قليلة جدا".

وتدور مناقشات العقاد فى كل موضوع.. فى الأدب.. فى الشعر.. فى الفلسفة والسياسة وفى التاريخ، وفى خلال هذه المناقشات يروى العقاد النكت الطريفة ولا يكتفى بما يرويه من النكت.. فهو يسأل الآخرين: عن أخبار النكت.

ويكتب الدكتور عبد الفتاح الديدى فى كتابه "عبقرية العقاد" عن هذه الندوة قائلا: "الواقع أن الندوة العقادية كانت قد تحولت إلى ندوة أقرب إلى دروس فى الفلسفة

وكان التحول الفكرى الكبير الذى أصاب العقاد فى تلك الفترة قد جعل اصدقاءه يميلون إلى الجلوس إليه مستمعين مستفيدين، وحضر الندوة حينذاك كثير من أصدقائنا الشبان وخاصة بعض المشتغلين بالفلسفة ودراستها، وكنا نجلس إلى الأستاذ صامتين أو شبه صامتين مكتفين بالتأمل فى شخصه والاستماع إليه وهو يجول ويصول بخياله وذكرياته وأحاديثه ومناقشاته وكان لا يحتاج فى الغالب إلى سؤال أو استفسار فهو يبدأ الحديث ويأخذ فى سرد الآراء ومناقشتها وتفنيد المعتقدات وحكاية الذكريات وشرح الأشعار فى غير حاجة إلى أن نتيح له فرصة إدارة الكلام كان ينهمر منه التفسير والشرح من تلقاء نفسه كمن يعالج مشاكل تخصه وقضينا ساعات طويلة نستمع إليه وهو يشرح ابن الرومى ويؤدى الوصف والشرح مع القيام بالحركات التمثيلية اللازمة فى غير تكبر أو اصطناع".

ويكتب العقاد فى كتابه لمحات من حياة العقاد المجهولة صفحات كثيرة نختار منها ما يقول فيه: عشت مع العقاد ندوات الجمعة.. تلك التى كانت ملتقى الأدباء والشعراء وملتقى طالبى المعرفة.. ورأيت فيها مذاهب تنتصر ومذاهب تموت وتسحق. وإن كنت أنسى فإنى لا يمكن أن أنسى ذلك الثرى السعودى الذى حضر تلك الندوة ليرى العقاد وما إن دخل حتى سلم على العملاق وحاول أن يقبله دليل الإعجاب ولما كان الرجل قصيرًا فقد شب على أطراف قدميه يحاول أن يطوق العقاد بيده ليقبله فإذا بالعقاد يقول له على مسمع من الحاضرين لا عليك يا صاحبى ولا داعى لذلك لأنك لا يمكنك أن تقبلنى لسببين: أنك لن تطولنى بحال من الأحوال وإننى لا يمكن أن أثنى جذعى لأنزل إليك.

وضحك الحاضرون وآثر الرجل السعودى الجلوس دونما كان ينوى أن يقوم به.

ورأيته فى حالات مرحه وفى حالات سخطه وغضبه ورأيته وهو يداعب بعض تلاميذه الذين اشتهروا بيننا بالفروسية فى غزو قلوب بنات حواء فكان فى كثير من الندوات حينما تحضر إحدى الصحفيات أو مندوبات المجلات ليجرين معه حديثا

وتكون المقاعد كلها قد امتلأت بتلاميذه فكان العقاد لا يزيد على أن يقول موجها حديثه لأولئك التلاميذ: مين من الفرسان يمنحها مكانه وكانوا يتبارون فى ترك مقاعدهم للزائرة.

ويقول عامر العقاد: عن طريق الندوة عرفت عبد الرحمن صدقى وعلى أدهم وطاهر الجيلاوى وأحمد رامى ونظمى لوقا وصوفى عبد الله وجاذبية صدقى ومحمد خليفة التونسى والشجاعى ومحمود حسن اسماعيل والعوضى الوكيل وبدوى طبانة وأنيس منصور وأحمد هيكل وباكثير وعزيز أباظة وروحية القلينى وشريفة فتحى وحبيب الزحلاوى وغيرهم. فكل هؤلاء عرفتهم عن طريق الندوة العقادية التى كانت كالجامعة الأهلية التى لا تشترط فى طالبى الدراسة فيها نوعا معينا من الشروط التى تطلبها الجامعات وإنما الشرط الرئيسى هو الأدب عامة والعقاد خاصة وهذا كسب تغتبط النفس له وسط زحام الحياة فى هذا العصر..".

وصورت أقلام الصحفيين ما يجرى فى هذه الندوة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر هذه الندوات ذات الاهتمامات المعنية.

مثلا تسجل مجلة المصور ندوة العقاد فتقول: والندوة ندوة العقاد الأسبوعية التى يعقدها فى حجرة جلوس قديمة الأثاث ببيته القديم البنيان بمصر الجديدة كل يوم جمعة من العاشرة صباحا حتى الواحدة بعد الظهر.. مثل السينما ويقضى فيها العقاد ثلاث ساعات من عمر يومه وهو يمارس عضلات عقله فى ٥٠ مثقفا من مريديه.. يقدمون إليه الكرة فى شكل سؤال مستعصى الفهم ويلتقط العقاد الكرة بعقله المزدحم: يحلل جلدها ومطاطها وأوكسوجينها ونيتروجينها وثانى أوكسيد كربونها إلى عوامله الأولية ولا يعيد الكرة إليهم سليمة أبدا.

ودخلت على العقاد "حجرة جلوسه" لأجد الكرة فى رجليه.. كان يقول: كلام فارغ مع التنوين يعنى على كل من الميم والغين ضمتان - فنفوس العظماء لم تنشأ قطعا مع أجسامهم.. وأنت لا تستطيع أن تقول إن الموسيقى تصدر عن أصابع البيانو.. ولا أوتار البيانو.. ولا خشب البيانو.. ولا عن النوتة الموسيقية.. كل هذه الأشياء تتضافر وتجتمع لتصل لنا موسيقى نسمعها ونحسها..

ولم أفهم بالطبع مدار الحديث إنما أفقت بانتباهى على كرة أخرى يقدمها زائر جديد الطالب بمعهد البعوث الإسلامية وأحد مريدى ندوة العقاد حينما سأل: "وما أصل المدرسة السلوفرية".

ودون أن يعتدل العقاد فى قعدته أو تهتز ذراعه التى تعتمد بقبضته على خصره. أجاب على السؤال وسرحت أثناء الإجابة. سرحت فى جمال وجه العقاد. وجه جميل كوجه قديس أو وجه طفل حديث الولادة، وفى الوجه طيبة وسماحة بادية وخطوط شيب وشيخوخة تخجل أن تظهر على وجه العقاد الأحمر.. ثم عدت إلى الندوة بانتباهى فوجدت العقاد مازال يتحدث عن المدرسة السلوفرية إياها.. كان يقول: "... وهى مدرسة أخلاقية أساسها الأخلاق اختلطت على التاريخ بالمدرسة النفسية والمدرسة السلوكية والمدرسة الاجتماعية. وسكت العقاد دون أن يذكر مدرسة واحدة من مدارس وزارة التربية والتعليم.

وقطع جو الندوة صينية شراب منجه وزع على الحاضرين... ثم استأنفت الكرة دورانها بسؤال من الدكتور الطبيب صالح حافظ شكرى عن ميتولوجية الطيف الشمسى "وأحسست أن معلوماتى عن الميتولوجيا متواضعة جدا لدرجة إننى لا أعرف معنى الكلمة..

فسألت العقاد قبل ما تجيب على سؤال الدكتور.. ما هى الميتولوجيا وأجاب العقاد: هى البحث فى الأساطير والخرافات..

ثم استأنف الإجابة على سؤال الدكتور صالح: ميتولوجية الطيف الشمسى تؤكد لنا أن الإحساس هو الحكم فى الموجودات. فأنت لو جمعت كل ألوان الطيف الشمسى على ورقة مثلا ثم أدرت هذه الورقة بسرعة.. لاكتشفت بحسك البصرى أن ألوان الطيف اختفت تماما.. وأن الورقة لونها أبيض أو لا لون لها مطلقا.

وانبهر الجميع.. وعاد العقاد يقول: ولذلك يجب ألا نقف أبدا عند حد المحسوسات. يجب أن ندرك ما وراءها بانطلاق وتحرر من أى قيد. كذلك يجب

تغليب النظر العقلي علي النظر الحسي... يجب أن نطلق للعقل عقاله ليلهث ويبحث دونما تحديد ودونما نهاية.

وأحسست أن الرغبة في سؤالي تكاد تسيل لعابا من فم "جلال العشرى" ليسانس آداب قسم فلسفة.. وصدق إحساسي فقد انفجر فجأة يسأل وكأن أحدا سيخطف العقاد من أمامه: وهل يمكن أن نعتمد على اللغة لتحدد لنا مقاييس للحسيات؟ وأجاب العقاد:

إن اللغة قاصرة عن إيجاد منطق تفاهم مشترك بين الجميع.. ولذلك كان الامتياز العقلي فريضة مطلوبة. حتى الامتياز الجسدى - وهو أحقر أنواع الامتياز موجود. "ماشيست" الفتوة المعروفة عندما أخذوه للجهادية سنة ٢٨ كانت فى الجيش جاكتات مفصلة علي مقاس "الجسم المشترك" لكن جسم ما شيست كان غير عادى رفض أن يخضع لمقاييس الجسم المشترك.. فكانت كل جاكتة يقيسونها عليه يتمطع فيها تتمزق.

فالإمتياز موجود في الجسم.. وفى العقل.. وفى كل الأشياء. وقد يقال إن الإمتياز صفة كريهة ومكروهة لكن الامتياز يكون كذلك إذا كان اغتصابا.. إذا كان إخلالا بنواميس العدالة.. أما الامتياز العقلى فصفة يجب أن نسلم بها ويجب أن توجد.. يجب أن يكون هناك العقل الذى يقول لعقول العجول أنا أرى ما لا ترونه.. يا عجول..

وكان لابد أن يتحدث العقاد عن نفسه قبل أن يغادر هذه النقطة.. فموج الحديث انساب حتى هذا تماما عند قدميه قال "هتلر مثلا.. من أول ما دلع نار الحرب العالمية.. أنا قلت: إنه مهزوم ابن مهزوم.. وسجلت هذا الكلام للتاريخ فى كتابى هتلر في الميزان.. وكانت جحافله داخلة كالنمل علي شوارع باريس.. ثم أنا تنبأت بقيام الثورة دي".

وسكت العقاد.. وكانت فرصة لمحمد طاهر الجيلاوى المهندس بشركة الغزل المصري ليسأله عن نظرية القصور الذاتي "وأجاب العقاد بامتعاض: القصور الذاتى فكرة في منتهي السخافة.. ويكفي لكي تكون سخيفا أن تقول عن شيء إنه يحمل

خاصية يكون فيها مسلوب الحركة.. وقد جاء بعدها العالم الألماني "أرنست باخ" فقال إن الجسم كخاصة من خواصه - متفاعل، وسلب شيء قدرته على الحركة ليس خاصة من الخواص وعاد "جيتر" إلى الفلسفة فقال "العالم معادلة رياضية وإن الله مهندس على الدوام.. وهذه ليست حقيقة علمية .. هذا فرض فلسفي".

ورجعت الأسئلة مرة أخرى إلى نقطة غير واضحة ولكننا كنا قد انتهينا منها.. نقطة اللغة والحسيات حيث سأل عادل عبد الحكيم محمد - ليسانس الحقوق: "هل يتعارض وجود الامتياز العقلي الخارق مع وجود لغة مشتركة للتفاهم.

وأجاب العقاد: الممتاز عقلا.. مجرد امتيازه يكفي لعدم إمكان وجود لغة مشتركة للتفاهم بينه وبين العامة من الآخرين. ومقدار قوة الغزالي في تفكيره لا يمكن أن يقدره ويفهمه إلا من وصل مثله إلى هذه الدرجة من القوة والجبروت العقلي.. ولكن هذا لا يمنع من وجود لغة خاصة شبيهة بالرمزية يتفاهم بها ويدركها من أدرك هذه الطبقة الممتازة من التفكير.. وأنا مستعد الآن أن أكتب لك أسطرًا لا تفهمها أنت ولا يستطيع فهمها أحد من الحاضرين.. ولكن الخاصة مثلي يستطيعون فهمها من القراءة الأولى.

* وتسجل مجلة الاثنين الندوة مع العقاد حول مشاكل الشباب فتقول: في بيت العقاد ندوة يقيمها يوم الجمعة من كل أسبوع والذين يحجون إلى ندوة العقاد خليط من الشبان والفتيات والكبار.. منهم الطالب والموظف والطالبة ومحبو العقاد نفسه والندوة لا تناقش الأدب فحسب.. إنها خليط من الموضوعات.. جميع الرواد حريصون على "استراف" خبرة الأديب الكبير.. وكلهم يطلب المعرفة والنصيحة ويلتمس وميضا من الشموع التي تضيئها تجارب السبعين عاما من حياة الكاتب العبقري.

تلقى العقاد أول سؤال من الأستاذ عبد السلام جبر - ليسانس آداب قسم اجتماع ومدرس:

* كيف استطعت أن تكون على رأس رجال الفكر العربي دون أن تدخل الجامعة فأجاب على الفور:

لأنى لم أدخل الجامعة.

وحين ظهرت معالم الدهشة على وجوه الحاضرين.. استطرد مفسرا:

إن النبوغ شيء لا علاقة له بالجامعة.. لأنه استعداد شخصى ومهمة الجامعةأن تعلم أكبر عدد من أبناء الأمة.. والتعليم برنامج وقيود.. وهناك من خريجى الجامعة نوابغ رغم ما يدرسون بها.

* وبم تنصح آلاف الشبان الواقفين أمام الجامعة وأبوابها موصدة فى وجوههم؟

– أنصح لهم بأن يتجهوا إلى التجارة والصناعة والأعمال الحرة.. وفى استطاعتهم أن يستكملوا دراستهم إذا أرادوا.. أما إذا كان هدفهم من دخول الجامعة هو التوظف فهذا خطأ.. لأن المستقبل لا يتسع لتوظيف عشرات الآلاف من خريجى الجامعات فى وظائف حكومية. على الشباب ألا يجعل دراسته الجامعية وسيلة للتوظيف.. ولماذا يبتعد الشباب عن العمل الحر ويحرص الحرص كله على العمل الحكومى. إن من الأوليات التى أذكرها وأفخر بها أنى أول شاب استقال من وظيفة حكومية فى وقت كان الناس ينصحون فيه بالتمرغ فى "تراب الميرى" ومع ذلك لم أفشل. على الشباب ألا ييأس ولا يستعجل ثمرات جهده.. فأنا لم أيأس ولم أستعجل مع أنى تعرضت لأزمات كادت تدفعنى إلى الانتحار عام ١٩٠٧.

* ولكن... أليس من حق هؤلاء أن يدرسوا فى الجامعة؟

– ليت الدولة تستطيع أن تنشئ فى كل مدينة جامعة لقبول جميع المتقدمين. ولكن هذه مسألة إدارية تحتاج إلى ميزانية. والميزانية تحتاج إلى موارد كفرض ضرائب جديدة.. وعلى كل حال فليس من شأنى أن أتكلم فى الأمور المالية والإدارية.

ما هى المذاهب التى أثرت فى هذا الجيل فدفعت بعضهم إلى الانحراف على الصورة التى تنسبها الصحف إلى "جيمس دين".

ليس هناك مذهب معين أثر فى هؤلاء الشبان.. إنما هم باختصار شباب منحل راح يلتمس بين شتى المذاهب ما يبرر انحلاله.. والقائل منهم إنه وجودى لا يعرف من الوجودية شيئا اللهم إلا اسمها.

وقطع أحد الجالسين حديث الأستاذ - قائلا بأن جيمس دين لم يكن فى حياته الخاصة على الصورة التى يقلده بها الشبان بل كان يمثل هذه الأدوار فقط أجاب العقاد قائلا:

إن هناك علاقة بين هذا الممثل وبين الأدوار التى يمثلها.. وحادث قتله شاهد على ذلك.

* وعادت الآنسة تسأل من جديد: وإذا لم يكن هناك مذهب معين فما سبب هذه الظاهرة الجديدة التى شاعت بينهم؟

- ليست هذه ظاهرة جديدة.. إنها موجودة فى كل بلد وفى كل عصر. هل كان أرسيادس فى أثينا يقلد جيمس دين وشبان العصر العباسى مثلا والشباب المنحل فى فرنسا منذ قرون قديمة.

واحتج حسين حسن عبد القادر بمدرسة رقى المعارف الثانوية على توجيه الحملة إلى الشبان فى حين إن الفتيات يسرن فى الشوارع بالبنطلونات مقلدات مارلين مونرو وبريجيت باردو فأجاب العقاد:

- أنا لا أعفى الفتيات من المسئولية.. ومع هذا فإنى أكره من الشباب أن يلقى مسئولية انحلاله على الفتاة. بل أكره من أى شخص أن يلقى مسئولية خطاياه على غيره. لقد كنا شبانا وقد أخذنا حظنا من الشباب بأقصى ما نستطيع ولكننا لم نكن منحلين مثلهم.

* وما هو العلاج؟

- تربية جديدة لا تشريع.. تربية تقوم على الثقة بالمستقبل والتفاؤل.. وإن سنة ١٩٥٩ ليست آخر سنة فى عمر التطور والمدنية.

* إذا طلب إليك أن تنصح الشباب بقراءة ثلاثة كتب فما هى؟

ثلاثة كتب لا تكفى رغبة الشاب فى التزود من القراءة.. وإذا كان لابد من الاختيار فكتاب فى الدين وكتاب فى الأدب والفن.. وثالث فى الاجتماع والسياسة.

* هل أنت آسف على السنوات التى قضيتها فى الكتابات السياسية؟

- لست آسفا على الإطلاق.. ولعل بعض الأدباء يعملون كارهين فى الصحافة السياسية ولكن وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.. فقد عرفنا الكتابة السياسية إلى القراء فالتمسوا آثارنا الأدبية.

* لماذا لم تتزوج وهل تنصح طلاب الفلسفة والأدباء بعدم الزواج؟

- لو ضمنت حياة آمنة لمدة سنة واحدة لتزوجت.. ولكنى كنت معرضا دائما للحبس وترك العمل وقد كان يحدث أن تقفل الجرائد التى كنت أكتب فيها.. وللزواج تبعاته والتزاماته.. لهذا أشفقت على "حواء" من الزواج لعدم طمأنينتى واستقرارى.. ومع هذا لست من أنصار العزوبية.

* أنادم أنت على عدم الزواج؟

- لا..

* وهل الزواج يعوق الأديب؟

- نعم إذا كانت زوجته لا تهيء له سبل القراءة والإنتاج.. فالمرأة إذا فهمت زوجها وتجاوبت مع هواياته فإنها لا تعوقه بل تشد من أزره.. وقد كانت "سارة" تقرأ لى بالألمانية التى لم أكن أعرفها.

* أى هذه الأشياء أسعدتك فى حياتك أكثر من غيرها؟: الحب.. المال.. الشهرة.. الإنتاج.

- كلها تستمد قدرتها على الإسعاد منى أنا.. الشهرة لا تهمنى فقد كنت واثقا بأنها ستسعى إلى فلم أتعجلها... والمال لا يهمنى وقد كان فى استطاعتى أن أجمع ثروات وإنما كل ما يسعدنى ويشغل بالى هو المعرفة.

* أيحدث أحيانا أن تقرأ للعقاد كأنك قارئ آخر يبدى رأيه فيه؟

- نعم.. ولقد عدت إلى مقالات كتبتها فى سن السابعة عشرة فقرأتها بإعجاب.. والحديث الصحفى الذى أخذته من سعد زغلول لو أردت أن أعيد كتابته الآن ما كتبته أحسن مما كتب آنذاك.

* هل تؤمن بالروحانيات وتحضير الأرواح؟

- أومن بالروحانيات.. أما تحضير الأرواح.. فلا.

ولماذا؟ لأننا لم نسمع أن روحا قد استطاعت أن تقدم لنا نظرية علمية أو كشفا حديثا وعند هذا الحد من الندوة. كان الحاضرون قد زاد عددهم واكتظت بهم الحجرة والردهة، فضلا عن أن الساعتين والنصف التي أرهقنا بها "لسان الأستاذ".. فاستأذنا وخرجنا..

وتسجل مجلة الكواكب ندوة مع العقاد موضوعها الفن فتقول: يعقد الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى كل أسبوع ندوة يتناول حديثه فيها شتى المسائل من أدبية وفنية وعلمية. وفى ندوة هذا الأسبوع تناول العقاد الفن والأدب والتطورات الفكرية.

والكاتب الفحل والأديب العملاق يتصدر ندوته وحوله حشد من الأدباء والمتأدبين يجلسون منه مجلس التلاميذ من الأستاذ يسألون. والعقاد يجيب بصوته الهادئ العميق وفى إجاباته دروس وأفكار جديدة يسجلها الزاحفون للاستفادة بندوته.

سئل العقاد: .. هل عندنا روايات تصلح لأن تعرض فى الخارج؟

قال الكاتب الكبير:

- لا أعتقد أن عندنا هذه الروايات وليس ذلك عن عقم فى التأليف بل لعدم وجود الممثل الصالح لإبراز الشخصية التى نريد إبرازها فى المجال الخارجى وهذا مما يقعد كبار الكتاب عن التأليف للسينما ولست أطعن بهذا القول فى كفاءة بعض ممثلينا. ولكنها حقيقة أقررها وهى أننا يجب أن نوجد الممثل الصالح قبل أن نخلق الرواية الصالحة.

وسئل العقاد: هل الجمهور مسئول عن إيجاد الممثل الصالح والرواية الصالحة؟

قال:

- نعم فالجمهور هو القوة الفعالة التى تتحكم فى إيجاد الممثل الصالح والرواية الصالحة ففى أوروبا مثلا يقدمون لطوائف الشعب روايات تناسب مختلف الأذواق

والثقافات فتقبل على كل لون الفئة التى تستطيبه ولا تغلق المسارح أبوابها لعدم الإقبال على مسرحياتها. لأن كل فرقة تلقى تقديرا خاصا من الفئة التى تعجب برواياتها.. أما عندنا فالمسارح تفرض علينا روايات بذاتها، ولا تقدم غيرها، ولا تنظر إلى رضا الجمهور أو سخطه وكله عندها تمثيل وخلاص.

وقد لا تجد بعض الفرق الإقبال الذى تريده فلا تسأل نفسها عن سبب الإعراض عنها وتشكو الجمهور.. والجمهور هو الأولى بالشكوى. لأن الفرق لا تعنى بتقديم ما يلائم ذوقه وتريد منه أن يقبل على ما لا يعجبه.

* وتلقى الاستاذ العقاد سؤالا يقول: ما هى الأسباب التى ترون أنها عرقلت تقدم السينما عندنا؟

- السينما عندنا اجتازت مراحل وعقبات حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن.

وهناك أسباب نفسية كانت من عوامل تخلف السينما عندنا فقد عاشت السينما الأجنبية فى الماضى وخاصة عندما كانت صامتة معتمدةعلى قوة شخصية الممثلين وبراعتهم فى الحركات والتعبير.. وكانت لشارلى شابلن شخصية وكانت "لولاسى بيرى" شخصية وكانت "لبول مونى" شخصية وكان لكل واحد من مشاهير السينما الشخصية التى عرفه بها الجمهور فلما أخذنا السينما عن هؤلاء - وأصبحت السينما ناطقة - لم يشأ كل ممثل أو ممثلة أن يلتزم شخصية فنية تميزه. وكان همنا هو التقليد بغير وعى وبغير نظر إلى إجادة التقليد أو عدم إجادته. فقد كان الهدف إخراج أفلام تربح أموالا ولو كان فيها ضحك على الجمهور وخداع له.

وتلقى الأستاذ العقاد سؤالا آخر.. قال السائل:

سمعنا أن هناك من السينمائيين من فاوضوك فى إخراج قصتك "سارة" فماذا تم فى هذه المفاوضات؟ قال العقاد وهو يضحك ضحكة لها معان:

- لقد تعثرت المفاوضات ثم وقفت.. كان من المستطاع أن تكون فى قصة سارة مشاهد راقصة مما يدخله السينمائيون على القصص لتكون خفيفة - على حد قولهم

- وعلى الرغم من ذلك فإن قصة سارة لم تخرج بالسينما لأسباب لا أعلمها ويعلمها العالمون ببواطن الأمور.

وسأل أحد المريدين الأستاذ العقاد:

هل تقبل أن تكتب للسينما إذا طلب منك ذلك؟

قال العقاد:

- أنا لا أكتب للسينما إلا إذا اهتديت إلى الممثل الصالح والممثلة الصالحة لكى أفصل لكل منهما الدور الذى يلائمه. أما أن أكتب قصة يفرض على بطلها وبطلتها فهذا ما لا أرضاه. لأننى أريد أن أكتب للجمهور لا للأشخاص وسادة السينما عندنا لا يفرقون بين الاختيار للأشخاص وبين الاختيار للجمهور.. ومما يقعدنى عن الكتابة للسينما خوفى من تشويه ما أكتب تشويها يسىء إلىّ كما يسىء إلى الجمهور. وعلى ذكر الممثل الصالح أذكر نقاشا دار بينى وبين المرحوم محمود فهمى النقراشى. فقد قال لى النقراشى إنه يعتقد أن مهنة الممثل من أسهل المهن. وأن مهمته لا تتعدى أن يمثل مجموعة من الأكاذيب فهو تارة يمثل أميرا وتارة يمثل متسولا وتارة يمثل قديسا وطورا يمثل سكيرا فهو منافق كبير وخالفت النقراشى فى هذا الرأى وقلت له: "إن التمثيل من أشق المهن. فهو يحتاج إلى إحاطة واسعة بعلم النفس لكى يستطيع الممثل أن يتقمص الشخصية التى يريد أن يمثلها على المسرح. والنفاق نفسه يحتاج إلى براعة لإظهار غير ما تخفى والممثل الذى يريد أن يحاكى طبيعة الناس لابد أن يتخلى عن طبيعته وأن يعيش مع الذين يحاكى طبيعتهم وهذا عمل شاق لا يطبقه إلا الممثل القادر على التقلص والتقمص وقد اقتنع النقرائى برأيى، وتخلى عن فكرته الأولى عن الممثلين.

ورد الأستاذ العقاد على سؤال آخر يقول:

هل تعتقد أن السينما جنت على الشباب بعرضها الأفلام الرخيصة التى تحبب إليه الانحراف والاستهانة بالمثل العليا والقيم الأخلاقية الرفيعة؟

فكان الرد:

- كما جنى الأدب الرخيص الذى تضمنته الكتب على الأخلاق جنت الأفلام

الرخيصة على الشباب جناية لا تغتفر. وأنا لا ألوم السينمائيين قبل أن ألوم المسئولين عن التصريح بعرض هذه الأفلام إذ كان عليهم أن يقدروا خطورة تلك المشاهد على نفوس المراهقين.. ولا يكفى أن نمنع الشباب الذين لم يبلغوا السادسة عشرة من مشاهدة هذه الأفلام فالفيلم المحرض على الفجور أو على الجريمة عضو فاسد لا يضرنا بتره.

وارتفع صوت من آخر القاعة يسأل الأستاذ العقاد:

* هل توجد القصة المثالية؟

وقال العقاد:

– القصة المثالية تعيش فى خيالنا ولا وجود لها فى عالم الواقع. ونحن نسعى دائما إلى الكمال. وما نخلفه عن طريق هذا السعى يعد محاولة طيبة للوصول إلى الكمال الذى ننشده.

وكان السؤال الأخير هو:

ما رأيك فى التليفزيون العربى الذى ستشاهده الجماهير عما قريب؟

– ورد الأستاذ العقاد قائلا:

– لست أعتقد أن هناك جديدا فى هذا التليفزيون فهو لا يزيد على أن يكون شيئا مما كان يذاع على الناس دون أن يروا مشاهده تحول إلى شىء يذاع وتنقل صورة على الأمواج لتراها الأعين وتتمشى القلوب مع مشاهده التى تعرض على شاشته داخل البيوت.

وتسجل مجلة حواء ندوة مع العقاد موضوعها طبيعة المرأة لا تؤهلها للمساواة بالرجل فتقول:

إذا كنت على موعد مع "العقاد" فاحرصى كل الحرص على هذا الموعد. إياك أن تصلى بعد الميعاد ولو بدقيقة. إن الكاتب الكبير لا يغفر للمرأة شيئا. إنه يتلمس من الهنات الصغيرة طريقه إلى إدانة المرأة.. إلى "حبسها" فى "قفص" الجنس المغلوب على أمره والحكاية لها بداية.

كنت على موعد مع الأستاذ العقاد فى الأسبوع الماضى. وكان على أن أصحب الطالبات المغتربات لزيارته. وموعدنا كان فى الحادية عشرة من صباح الجمعة حيث يقيم العقاد ندوته الأسبوعية بمسكنه فى مصر الجديدة ولظروف خارجة عن إرادتنا تأخرنا عن موعد الوصول بثلث ساعة. ومن زاوية التأخير استل العقاد سلاحه.. وبدأت المعركة مناقشة طريفة أسجلها هنا مع الكاتب الكبير.

حين دخلنا على الأستاذ العقاد كان يتربع على المكتبة التى تتصدر الحجرة وأمامه ومن حوله رواد الندوة ومريدوه وتلامذته، وكلهم من الرجال والحجرة مليئة تماما، والصالة كذلك.. لم يكن هناك مقعد خال. ولما لحظ الحاضرون حيرتنا فى البحث عن مكان نجلس فيه قام بعضهم وأجلسونا وآخر ما كنا نتوقعه أن يفاجئنا العقاد بالتعليق على أريحية تلامذته أو بمعنى أصح على تفوق الرجال. قال وهو يرسم للحديث بداية حادة:

– كيف تسمحن لأنفسكن باحتلال مقاعد الرجال فى الوقت الذى تطالبن فيه بالمساواة؟

وحسبت بادئ الأمر أن الأستاذ يلقانا بالمداعبة التى تصدر كثيرا من رجل كبير. لكنه حين أردف مستطردا لمحت على وجهه ظلال الاستنكار قال وهو يتطلع إلى ساعته فى جدية بالغة.

– ثم.. الساعة الآن الحادية عشرة والنصف. بينما موعدى الحادية عشرة تماما ألا يدل ذلك على أن المرأة لا تحترم المواعيد؟

والذين يقرأون للعقاد لا يعتقدون إطلاقا أن هذا الكاتب الجاد يمكن بحال من الأحوال. أن يكون مداعبا فى أحاديثه. ولهذا استبعدت تمامًا أن الرجل يلقانا بشىء من المداعبة. والعقاد فى بيته يكسو شفتيه بابتسامة غامضة لا تعرفين هل هى ابتسامة الرجل الذى يقابل ضيوفا فى بيته أقصد ابتسامة العقاد. أم هى ابتسامة الكاتب الكبير الذى يرى أن يتخلى عن جديته أمام تلامذته ومريديه. ابتسامة غامضة لا تطمئن فى ظل الهجوم المفاجئ الذى تلقيته من الأستاذ العقاد ومن خلال ملاحظاتى السريعة أدركت أنه دخل فى "الجد" فقلت له أدافع عن التأخير.

- الساعة الآن الحادية عشر والثلث إذا أردت الدقة.

فقال دون أن ينـــزاح غموض الابتسامة.

- حتى ساعاتكن خربة؟

فرددت عليه:

- لا يا فندم إن ساعتى ليست خربة والسبب المباشر لتأخيرى هو البحث عن منزل سيادتك وعموما.. التأخير فى المواعيد ليس قاصرا على المرأة وحدها إن الرجال أيضا معرضون للوقوع فيه وأصر العقاد على مواصلة الاتهام:

والمفروض - وأنتن تشتغلن - أن تتحرين الدقة فى كل شىء وأولها الحرص على المواعيد.

- لم يكن فينا من يعرف بيتك سوى المصور والحقيقة أنه ضل طريقه إلى البيت حتى وصلنا متأخرات. وهنا أطلق "العقاد" ضحكة عالية طويلة ثم قال:

قال العقاد إن الرجل متفوق على المرأة فى الطبخ.

- رجعنا مرة أخرى إلى ما نادىبه. ألا يعنى هذا أن المرأة تابع للرجل وأنها منقادة له؟

وأمام إصرار "العقاد" على مواصلة الهجوم أحسست أنى مطالبة أمام نفسى بالدفاع عن بنات جنسى، والدفاع أمام من؟ أمام الرجل الذى حمل لواء الهجوم على المرأة فى كل ما كتبه عن المرأة. قلت وأنا أحاول أن أنتصر:

- هذا لا يعنى إطلاقا أن المرأة منقادة للرجل. فالرجل قد ينتظر المرأة وقد تنتظر المرأة رجلاً وليس معنى هذا أن أحدا منهما تابع للآخر إنها مسائل شكلية لا تدل بحال من الأحوال على خضوع عنصر لآخر.

- هذا كلام مفروغ منه. فالرجل متفوق دائما على المرأة حتى فى وظيفتها الأصلية وهى "الطبخ" إن الطباخ الذى يتفرغ لعمله بضع سنوات قليلة يتقنه ويتعذر على المرأة أن تتفوق عليه رغم أن "الطبخ" من صميم وظيفتها كامرأة. ومثل هذا الرأى ينطبق

على الحلاق والترزى وغيرهما من أصحاب المهن التى تتعلق بالمرأة والتى يكون من المفروض أن تجيدها وتختص بالتفوق فيها.

قلت:

- إن الرجل يتخذ من مهنة الطهو حرفة يتقاضى عنها أجرا. أما المرأة حين تطهو فهى عادة تقوم بها إلى جانب مهامها الأخرى. كتنظيم البيت وتنظيفه والعناية بزوجها وأطفالها والكثيرات منهن يشتغلن بجانب كل هذا ليرفعن من مستوى معيشتهن والوقوف بجانب أزواجهن فى معركة النضال من أجل الحياة.

ولو أن الحياة هيأت للمرأة فرصة التخصص فلا شك أنها ستتفوق على الرجل حتما فى مثل هذه المهن. وذلك لأنها أقرب إلى مألوف عملها. وإذا كان الرجل متفوقا فى إحدى المهن التى هى من وظيفة المرأة فليس ذلك أنه متفوق عليها فى كل شىء. فضلا عن أننا نعيش فى مجتمع بصرف النظر عن طبيعة العمل. لا لا يا أستاذ إنى لا أوافق سيادتك على هذا الرأى أبدا.

- ومن أنت حتى تناقشى العقاد؟

إنك تناقشين العقاد الذى ما كان الملوك ليجرؤوا على مناقشته أو الاعتراض على رأى يبديه.

- الناس كلهم يملكون الثقة بأنفسهم حين يتحدثون ومناقشتى مع سيادتك مبعثها ثقتى بما أقول إنى أدافع عن الجنس الذى أنتمى إليه ومن حقى أن أقول رأيى مع احترامى للجنس الآخر والجنس الذى أدافع عنه دافع عنه التاريخ بالأدلة والبراهين.

ولا شك أن الأستاذ العقاد من خلال القراءات الدؤوبة الدارسة لا يجهل من تكون حتشبسوت وكليوباترا وزنوبيا وخديجة زوجة الرسول وأسماء بنت أبى بكر وجان دارك ومدام كورى وفيجان لاكشيمى وصفية زغلول وهدى شعراوى والبطلة الجزائرية جميلة بوحريد.. والكثيرات اللاتى لن يتسع المجال لذكرهن.

ألا يكفى ذلك دليلا وتزكية على "وجود" المرأة وتفوقها.

وتسجل مجلة الاثنين ندوة العقاد وكان أبرز موضوعاتها اعترافاته الشخصية حيث يناقشه تلاميذه فى قصة حبه ويقول محورها: "الندوة التى يقيمها العقاد فى بيته كل أسبوع استحالت يوم الجمعة الماضى إلى اعترافات.. كان موضوع الاعتراف هو الحب.. وكان بطل الحديث هوعباس محمود العقاد نفسه الكاتب العملاق صاحب السبعين عاما فى دنيا العمر.. وصاحب السبعين كتابا فى عالم التأليف.. وصاحب "أجرأ" لسان فى الهجوم والدفاع سواء كانت المعركة فى الأدب أو النقد أو السياسة وكان الحديث عن "سارة"..

وكان يا ما كان للكاتب الكبير قصة حب أودعها ذات يوم كتابا.. وينفضها اليوم حديثا فيه وقدة العواطف.. ومتعة الذكريات.

قلت للأستاذ العقاد وأنا أحاول أن أنزعه من الحديث فى الفلسفة: ما هو الحب فى نظرك؟ وبدا على الكاتب الكبير أنه لم يفاجأ بالسؤال.. لأنه أجاب دون تردد ودون تفكير.

أعرف ماذا يدور بأذهانكم أيها الشبان.. نحن نعيش التجربة ونحترق بنارها وأنتم تأخذون الفوائد والنصائح والقواعد بلا معاناة. الحب فى مذهبى علاقة تفاهم وتبادل شعور بين رجل وامرأة.

ولا ندرى لماذا صمت العقاد لحظة.. ربما لأن السؤال فتح شهية ذهنه إلى التحليق فى دنيا ذكرياته.. وربما لأن اللهفة البادية على وجوه الرواد - وكلهم من الشبان - أغرته على ارتياد أحلامه البكر أيام الصبا وأيام الشباب..

وانتهزتها فرصة فقلت له:

* فى قصة "سارة" تجربة لا يكتبها غير البطل.. والبطل فى القصة هو "همام" فهل أنت همام وما هى قصة حبك باعتبارك البطل؟

- وابتسم.. أشرقت على وجهه ومضة من الارتياح وهو يقول:

أعرف قصدك.. وسأعطيك مفتاح السر كله: إن "همام" بطل قصتى "سارة" هو

عباس العقاد نفسه وإذا تتبعت أبطال القصة وجدت اسم كل واحد على وزن الاسم الحقيقى لصاحبه.

كنت فى حوالى الثلاثين من عمرى.. شاب أديب لمع اسمى فى ميدان الصحافة والأدب.. أما "سارة" فقد التقيت بها فى بيت "خياطة" فرنسية.. كان لقاء جريئا.. قفزنا خلاله من الحديث العادى إلى الغزل والمناجاة.. ويومها أثارتها هذه الجرأة فقالت لى:

- أنت فضولى.

- ليس مع كل الناس.

- تحيات وغزل.. وعما قريب "عيناك ووجنتاك وأهواك ولا أنساك" إلى آخر هذا الموال.

- ولماذا عما قريب بل الآن.

- أنت عجول.. وجرىء أيضا.

- إن وعدتنى أن أجنى للصبر ثمرة فأنا أكثر صبرا من أيوب.

هكذا بدأنا أول لقاء.. وبعده اشتعلت فى قلبى نيران الحب كانت أجمل من رأيت فى أيام فتنتى وشغفى.. كانت حزمة من الأعصاب تسمى امرأة استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة.

ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرس الجموح يتبعها النشاط والمرح كما يتبعها الإعياء والبكاء، لها فراسة نفاذة فى كل ما بين الجنسين من علاقة، تفطن لما فى نفس المرأة لأنها امرأة.. وتفطن لما فى نفس الرجل لأنها امرأة.

وهكذا بدأت قصتنا عنيفة فائرة فهى فتاة جميلة كلها أنوثة.. وأنا شاب عنيف الطبع قوى الإحساس بنفسى كانت تزورنى فى الساعة الخامسة مساء بمنزلى وقبل حلولها بربع ساعة كنت أقف وراء النافذة أنتظر قدومها وهى فى الطريق.. فإذا احتوانا

البيت فالعالم كله معى داخل البيت أما فى خارجه فلا يعنى بالنسبة لى شيئا مطلقا. كنا نقضى يوم الجمعة كله فى خلوة كاملة إذ يخلو بنا المترل حتى من الطاهى والخادم.. وكنا نقوم نحن الاثنين بالخدمة. كان يوم الجمعة هو يوم الحب فى حياتى. ليوم الجمعة قصة: فهو يوم الحب عند اليونان.. وكذلك مدلوله عند العرب: يوم حب وغزل فهم يقولون عن يوم الجمعة إنه يوم العروبة – بفتح العين – وهى البنت اللعوب الجميلة.

وراق لأحد تلاميذ العقاد أن يعلق على موعد يوم الجمعة فقال:

الآن يوم الجمعة عزيز عليك تجعله موعد لقائنا بك؟

فابتسم ابتسامته العريضة وهو يقول:– لكنكم تأتون فى "الماتينيه – وكانت سارة تأتى فى السواريه، لكن التلميذ النجيب أصر على مداعبة الأستاذ فقال: هل لنا أن نطمئن بعض الحاضرات بأنه قد يصبح السواريه من نصيبهن كما كان من نصيبها؟ وأغرق العقاد فى الضحك قائلا: لا.. لا.. إنه محجوز وضج الحاضرون بالضحك.. وانهالت الأسئلة. من هى؟ وما شكلها وهل هى موجودة الآن؟ و لم يجب.. كل الذى قاله إنه سيكتب قصتها فيما بعد.

واستطرد العقاد يستأنف الحديث عن "سارة" وكيف أنهت قصة الحب بينهما:

– لقد بدأت نهاية القصة بالشك، شككت فى حبها لى.. فاستحال الوجد إلى فتور والشوق إلى ضجر. قام الشك فى نفسى علىعلامات وقرائن لم أقطع بها حتى عهدت إلى صديق بمراقبتها وجاءنى الخبر اليقين فلم أملك إلا أن أقتل هذا الحب وأسير فى جنازته.

ويصمت العقاد لحظة.. ثم يمضى فى حديثه عن الحب بالنسبة للأديب فيقول:

– إن الأديب الذى يعيش حياته بلا حب لا يسمى أديبا على الإطلاق. لا لأنه لم يحب فقط.. بل لأنه لا يحس. ولقد استمتعت بشبابى كما لم يستمتع به أحد من أقرانى والحب موجود فى هذه الأيام كما كان فى جيلنا بل أحسن.. لأنه الآن أكثر وعيا مما كان عليه أيامنا.. لقد أصبح الحب مبصرا بعد أن كان أعمى ولكنه لا يريح لأنه الحب.

ختـــام

وختاما لعلنا نرفض بعد هذه الصفحات السابقة هذه الأحكام المتسرعة أحيانا، التى قد تستهدف هذا الرائد العظيم، والتى تجرى على ألسنة وأقلام فئتين من الشباب، الأولى: يمثلها بعض أصحاب المذاهب التقدمية! والثانية: يمثلها حملة الألقاب الجامعية!.

الأولى: ترى أن فكر العقاد متخلف، وأنه لم يأت بجديد، ويبررون ما يذهبون إليه من أحكام بأسباب تنتهى إلى أنه ظل معاديا للمذاهب الاقتصادية الحديثة، ويحاولون هدم ما بناه العقاد بأدوات تخلى عنها الآن أصحابها. حين رأوا بديلا لها يصلح مجتمعاهم!

والفئة الثانية: ترى أن ما بقى من العقاد لا يصمد طويلا أمام النقد المنطقى، لأنه فى مجموعه يفتقر إلى المنهج العلمى. وأن كل ما كتبه هو مجرد تجارب تأليفية غير ناضجة فى أحيان كثيرة.. أراد صاحبها أن يؤكد بها ذاته، ولذلك لا تصلح مصادر للبحث العلمى، ويبررون أحكامهم بأسباب تنتهى إلى أن العقاد كان يتعالى على الجامعة ومناهجها بسبب دراسته التى لم تتم!

لهؤلاء وهؤلاء نقول: درهم من الوعى خير من قنطار من الحماس، ونذكرهم بأن العقاد الذى سطر لنفسه وللغة العربية كتابا متميزا فى حاجة إلى من يتصفحه بعين مخلصة وأخرى واعية، هو فى حاجة إلى النظرة الموضوعية التى تعترف بما له وما عليه، فتعطيه ما يستحقه، وتأخذ منه ما يزيد على حقه، وأن ثقافة العقاد خاصة - كما أن النفس البشرية - لن تعرف خباياها إلا إذا أحببتها، وإذا أحببتها فإنها تعطيك سرها وتكشف لك عن كنوزها ومفاتنها، ولن يتأتى ذلك فى وجود أفكار مسبقة تحول بينها وبين الحكم الموضوعى.

بعد هذا لعلنا نجيب – فى سطور – عن سؤال طالما يتردد، تتطلب إجابته صفحات هو: ماذا يبقى من العقاد؟ فنقول تبقى موافقة العظيمة، وأعماله الخالدة، وعن طريقهما استطاع أن ينقل الصراع الدائر بين القديم والجديد من المستوى الضيق الذى كان عليه إلى مستوى أرحب وأوسع. جاعلا هذا الصراع جزءا لا يتجزأ من تكويننا الفكرى.

لقد ترك العقاد – كما نقول دائما – حياتنا والفكر فيها حافل باليقظة والنشاط بعد أن كان محنطا فى توابيت العصور الوسطى، والأدب نابض بالحركة والحياة بعد أن كان متحجرا فى قوالب بالية، والفن يرسل أشعته عبر الحدود بعد أن كان محفوظا داخل العلب والمواخير.

واستطاع العقاد ونفر قليل من أبناء جيله أن يقيموا جسورا قوية بين أدبنا المعاصر والآداب العالمية، وأن يستوعب هو هذه الآداب ويهضمها ويتخذ منها موقفا انتقاديا حيث رفض أغلبها، واتفق مع أقلها وكوّن لنفسه رأيه الخاص وكان صادقا حيث قال: " لم أتأثر بأحد لأننى أردت أن أكون أنا نفسى"، كما استطاع أن يضع أعلام العرب والمسلمين فى مصاف أعلام الغرب، ولم يجد حرجا فى الموازنة بين حضارة الإسلام وغيرها من الحضارات القديمة، وبين فلاسفة الشرق وأدبائه وأمثالهم فى الغرب، فعالج بذلك بعض هذه القضايا بمنهج المقارنات.

ماذا يبقى من العقاد؟ يبقى أكثر من مائة كتاب فى خلالها أرى العالم كله. وأطوف الأرض من أقصاها إلى أدناها. وكأنى سائح فى عالم مجهول لا أول له ولا آخر، فهذا كتاب يحملنى إلى القرن الأول الهجرى، وآخر إلى القرن الأول الميلادى، وثالث إلى ما قبل الهجرة والميلاد، ورابع يضعنى فى مواجهة القرن العشرين.

ويبقى من العقاد مدرسة الديوان، تلك التى بشر بها مع زميليه المازنى وشكرى فى عشرينيات هذا القرن لتظل سارية إلى الآن فى أدب ونقد الكثيرين ممن لم يتتلمذوا عليه أو يعاصروه حين نلمح فى آثارهم أدب الفكرة الواعية بكل ما تعنى من معان ودلالات.

ويبقى منه ما سجله عنه الكثيرون ممن لم تغب عن أعينهم أو عن ذاكرتهم خطوات المنهج العلمى، من علمائنا الأجلاء وكتابنا الكبار.

ماذا يبقى من العقاد؟ وهل هناك أكثر بقاء من أن يظل فكر هذا الرائد العظيم موضوعا للمناقشة بين الأجيال، وأن يكون صاحب هذا الفكر حاضرا فى وجداننا حتى وإن غاب عن أعيننا منذ عشرات السنين.

سامح كريم

مصادر

مؤلفات العقاد

مع العقاد - د. شوقى ضيف.
فى صالون العقاد - أنيس منصور.
ببليوجرافيا الجامعة الأمريكية عن العقاد - د. حمدى السكوت.
العقاد بين اليمين واليسار - رجاء النقاش.
من ذكرياتى فى صحبة العقاد - محمد طاهر الجبلاوى.
يسقط الحائط الرابع - أنيس منصور.
الجمال والحرية والشخصية الإنسانية فى أدب العقاد- د. نعمات أحمد فؤاد.
نظرات فى فكر العقاد - د. عثمان أمين.
تأملات فى أدب العقاد - د. لويس عوض.
عبقرية العقاد - د. عبد الفتاح الديدى.
النقد والجمال عند العقاد - د. عبد الفتاح الديدى.
عصر ورجال - فتحى رضوان.
عمالقة الصحافة - حافظ محمود.
عباس العقاد ناقدا - د. عبد الحى دياب.
فصول من النقد عند العقاد - محمد خليفة التونسى.
مؤلفات عبد الرحمن الرافعى (موسوعة مصر الحديثة) - عبد الرحمن الرافعى.
العقاد دراسة وتحية - لتلاميذ وأصدقاء العقاد.
العقاد معاركه فى السياسة والأدب - عامر العقاد.
لمحات من حياة العقاد المجهولة - عامر العقاد.

أعداد من الأهرام (صفحات بالأهرام الأولى) - مقالات سامح كريم.

مجلة العربي (الكويتية) والمنتدى الإماراتية، والثقافة القاهرية.

مؤلفات المؤلف عن العقاد.

دائرة المعارف الإسلامية.

الموسوعة العربية الميسرة.

المحتويات



يأتى هذا الكتاب دالًّا على عنوانه .. العقاد الحاضر فكرًا وثقافة وعطاء .. يمكنك أن ترى من خلاله العالم كله وتطوف الأرض من أقصاها إلى أدناها .. العقاد الحاضر بسجل عطائه المتميز فى الفكر الإنسانى على شتى صنوفه ومتباين مشاربه .. العقاد الحاضر بشعره فى أحد عشر ديوانًا تكشف عن جوانب العقاد الشاعر أو أمير الشعراء بعد شوقى .. العقاد الحاضر بمعاركه الفكرية والسياسية والأدبية ، التى أثرت حياتنا الأدبية والفكرية ، وانطلقت بها من حيزها الضيق إلى آفاق أرحب وأوسع .. فجعلت هذه المعارك معينًا لاينضب ، وزادًا لاغنى عنه فى تكويننا الفكرى والسياسى والأدبى .. العقاد الحاضر صاحب القلم المبدع والمتفرد والفريد ، والذى سطر لنفسه وللثقافة العربية كتبًا رائدة تحتاج إلى قارىء يتصفحها ، ذى عين مخلصة وواعية ... بينما لم يتعد وصف العقاد الغائب ... إلا محدودية ال... الجسدى الذى لاقبل لأحد من البشر بمقاومته أو دحره ...

الكتاب دعوة لأن نستشرف آفاق وجود العقاد بيننا ، ونترسم منها كيف ... الإبداع والإخلاص والعطاء عندما تحمّلك الأقدار أمانة ، لايقدر علي... إلا أولى العزم الصادق والإرادة الصلبة والموهبة بلا حدود...



★ عباس محمود العقاد الحاضر الغائب

سامح كُريّم


6 222006 301651

الدار المصرية اللبنانية